الدكتور عبد الرحمن عبد الواحد الشجاع

اليمن في عيون الرحالة

دار الفكر
دمشق - سورية

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

الدكتور عبد الرحمن عبد الواحد الشجاع
اليمن في عيون الرحالة
دار الفكر

بسم الله الرحمن الرحيم



اليمن في عيون الرحالة



الدكتور عبد الرحمن عبد الواحد الشجاع



اليمن في عيون الرحالة



دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

الكتاب ٨٦٦
الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ = ١٩٩٣ م

سورية - **دمشق** - برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد - ص.ب (٩٦٢)
برقياً: فكر - س.ت ٢٧٥٤ هاتف ٢٣٩٧١٧، ٢١١١٦٦ - تلكس FKR 411745 Sy

الصف التصويري: دار الفكر بدمشق

بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيم

مقدمة

لقد كُتب عن تاريخ اليمن قديماً وحديثاً الكثير من الكتب والبحوث ولكنها لم تف بالغرض المطلوب : وهو الوصول إلى توصيف كامل لليمن في مراحله الزمنية المتعاقبة .

وما دام الأمر كذلك فإن تاريخ اليمن ليس في حاجة إلى كتابات تعنى بالسرد التاريخي - كما هو شأن معظم الكتابات التي ظهرت في العقود الأربعة الماضية - وليس في حاجة - أيضاً - إلى تلك الكتابات التي نحت نحو التمذهب التاريخي الحديث أمثال ما كتب بغرض الترويج لمذهب سياسي بعينه .

إن تاريخ اليمن في أمس الحاجة إلى دراسات تعنى بالبحث الجاد عن جذور وأعماق الأحداث والأشخاص والقيم لتتضح من خلاله الصورة التاريخية لليمن في عصوره المختلفة .

وينبغي أن تُراعى - في تلك البحوث والدراسات - منهجية البحث وأصوله لا من ناحية الشكل الفني والإخراج ، ولكن من ناحية المضمون والمرتكزات الأساسية لمنهجية البحث .

فينبغي أن تراعى - أولاً - عدم مقابلة الوثائق والوقائع والروايات - مادام قد صحت - بمقررات مسبقة نابعة من تصور فكري لم يكن موجوداً أثناء حصول تلك الوقائع .. وإنما نرجع إلى الأصل الفكري والتصوري الذي كان يوم ذاك

يتحكم بحياة الناس السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وعلى ضوء ذلك نحاكم الوقائع والأحداث والأشخاص مستندين إلى تلك الأصول الفكرية والتصورية ، لأن الشيء فرع عن تصوره ، ولا يعني هذا تحيزاً ، أو أنه يخلو من الحِيَدَة ، وإنما العكس هو الصحيح ، لأننا إذا لم نتخذ هذا المنهج ، فإننا نكون قد ولجنا في بوتقة التحيّز وعدم الحِيَدَة لإقدامنا على محاكمة أحداث تاريخ مضى بأفكار جيله وما يتصف به من أفكار وقيم ومثل وتصورات وسلوك بأفكار وقيم وتصورات لم يكن يعرفها ذلك العهد ، فأين النصفة والحِيَدَة من هذا المنهج المتبع .

فاتباع المعايير الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي تمارس في وقتنا الحاضر - مثلاً - وتطبيقها على الدراسات التي تعالج جوانب من التاريخ الإسلامي في حقبه الأولى هو ضرب من العبث ينبغي الترفع عنه ، لأنه يخرج بالبحث عن جدّيته ورزانته .

وينبغي - ثانياً - تجنب إقحام المصطلحات الغربية في الحقبة التي تكتب حولها سواء أكانت مصطلحات نبتت من حضارات وأمم سابقة .. أم مصطلحات محدثة لها ظروف نشأتها وظلال معانيها . لأن إقحام المصطلحات في غير محلها يخرج بالدراسة والبحث الجاد عن مساره ، ومن ثم يصبح بحثاً موجهاً وليس بحثاً مجرداً . نعم ممكن أن نستخدم المصطلحات الفنية البحتة التي ليس لها خلفية فكرية أو فلسفية ، كالمصطلح الفني الخالي من أي ظلال تصورية فهذا لا غبار في استخدامه . ومن هنا فإن استخدام المصطلحات التي كان يتعامل بها الناس في ذلك العصر هو الأسلوب المنهجي الصحيح . وليس هناك مانع من التصرف بتلك المصطلحات وتقريب فهمها إلى ذهن القارئ الحديث بمصطلح شائع كأن نعرف ديوان الجند مثلاً بأنه يقارب في عمله وزارة الدفاع أو الحربية .

وينبغي - ثالثاً - ألا نعالج القضايا التاريخية لجزء من دار الإسلام من

زاوية انفصالية بحتة ، فرحين بما يتوفر لدينا من معلومات انفصالية عن الاتجاه العام لدار الإسلام أو الخلافة الإسلامية ، لأن هذه النظرة الجزئية أو الانفصالية لم تنبت إلا على أرضية فكرية استعمارية حديثة ، وقد حاولوا تعميقها ، وربط الحوادث بالوطن الجزء ، وفصله عن الأم ، لكي تصبح دار الإسلام وهي متحدة - والتي أقضت مضاجعهم في القرون الماضية - عبارة عن مزق تدعى بالأوطان المستقلة أو الدول المستقلة . ويعرف الكثير أنها دعوى تفتقر إلى دليل .

وهناك أمر آخر - ينشأ من اتباع النظرة الانفصالية أو الجزئية - وهو أننا لن نفهم كثيراً من الجوانب والأحداث التي ستقابلنا في أثناء البحث إن نحن أخذنا بتلك النظرة الانفصالية ، ذلك لأننا سنحاول تفسير الحدث بناءً على المعطيات الداخلية لهذا البلد أو ذاك ، بينما هي مرتبطة بعرى منبثقة من هوية الأمة وتوجهها وبظواهر مارستها الأمة في دار الإسلام عموماً فتأثرت بها أجزاء دار الإسلام شاءت أم أبت .

وينبغي - رابعاً - أن نعتمد على الأسلوب التحليلي للأحداث واستخراج المخبوء من ورائها ، وهذا لا يعني أن نجعل التخمين والظن والحدس والافتراض يقيناً ، ونبني عليه مقومات دراساتنا ، بل المرجو أن نلجأ إلى تعددية وتنوع المصادر . ونحاول أن نكتشف الصورة التي كانت في الأصل دون أن تقحم تصوراتنا المسبقة لأن المراجع الثانوية أو المعلومات التي تتوفر في غير مظانها ، كمثل كتب الفقه أو الرحلات تعطينا معلومات في غاية الأهمية وهي التي تستكمل الصورة على حقيقتها .

فإذا ماراعينا ذلك في بحوثنا لدراسة التاريخ الإسلامي فإننا سنصل إلى فهم هذا التاريخ على حقيقته وليس معنى هذا أن الوصول إلى ذلك سيكون ميسوراً بل دونه العنت ، والجهد المضني ، وستقابلنا صعوبات أثناء جمع المعلومات لندرة

المصادر أو عدم تنظيمها ، ولتوزيع المعلومات في غير مظانها ، وصعوبات أثناء الصياغة ، لأن الباحث يحتاج إلى معرفة بتصورات الناس في تلك الحقبة وقيمهم بل وحالاتهم النفسية ، لكي يطابق هذا مع ماجاء في المصادر التاريخية .

ودارس تاريخ اليمن الإسلامي سيلقى معاناة أكبر ، وعنتاً أوسع .

فمن ناحية ، لم يهتم اليمنيون بتدوين تاريخهم إلا في عصور متأخرة .. وما دوّن - وهنا من ناحية ثانية - إما تعاورته يد الزمن فأصبح لا يذكر إلا عرضاً في كتب المتأخرين عن زمنهم ، وإما احتجزته أجزاء من الكتب الخاصة أو العامة السيئة الإعداد الرديئة الحفظ ، المعدّة كوجبة شهية للمحشرات الضارّة . فلم يعمل أصحابها أو المشرفون عليها على إخراجها بأنفسهم ، أو أتاحوا الفرصة لغيرهم ليباشر العمل فيها ليخرجها إلى النور .

ومن هنا جاءت مجموعة البحوث والدراسات هذه التي لاأزعم أنها قد ألمت بتاريخ اليمن في عهده الإسلامي ، ولا أنها تفي بالغرض ، ولكنها تسدّ ثغرة في المجال التي طرقته متحرية الصدق والجدّية ، نابذة السرد التاريخي أو المذهبية الفكرية للتاريخ .

ومعظم بحوث هذا الكتاب اعتمدت على مصدر تاريخي غفل عنه الكثير وهو أدب الرحلات الجغرافية التي تضمنت النادر من المعلومات السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية .

وقد حاولت - في بعض الأحيان - تعزيز ماجاء في كتب الرحلات بمعلومات تضمنتها مصادر أخرى للبرهنة على صدق ماكتب في أدب الرحلات .

وسيلحظ القارئ هنا في هذه البحوث أن اللجوء إلى استقراء ماكتبه الرحالة عن اليمن في القرون الأولى للهجرة هو نوع من البحث عن مصادر جديدة لتجميع

المعلومات ووضعها في مكانها لتتناسق الصورة المطلوبة لرسم تاريخ اليمن الإسلامي .

ولا يغيبن عن بال القارئ أن معظم بحوث هذا الكتاب قد نشرت في مجلات متخصصة ، وأملي ألا يكون هذا أدعى إلى العتاب أو مخيباً للآمال ، ولكنني أقدمت على نشرها مجتمعة مضيفاً إليها ما يتناغم معها ويتآلف من موضوعات مع جزئياتها ، لعلمي أن اجتماع هذه البحوث مرتبة ومنسقة ليراها القارئ بين يديه حزمة واحدة دون عناء هو هدف مطلوب لذاته ، يتمناه الباحث المتخصص والقارئ العابر على السواء .

ولقد أشرت ـ في بداية كل بحث نشر سابقاً ـ إلى مكان وزمان نشره حتى يتسنى للباحث أن يرجع ـ إن شاء ـ إلى المورد الأول الذي نشر فيه البحث .

ولم أكتف بطبع ما نشر سابقاً دون إعادة نظر في بعض الجوانب ، بل لقد أضفت أشياء وحذفت أشياء حسب ما تقتضي الحاجة .

فأرجو أن أكون في هذا الاتجاه قد أضفت جديداً إلى المكتبة التاريخية اليمنية خاصة ومكتبة التاريخ الإسلامي عامة .

فإن كان التوفيق قد حالفني ، فهذا فضل من الله يستوجب الشكر والحمد له سبحانه ، وإن جانبني التوفيق فحسبي أنها محاولة جادّة أرجو ممن وجد في نفسه القدرة أن ينمي هذه المحاولة ويجعلها تؤتي ثمارها المرجوّة ، فهو ما نصبو إليه ونتمناه .

ومن الواجب هنا أن أتقدم بالشكر إلى كلّ من أعانني على فهم مصطلح هنا ، أو بلد هناك ، أو دلَّني على مصدر يوضح ما غمض ، أو أمدَّني بملاحظاته القيِّمة .

ومن هؤلاء وأولئك الأستاذ المتخصص بالتراث اليمني عبد الله محمد الحبشي ، والشاب الطامح داود بن داود عبد الهادي المندعي الذي ألمح على تقاطيع وجهه تباشير النبوغ راجياً له مستقبلاً زاهراً .

لهم جميعاً مني الشكر والدعاء ... ونرجو من الله للجميع القبول والسداد .

صنعاء رمضان ١٤١٣ هـ

مارس ١٩٩٣ م

الدكتور

عبد الرحمن عبد الواحد الشجاع

أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد

رئيس قسم التاريخ

كلية الآداب

جامعة صنعاء

الوضع السياسي في اليمن
في القرنين الثالث والرابع الهجريين

كان القرنـان الثـالث والرابع للهجرة ـ في دار الإسلام بصفـة عـامـة ـ يمثلان مرحلة خطيرة على المستوى العام في شتى المجـالات والاتجـاهـات ، ولعلَّ اليمن كان يمثل نموذجاً للرقعة الإسلامية كلها التي أصابها الاضطراب والتمزق .

تلك الحقبة عاصرت دولاً قـامت ثم انتهت ، وخلفتهـا دول أخرى . وبرزت فيهـا زعـامـات تـداولت المواقع مع غيرهـا تـارة في سـدّة الحكم وتـارة في غيـاهب السجون ، ثم اختفت وقامت على إثرها زعامات أخرى ذات ميول مختلفة .

ونظراً لظهور أفكار ومعتقدات ، وحركات قامت على أساس تلك المعتقدات كالشيعة الزيدية ، والشيعة الاثني عشرية ، والشيعة الإسماعيلية أو القرمطية .

ونظراً لوضع اليمن كجـزء من دار الإسـلام التي كان يحكمهـا خليفـة واحـد في بغداد ، حيث كان لهذا الخليفة دور اختلف مداه وأثره وطبيعته مع تعاقب الزمن وتطور الأحداث ، سواء أكان دوراً فعلياً أو دوراً اسمياً ، أو حتى شعورياً .

نظراً لـذلـك كلـه ، فـإننـا لكي نرسم صورة واضحـة عن الوضع السيـاسي في اليمن ، ولكي نعرف القـوى التي أدَّت دوراً على المسرح السيـاسي في تلـك الحقبـة ، فإنه لابدَّ لنا من تقسيم الموضوع في هذه الـدراسـة إلى (اتجـاهـات) تنضوي تحت لوائها عدة قوى مختلفة الزعامات متباعدة الأزمان والأماكن .

ويمكن أن نحصر تلك الاتجاهات فيما يلي :

أ ـ الاتجاه العباسي أو الولاء للخلافة العباسية . وسنشاهد في هذا الاتجاه :

١ ـ نفوذاً عباسياً مباشراً بإرسال الولاة من عاصمة الخلافة بالجيوش المصاحبة له سواء لإدارة شئون البلاد ، أو لإخضاع الحركات التي تحدّ من هذا النفوذ . وهذا الجانب لن يواصل معنا طوال هذه الحقبة بل سينقطع في الربع الأخير من القرن الثالث .

٢ ـ وسنشاهد ـ أيضاً ـ في هذا الاتجاه ولاء للخلافة ، سواء من أفراد أحسوا أنهم ظلموا فلجئوا إلى الخليفة ، أو قوى قبلية تستنصر ضدَّ قوى أخرى .

٣ ـ وسنشاهد في هذا الاتجاه كذلك ولاء اسمياً كان متعارفاً عليه في ذلك العصر بل هو من سَمْتِه مكتفين بالدعاء وبالمكاتبات التي تعدّ من قبيل الرسائل الرسمية ، أو الرسائل الإخوانية ، وقد يستمر معنا هذا النوع من الولاء بين الحين والآخر حتى أواخر القرن الرابع ، وقد يستبدل أحياناً بالولاء للدولة الفاطمية .

ب ـ الاتجاه الشيعي . وهذا الاتجاه على الرغم من تميّزه بعنوان واحد وهو (التشيّع) إلاّ أنه مختلف في حقيقته متباعد فيما بين أطرافه ولذا سنجد :

١ ـ اتجاهاً شيعياً زيدياً سيفاجئنا منذ بداية القرن الثالث ثم يختفي ليظهر في الربع الأخير منه ليكون له الصولة والجولة طوال بقية الحقبة التي نؤرخ لها .

٢ ـ اتجاهاً شيعياً اثنا عشرياً ، وكان هذا الاتجاه أساساً أو رصيداً لاتجاهات أخرى كان لها دور في خلخلة البلاد لفترة طويلة .

٣ ـ الاتجاه الإسماعيلي . ذلك الاتجاه الذي بدأ موحداً توجهه قيادته في العراق ثم في الشام ثم في المغرب ، وقد حاول ابتلاع اليمن كله بتنسيق وتخطيط دقيق ، ولكنه انقسم على نفسه فظهر :

٤ ـ الاتجاه القرمطي الذي ظهر معارضاً للإسماعيلية فجأة ، ثم اختفى بالسرعة نفسها التي خرج فيها .

جـ ـ الاتجاه القبلي . وهذا الاتجـاه هو أكثر تلـك الاتجـاهـات تعقيـداً ، فهو لا يقوم على عقيدة محددة أو مبادئ معروفة ، بل هي زعامات تقوم هنا وهناك ، وأحياناً تعطي ولاءها للأقوى من حولها .

وسنلاحظ في هذا الاتجـاه قوى قبليـة تظهر ثم تختفي بظهور أحـد زعمـائها واختفائه ، وسنجد أيضاً قوى قبليـة بـدأت قوة صغيرة موحـدة ، ثم تعـاظمت ثم تناحرت زعاماتها وتضاءلت مثل (اليعفريين) .

وسنجـد قـوى قبليــة كانت تغيّر ولاءهــا من جهــة إلى أخرى كما يغيّر المرء ملابسه . هذه الموضوعات الثلاثة هي أركان بحثنا هذا إن شاء الله .

أولاً ـ الاتجاه العباسي

كان النزاع الذي حدث في عقر دار الخلافة بين ابني هـارون الرشيـد : الأمين والمأمون (من سنـة ١٩٣ هـ/٨٠٨ م إلى سنـة ١٩٨ هـ/٨١٣ م) دافعـاً قويـاً لكلّ طامع أو طامح للخروج على الدولة العباسية .

فمـا أن وضعت الحرب بين الأخـوين أوزارهـا ، حتى تحرك الخـارجـون واضطربت الأمور ، ليس في المناطق البعيدة فحسب بل في بغـداد نفسهـا ، ولعلّ من المدهش أن أحداث الناس اليومية في (بغداد) و (خراسـان) لم تضبـط ـ في هـذه الأثنـاء ـ إلاّ من قبل الأهـالي أنفسهم ، حيث أقـاموا منهم متطوعـة لحفـظ حقوقهم[1] .

فهـذا الوضع في مركز الخـلافـة انعكس أثره ـ بـداهـة ـ على أطراف الـدولـة فكانت فرصة للطامحين من الشيعة للخروج ، ونقض العهود والعمل على الانفصال

---

(١) ابن خلدون ، التاريخ ٥/٥٢٤ ، ٥٢٥

عن الدولة . وقد وصلت بهم الجرأة إلى الخروج في (الكوفة) ، المصر القريب من دار الخلافة أثناء الخلاف بين الأمين والمأمون . وكان على رأس هؤلاء محمد بن إبراهيم المعروف بـ (ابن طباطبا)[١] .

ولذا تميّز عصر المأمون بكثرة الخارجين من (العلويين) في كثير من البلدان[٢] ، وسنعود لهذا فيما بعد .

وكان لابدّ أن يتأثر اليمن بهذا الجو ويعاني من نتائج الاضطراب في مركز الخلافة .

وأقرب مثل على هذا أنه في عهد المأمون تعاقب على اليمن أربعة عشر والياً[٣] . وربما كان هذا لكثرة الأحداث وتتابعها ، ونتيجة لكثير من المتغيرات التي سنشير إلى بعض منها فيما بعد . وبعضها كانت الظروف تحتم وجودها ، فأحياناً كانت تظهر حركة مناوئة للخلافة فيترتب عليها إرسال قائد أو وال لمواجهتها . وتارة كانت السياسة تقتضي إقرار الخارج على الخليفة والياً على اليمن لامتصاص حركته مثل (إبراهيم الجزار) الذي كان يدعو لأخيه ابن طباطبا وهكذا .

فاليمن كان من أول الأمصار التي دخلت في طاعة (المأمون) وخلعت (الأمين)[٤] طواعية ، ولكنه مالبث أن أصبح ميداناً للعلويين الذين خرجوا

(١) ابن طباطبا : محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن المثنى بن علي بن أبي طالب ، من أئمة الزيدية ، كان مقيماً بالمدينة ، ثم خرج داعياً إلى نفسه بالكوفة ، ثم تراجعت عنه شيعته ، فعاد إلى المدينة ولكنه توفي في الطريق إليها سنة ١٩٩ هـ/٨١٤ م [المحلى ، الحدائق الوردية ١٩٧/١ . الأشعري ، مقالات الإسلاميين ٥٦ ، ١٥٧ . والزركلي ، الأعلام ، ١٨٢/٦] .

(٢) ابن خلدون ، التاريخ ٥١٤/٥ ـ ٥٤٢ . وابن الديبع ، قرة العيون بأخبار اليمن الميمون ١٣٨/١ ـ ١٤٩

(٣) ابن الديبع . قرة العيون ١٣٨/١ ـ ١٤٩

(٤) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ٤٤١/٨ ، تولى الأمير يزيد بن جرير القسري إخضاع اليمن للمأمون .

بمكة أو الكوفة أو في اليمن نفسها[١] .

وعلى الرغم من تشيّع الكثير من القبائل اليمنية إلاّ أن تهور واندفاع بعض زعماء الشيعة ، مثل إبراهيم الجزار ـ كما سيأتي ـ[٢] أدّى إلى إثارة عصبيات كان لها أثرها البعيد ضدّ العلويين[٣] ، بل إن العصبية التي عصفت بالموصل بين اليمانية والنزارية[٤] كانت لها ردود فعل في اليمن ، حيث تولى القيام بها أحد الولاة على اليمن وهو إسحاق بن العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس الذي كره القحطانية أو اليمانية وتتبعهم ونكل بهم بالحق والباطل[٥] .

ووجدت الزعامات اليمنية أيضاً متنفساً في هذا الجو لكي تشق عصا الطاعة وتحارب قوة الخلافة لتستفرد في الأمر كما حصل من إبراهيم بن جعفر المناخي[٦] ومن الخطاب بن الوضاح بن إبراهيم الحوالي الذي كان أحد ولاة المأمون في اليمن[٧] ، لتبدأ قوة آل يعفر بالظهور تحت زعامة يعفر بن عبد الرحمن الحوالي سنة ٢١٤ هـ/ ٩٢٩ م[٨] ، وسنأتي لتفصيل هذا .

وكما حصل أيضاً من أحمد بن محمد الْعُمَري ـ نسبة إلى عمر بن الخطاب ـ الذي خرج أيام المأمون ، فأرسل إليه سنة ٢١٢ هـ/ ٨٢٧ م أبا الرازي محمد بن عبد الحميد (قتل سنة ٢١٤ هـ/ ٨٢٩ م) للقضاء عليه ، ثم لمحاولة القضاء على

---

(١) ابن خلدون . التاريخ ٥/٥١٩

(٢) انظر : ص ٢٣ من هذا البحث .

(٣) الهمداني . الإكليل ١/٣١٦ ـ ٣١٨ ، ٣٢٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٤٢٤ . والإكليل ٢/١١٩ ـ ١٣١ . العلوي ، سيرة الهادي إلى الحق يحي بن الحسين ، ١٩٥ ـ ١٩٨

(٤) ابن خلدون ، التاريخ ، ٥/٥١٤

(٥) مجهول . تاريخ اليمن (ق ١٦٧) .

(٦) الجندي ، السلوك .

(٧) الهمداني ، الإكليل ، ١٠/٢١٣ . وقصيدة الدامغة ٤٦٧ ، ٤٦٨

(٨) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ٢/٢٤٧ ، والهمداني . الإكليل ٢/٧١

إبراهيم المناخي[1] ، إلا أن آل المناخي ظلوا متمردين إلى أن اكتسحتهم الحركة القرمطية في نهاية القرن الثالث الهجري .

إذن كان عهد المأمون أرضاً صالحة لبذر الكثير من الأحداث التي كان لها أثرها على مدى القرنين الثالث والرابع سواء على المستوى العلوي (الشيعي الزيدي) أو غيره ، أو على المستوى القبلي من ظهور زعامات وقوى وعصبيات ساعدت على تمزيق المجتمع اليمني ، بالإضافة إلى أن عهد المأمون أيضاً كان يتميز بأنه عصر إثارة القضايا الفكرية الفلسفية التي لم تجر العلماء إلى محن وابتلاءات فحسب ، بل لقد أصابت ـ لا أقول الإسلام ـ تفكير المسلمين بلوثة أجنبية غريبة كان الإسلام في غنى عنها .

وكما كان عصر المأمون عصر المتغيرات في الزعامات والولاة ، والقوى القبلية ، والأفكار فإن عهدي المعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧ هـ/٨٣٣ ـ ٨٤١ م) والواثق (٢٢٧ ـ ٢٣٢ هـ/٨٤١ ـ ٨٤٦ م) قد ساد بهما الاستقرار ـ إلى حد ما ـ فلم تكن هناك متغيرات جديدة ولكن كان هناك استمرار ، ونمو لجانب من تلك المتغيرات التي حصلت في عهد المأمون .

فالقوى القبلية تعاظمت وكبرت وخاصة آل يعفر في (شبام)[2] ، وإبراهيم بن جعفر المناخي في (المذيخرة)[3] ، إلاّ أن عصر (المعتصم والواثق) بالنسبة لليمن تميَّز بظاهرة جديدة وهي ظاهرة إرسال ولاة بالنيابة عن الولاة

---

(١) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ٤٦١/٢ ، والطبري . التاريخ ٦١٩/٢ ، ٦٢٢ . وابن خلدون . التاريخ ٥٤١/٥

(٢) شبام : المعروفة بشبام أقيان وهي قرية كانت مقرّ مملكة بني حوال بن آل يعفر وفي أعلاها يقع قصر كوكبان (الهمداني ، صفة جزيرة العرب ص ٢٣١ ، ٢٣٢) .

(٣) **المذيخرة** : مدينة قرب بلاد المعافر وهي مقرّ الملوك المناخيين الحميريين وتقع في محافظة تعز الحالية (صفة جزيرة العرب ١٠٢ ، ١٠٣) .

المعينين من قبل الخلافة ، فقد تعاقب وتبادل المواقع كل من جعفر بن دينار وإيتاخ التركي ، على ولاية اليمن في عهد (المعتصم والواثق) وكان كل منهما يرسل عنه نائباً أو نائبين يقومان بشئون البلاد نيابة عن الوالي الذي كان مقرّه بغداد ، بل إن العامل الذي يعيّنه الخليفة كان يولي نائباً عنه على اليمن ، وهذا النائب أيضاً يضع مكانه نائباً آخر .

فهذه الظاهرة ـ ظاهرة الإنابة ـ ربما نشأت من صرف النظر التدريجي عن الاهتمام باليمن ، أو من اشتغال دار الخلافة بأمور أخرى قريبة منها ، أو من هدوء أحوال اليمن ، وإن كان هذا لم يكن كذلك لأن قوة آل يعفر كانت في نمو وازدياد وتعاظم ، ولهذا حينما تولى جعفر بن دينار اليمن للمرة الثانية في عهد الواثق وجد نفسه مضطراً لأن يسير بنفسه إلى اليمن لمواجهة قوة شابة فتية وهي قوة (ال يعفر) ليتوصل معهم بين عامي ٢٢٤ و ٢٣٤ هـ/٨٣٨ و ٨٤٨ م إلى صلح[١] ، يعبر عن ضعف الدولة العباسية أمام قوة (آل يعفر) التي كانت تطمح للاستيلاء على اليمن كله ، وقد تميَّز هذا الضعف العباسي أمام قوة (آل يعفر) بجلاء في عهد المتوكل (٢٣٢ ـ ٢٤٧ هـ/٨٤٦ ـ ٨٦١ م) ، وما بعده ، حيث لم تقابلها دار الخلافة إلاّ بالإقرار لها بالسيادة على اليمن[٢] ، وهي سنة سياسية اتبعتها دار الخلافة مع أي قوة تظهر في أطراف الدولة[٣] ، ولم يبق للخلفاء إلاّ

---

(١) الطبري ، التاريخ ١٠١/٩ ، ١٠٣ ، ١٢٨ ، ١٤٠ . ومجهول ، تاريخ اليمن (ق ٢٨/أ) . وابن خلدون ، التاريخ ٥٧٣/٥ ، ٥٧٤ . والجندي ، السلوك ٦٠ . وابن الديبع ، قرة العيون ١٤٩/١ ـ ١٥٣ . والخزرجي ، اليمن في عهد الولاة ١٠٥ ـ ١١٠ ، ويحيى بن الحسين ، غاية الأماني ١٥٤/١

(٢) الجندي ، السلوك ٦٠ ، ٦١ . الخزرجي ، اليمن في عهد الولاة ١٠٧ ـ ١١٢ . وابن الديبع ، قرة العيون ١٥٧/١ وما بعدها ، وهو يذكر أن الخلفا كانوا يقرون محمد بن جعفر وهو تصحيف لمحمد بن يعفر . ويحيى بن الحسين ، غاية الأماني ١٦٣/١

(٣) مثل الاغالبة (١٨٤ ـ ٢٩٦ هـ/٨٠٠ ـ ٩٠٨ م) . والأدارسة (١٧٢ ـ ٣٦٣ هـ/٧٨٨ ـ ٩٧٣ م) في المغرب . والطولونيون (٢٥٢ ـ ٢٩٢ هـ/٨٦٦ ـ ٩٠٤ م) في مصر والشام (أحمد السعيد =

بغداد ونواحيها ما بين دجلة والفرات[1] .

ويرجع هذا لانشغال القادة من حول الخليفة ـ وهم غالباً من (الأتراك) ـ بالصراع حول من يتحكم بمن ؟! بالإضافة إلى المشاكل والأحداث التي كانت تعاني منها دار الخلافة[2] .

وبالرغم من أن (المتوكل) في سنة ٢٣٣ هـ/٨٤٧ م ولى ابنه (محمد المنتصر) الحرمين واليمن والطائف[3] ، وكان المفروض أن يفعل شيئاً لليمن ولكنه لم يفعل شيئاً .

وإذا كانت دولة الخلافة قد قويت بوجود الموفق (ت ٢٧٨ هـ/٨٩١ م) ، ثم المعتضد (ت ٢٨٩ هـ/٩٠١ م) اللذين عملا على تقليص حكم الموالي ، إلاّ أن سعيها لم يكلَّل بالنجاح لكثرة الأحداث التي كانت تجتاح البلاد الإسلامية[4] .

وفي ظلّ قوة الخلافة هذه عمل كلّ من (الموفق والمعتضد) على إخضاع اليمن للسيادة العباسية المباشرة . وإن كان (الموفق) قد عمل في بادئ الأمر على إقرار

= سليمان ، تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ٣٣ ، ٣٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ١٢٨ ، وابن خلدون ، التاريخ ٦٢٣/٥ ، ٦٦٨ ، ٦٧٠ . وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٤٠/٣ ، ٤٣ ، ٥١

(١) ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، ٨٧٤/٦

(٢) المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ٥١/٤ ، ٥٢ ، ٧٦ ، ١١٦ ، والتنبيه والإشراف ٣١٣ ـ ٣١٩

(٣) الطبري ، التاريخ ١٦٢/٩ ، ١٦٣ ، ١٧٦ . ابن خلدون ، التاريخ ٥٧٩/٥ ، ٥٨٩ . الأكوع ، الوثائق السياسية اليمنية من قبيل الإسلام إلى سنة ٣٣٢ هـ ، ٢٣٠

(٤) مثل حركات القرامطة (بدأت حوالي ٢٧٠ هـ/٨٨٣ م) في الكوفة والبحرين . وثورة الزنج (٢٥٥ ـ ٢٧٠ هـ/٨٦٨ ـ ٨٨٣ م) والفاطميين وغيرهم . انظر : المقريزي (ت ٨٢٥ هـ/١٤٢١ م) ، اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ، الجزء الخاص بالقرامطة الذي حققه الدكتور سهيل زكار ضمن كتاب أخبار القرامطة ٣٢٣ ، وضيف ، العصر العباسي الثاني ، ٢٦ وما بعدها .

محمد بن يعفر بعد أبيه على اليمن[1] ، إلاّ أن الأحداث في اليمن كانت تستدعي التدخل لإنقاذ ما يمكن إنقاذه ، لأن قوة (آل يعفر) بدأت بالتضعضع بعد مقتل (محمد بن يعفر) .

فقد تدخل (الموفق) في عهد (المعتمد) وتبعه من بعده (المعتضد) وعملا على إرسال (وال) له شكيمة وحزم ومعه قوة تؤازره وقد وقع الاختيار على علي بن الحسين المعروف بـ (جفتم) الذي أرسل إلى اليمن مرتين : الأولى في عهدي المعتمد والمعتضد[2] وقد قصد بها مساعدة آل يعفر للتصدي لأعدائهم . أما الثانية فهي في عهد المكتفي بالله (٢٨٩ ـ ٢٩٥ هـ/ ٩٠١ ـ ٩٠٧ م) ، وكانت مجرد محاولة فاشلة منه للتغلب على اليمن معتمداً على خبرة وحنكة ونزاهة (جفتم) .

وبالرغم من ذلك فإن حنكته لم تمنعه من المصير الذي حاق به فقد قبضت عليه القوى القبلية هو وابنه وأودع السجن ثم قتل[3] . تنتهي بذلك محاولة فذّة في إعادة السيادة العباسية على اليمن .

وقد أعاد المكتفي المحاولة للسيطرة على اليمن حينما عهد بولايتها إلى (عج بن حاج) واليه على (مكة)[4] ، وهذا مظهر جديد من مظاهر الضعف العباسي ، فلم يعد في إمكانهم إرسال (والٍ) مستقل لليمن ، ولعلَّ هذه المحاولة من قبل العباسيين كانت لحفظ ماء الوجه فقط .

---

(١) مجهول ، تاريخ اليمن (ق ١٢٣/أ) . والأكوع ، الوثائق السياسية اليمنية ٢٣٤ . والجندي ، السلوك ٦٢ . وكان هذا سنة ٢٥٧ هـ/ ٨٧٠ م .

(٢) مجهول ، تاريخ اليمن ١٢٤/أ . وابن الديبع ، قرة العيون ١٦٣/١

(٣) مجهول ، تاريخ اليمن ١٢٤/أ ، ١٧٠/ب . والخزرجي ، اليمن في عهد الولاة ١١٤ ، ١١٥ . والعلوي ، سيرة الهادي ٢٥٠ ، ٢٥١ وكان هذا على يد (آل طريف) موالي (آل يعفر) و (الأكيليين) من همدان حلفاء الأمس للعباسيين .

(٤) الهمداني ، صفة جزيرة العرب ٣٢٣ . وابن الديبع ، قرة العيون ١٧٥/١

ولكن والي (مكة) لم يتول القيام بالمهمة الموكولة إليه بنفسه بل إن الإجراء الذي قام به كشف لنا عن أسلوب جديد كانت الخلافة العباسية قد ركنت إليه بالنسبة لليمن ، وهو تقسيم اليمن إلى قسمين : تهامي وجبلي ، فأما القسم الجبلي فقد أبقاه (عج بن حاج) تحت سيادة آل يعفر بتجديد العهد لهم[1] .

وأما القسم التهامي فكان يتبع إقليم (مكة) مباشرة ، وربما كان لخلوه من قوة كبيرة يعتمد عليها ، ولذا أرسل إليهم أخاه (المظفر بن حاج) سنة ٢٩٣ هـ / ٩٠٥ م ، وكان هذا بتوجيه من المكتفي نفسه . ولم يكن هذا التصرف من قبل (المكتفي)[2] إلا لحماية (مكة) نفسها لأن أهلها شكوا إليه قربْ (قرامطة) اليمن منهم[3] .

وقد أدى (المظفر) هذه المهمة واستطاع التغلب على بعض القوى الموجودة بتهامة[4] .

---

(١) ابن الديبع ، قرة العيون ١٧٥/١

(٢) ابن خلدون ، التاريخ ٧٥٢/٦ . وابن الديبع ، قرة العيون ١٧٥/١ . وقد عدّه بعض المؤرخين أنه عقد له على اليمن كلها (الطبري ، التاريخ ١٢٨/١ . وعريب بن سعد القرطبي في صلة تاريخ الطبري ٢٠ ونقل عنها ابن خلدون ٧٥٢/٦) إلا أن المؤرخين اليمنيين فرقوا بين القسم التهامي والقسم الجبلي (ابن الديبع ، قرة العيون ١٧٥/١) ولعلّ الواقع العملي للأحداث يؤيد ماذكره المؤرخون اليمنيون .

(٣) الطبري ، التاريخ ١٢٨/١٠

(٤) مثل الحكميين (انظر : الطبري ، التاريخ ١٣٨/١٠ . وعريب بن سعد ، صلة تاريخ الطبري ٢٥ . وابن خلدون ، التاريخ ٨١٠/٦) . وقد توفي (مظفر) في اليمن بزبيد سنة ٢٩٨ هـ / ٩١٠ م وتولى مكانه (ملاحظ) أجد قواده . (محمد بن عبد الملك الهمداني ، تكملة تاريخ الطبري ١٩٨) .

وهكذا ظلت تهامة بعض الوقت تابعة لسلطات مكة[1] بينما ظلّت المناطق الجبلية تعتورها القوى القبلية والشيعية (الزيدية والإسماعيلية) طوال القرن الرابع الهجري .

وحينما دخل أحد قادة آل يعفر سنة ٣٧٩ هـ/٩٨٩ م إلى (زبيد) قطع الخطبة لبني العباس وخطب للمعز الفاطمي (٣١٩ ـ ٣٦٥ هـ/ ٩٣١ ـ ٩٧٥ م) صاحب مصر[2] ، مما يدل على وجود الولاء الاسمي للدولة العباسية حتى ذلك الوقت في زبيد .

وأخيراً نستطيع أن نقول ونحن على ثقة أنه منذ أن استفحل التيار الشيعي سواء الزيدي أو الإسماعيلي والقرمطي في أقاليم دار الإسلام ، وكثرت الحركات التي تدعو إلى الانفصال ، فإن هذا كان بداية مرحلة جديدة وهي مرحلة انحسار الدولة العباسية ، وبداية سيطرة قوى أخرى ، ومذاهب جديدة ، فقد تغير الكثير في هذه الحقبة ، وحصل الاختلاف في الأحكام[3] ، وبدأت الأفكار الأجنبية تتسلل إلى ديار الإسلام ، بل وتجني ثمارها .

وكثر الملقبون بالخلافة وبإمرة المؤمنين في الرقعة الإسلامية كلها[4] .

وإذا كان الأمر كذلك ، فلا غرو أن يخرج اليمن عن السيادة العباسية

---

(١) كان إبراهيم الحرملي أحد قواد سلطان مكة متولياً على زبيد سنة ٣٠٧ هـ (العلوي ، سيرة الهادي ٤٠٤) .

(٢) الخزرجي ، العسجد المسبوك ٤٧

(٣) يحيى بن الحسين ، غاية الأماني ١/١٦٧

(٤) المسعودي ، التنبيه والإشراف ٣٤٦ . وابن خلدون ، التاريخ ٨٣٠/٦ ـ ٩٠٧ ، وكان في الأندلس خليفة وفي مصر والمغرب خليفة ، وفي بغداد خليفة ، وفي اليمن خليفة (زيدي) ، وفي الديلم خليفة (زيدي) ، (انظر : الجنداري ، الجامع الوجيز في وفيات العلماء أولي التبريز (ق ٣٦/أ) .

ويبقى التيار الشيعي : سواء الزيدي أو الإمامي الإسماعيلي ، ليكون هو صاحب السيادة في اليمن[1] ، مع القوى القبلية التي كانت تميل إلى الأقوى من الطرفين .

ثانياً - الاتجاه الشيعي

على الرغم من تميز هذا الاتجاه بعنوان واحد وهو الاتجاه الشيعي إلا أنه يضم تحته اتجاهات متناقضة ، ولأن اليمن اشتهرت بولائها الشيعي منذ عهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فقد توجهت إليها أنظار الشيعة بشتى تياراتها سواء كان :

١ - التيار الشيعي الزيدي وهو أعدل تلك الاتجاهات وأصدقها وأقربها إلى الروح الإسلامية الخالصة ، هذا الاتجاه ظهر باليمن في بداية القرن الثالث فجأة ضمن ظهوره في دار الإسلام ، ثم يختفي فجأة ليعود في الثلث الأخير من هذا القرن ليتولى الإمام الهادي إلى الحق مسئولية وجوده واستقراره في اليمن ، وسيكون لهذا الوجود صولته وجولته بقية القرن الثالث وطوال القرن الرابع وما بعده .

٢ - أو التيار الإمامي الذي سيكون رصيداً ثرّاً للاتجاه الشيعي الآخر وهو :

٣ - التيار الشيعي الإسماعيلي ذلك الاتجاه الذي كان يعمل في الخفاء وبتنظيم دقيق ، وستكون له آثاره الخطيرة على المجتمع الإسلامي كله ، سواء في الحقبة التي نتحدث عنها ، أو فيما بعدها .

٤ - وأخيراً التيار الشيعي الإسماعيلي القرمطي ، وهذا الاتجاه بدأ في أول ظهوره جزءاً من الإسماعيلية ، ولكنه ما لبث أن انفصل عنها باختلاف قياداته

---

(١) ابن عبد المجيد ، بهجة الزمن في تاريخ اليمن ٣٩

ودعـاتـه ، وكما ظهر فجـأة ـ في اليمن ـ اختفى فجـأة كقـوة مـؤثرة في بقيـة القرن الرابع الهجري .

ولا يسعنا إلا أن نفرد كل تيار على حدة .

١ ـ التيار الزيدي :

ينتسب هذا التيـار إلى زيـد بن علي[١] وهو اتجـاه يعتمـد على مبـدأ الخروج للأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، كلما تحققت في أحـد من أبنـاء الإمـام علي رضي الله عنه شروط الإمامة[٢] .

وكان المكان الأصلي (للعلـويين) هـو أرض (الحجـاز) ، ولكنهم تكاثروا وازدادت أعـدادهم إلى حـد أنهم اضطروا أن يطلبـوا من (الأمين بن هـارون الرشيد) أرضاً خارج (الحجاز) ، فأقطعهم أرضاً تقع بين مكة وزبيـد وصعـدة ، فسكنوها حتى سنة ٦١٥ هـ/١٢١٨ م[٣] ، ولهذا كثرت خرجـاتهم في القرن الثـالث الهجري إلى أن خلت مكة والمدينة من سكانها ولم يبق فيها ـ غـالبـاً ـ إلا العبيـد والموالي من الحبشة وغيرهم لكثرة الفتن[٤] .

---

(١) الإمام زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، ولد عام ٧٩ هـ/٦٩٨ م بالمدينـة ، ونشـأ وتعلم بها ، ثم بـالبصرة ، وقـد خرج عـام ١٢٠ هـ/٧٣٧ م في عهـد هشـام بن عبـد الملـك (٧١ ـ ١٢٥ هـ/٦٩٠ ـ ٧٤٢ م) بتشجيع من أهل الكوفـة ، ولكنهم خـذلوه فقتل عـام ١٢٢ هـ (الزركلي . الأعلام ، ٩٨/٣ ، ٩٩) .

(٢) من شروط الإمامة عنـد الزيـديـة ـ كما ذكرهـا الإمـام الهـادي إلى الحق ـ : أن يكون من أبنـاء الحسنين ، عالماً ، ورعاً ، زاهداً ، خرج داعياً إلى الله ، مجرداً سيفه ، خائضـاً للحتوف ، منـابـذاً للطاغين ، مقيماً لحدود الله ، رؤوفاً رحيماً على المؤمنين ، شديداً غليظاً على الكافرين الفاسقين ، شجاعاً ، سخياً .
الهـادي إلى الحـق يحي بن الحسين . المجمـوعـة الفـاخرة ٤٩ . وانظر : العمري . محـاضرات في التاريخ الإسلامي ٤

(٣) ابن المجاور . تاريخ المستبصر ٥٧

(٤) ابن خلدون ، التاريخ ٢١١/٧ ، ٢١٢

فعلى رأس المئتين للهجرة قدم من (مكة) إلى (صعدة) إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب[1] ليستهل هذا القرن بالصراع بين العباسيين والعلويين باليمن ، وكان خروجه تأييداً ومتابعة لخروج محمد بن إبراهيم طباطبا الذي خرج بالكوفة سنة ١٩٩ هـ/٨١٤ م[2] .

ويبدو أن إبراهيم بن موسى - وهو المعروف عند أهل اليمن بالجزار لكثرة من قتل - لم يتوجه إلى صعدة إلاّ لمعرفته بوجود قبائل شيعية ، وإن كانت تلك القبائل قد استغلت هذا الحدث بالتشفي من بعضها البعض لوجود عداوات وثارات قديمة بينهم ، وقد وقع (إبراهيم الجزار) نفسه في هذا الفخ الذي نصبته له القبائل ، حيث صدق الوشايات فقضى على زعامات قبائل على الرغم من تشيعهم ، وما ذلك إلاّ للسعايات من بعض القبائل المعادية لها . وكانت الحجة أنهم يبغضون (أهل البيت) وهي حجة واهية ، لأن بعض هذه القبائل كانت تميل إلى (التشيع) ولكنها وقعت فريسة الوشايات[3] ، وكان فعل (إبراهيم الجزار) هذا هو بمثابة نار تأججت في نفوس القبائل التي أصابها الضرر فلم تفارقها[4] ، وقد جنى (الإمام الهادي إلى الحق) ثمرة هذا العداء ، حيث أن كل تلك القبائل التي نالها جبروت (إبراهيم الجزار) هي نفسها التي وقفت في مواجهة

---

(١) الهمداني ، الإكليل ١٣١/٢

(٢) الطبري ، التاريخ ٥٢٨/٨ ، ٥٣٦ . ابن خلدون ، التاريخ ٥١٤/٥ - ٥١٨ . والأشعري ، مقالات الإسلاميين ١٥٦ ، ١٥٧ . والمحلى ، الحدائق الوردية ١٩٧/١

(٣) الهمداني ، الإكليل ٣١٦/١ - ٣١٨ ، ٣٢٢ ، ٣٣٣ ، ٤٠٤ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ١٣١/٢ - ١٣٧ فقد انحازت إليه بنو سعد نكاية في الإكليليين وبني شهاب وحمير بالرغم أن بعض هؤلاء كانوا يميلون إلى الشيعة .

(٤) ذكر المحلى في الحدائق الوردية ٢٠٤/١ بعض تلك القبائل وهي : بنو الحارث بنجران ، والسلمانيون بعيّان ، واللعويون بريدة ، والكباريون بآثافت ، والأبارة بظهر ، والحواليون ببيت ذخار ، وبنو يافع بسرو حمير .

(الهادي إلى الحق) وحاربته[1] ، وظلت تقف في صف كل من يناهض (العلويين) لاعتقادها أن شدة (الجزار) هي عصبية لقبيلة ضد أخرى ، فنتج من هذا أن غرست ثارات وحزازات وأحن لدى بعض القبائل التي ظلت تتطلع إلى اليوم الذي سيأخذون فيه ثأرهم من (العلويين) لا لكونهم يمثلون (الشيعة) ولكن لأنهم - حسب رصدهم للأحداث - يعتبرونهم ممثلين للعصبية القبلية العدنانية بينما اليمانية لهم عصبيتهم القبلية القحطانية .

وحينما تصدت القوات العباسية (للجزار) في اليمن لم تتغلب عليه إلاّ بمساعدة القبائل اليمنية المتضررة من شدة (الجزار) وانحيازه إلى بعض القبائل[2] .

وقد أدى هذا التحالف إلى هزيمة (الجزار) سنة ٢٠٢ هـ/٨١٧ م ، وبهزيمته انتهى الدور (الزيدي) المبكر باليمن ، وكان لسياسة (المأمون) البارعة أثر في سحب البساط من تحت قدمي إبراهيم الجزار حينما ولاه على اليمن[3] لا ليحكم باسم العلويين ولكن باسم العباسيين ، وبقي حاكماً باسمهم حتى عام ٢١٣ هـ/٨٢٨ م ، فأفقده هذا تأثيره كداعية (للرضا من آل محمد) وإن كنا لا نستبعد بقاء بعض التأثيرات الزيدية على بعض القبائل المنحازة إليه منذ البداية مثل (آل أبي فطيمة) زعماء بني سعد في (صعدة) .

وحتى المحاولة التي قام بها بعض العلويين في تهامة اليمن سنة ٢٠٧ هـ/٨٢٢ م لم يقدر لها البقاء لأن الخليفة المأمون وَأَدَها مبكراً[4] .

وبعد هذا لم نجد أثراً للعلويين الزيديين في اليمن إلاّ في حدود سنة

---

(١) العلوي ، سيرة الهادي ١٩٥ - ١٩٨

(٢) الهمداني ، الإكليل ١٣٢/٢

(٣) الجندي ، السلوك ٥٩ . والخزرجي ، اليمن في عهد الولاة ٩٨ ، ويحيى بن الحسين ، غاية الأماني ١٤٩/١

(٤) الطبري ، التاريخ ٥٩٣/٨

٢٨٠ هـ/ ٨٩٣ م بظهور الهـادي إلى الحق ، على الرغم من أن العلـويين في غير اليمن كثر خروجهم منذ سنة ٢٤٨ هـ/ ٨٦٢ م[١] .

وقد كان للهادي دعاة في اليمن أو شخصيات متـأثرة بـه عملوا على التمهيـد لـه وتهيئة الأجواء لمقدمـه ، ومن هؤلاء وزير الأمير أبي العتـاهيـة أمير صنعـاء الـذي دفع أميره لأن يدعو الهادي للقدوم إلى اليمن في سنة ٢٨٠ هـ/ ٨٩٣ م[٢] ، ولم تفلح هذه المحاولة لأن الهادي لم يلق الحماس من الناس حسب مـا كان يتوقع ، فعـاد إلى المدينة المنورة[٣] ليعيد ترتيب أموره من جديد ، ومن الراجح أن هذا الاستدعـاء والمحاولة كلها لم تكن قد عرفت عند العباسيين ومن ثم لم تسبب له المتـاعب وتمكن من العودة إلى المـدينـة ليـدبر خطـة محكمـة أخرى للوصول إلى تحقيق أهـدافـه في اليمن .

وقـد مهـد لمقـدمـه بـإرسـال الـدعـاة أولاً ليعملـوا على تهيئـة النـاس لقبـول دعوته[٤] ، مستفيداً من تجربته الأولى التي فشلت .

وعملـوا على تشجيـع (آل بني فطيمـة) زعمـاء بني سعـد الصعــديين للبروز ، وغذوا فيهم حماسهم للعلويين ولذا كانوا هم ـ هذه المرة ـ الـذين أقبلوا على الهـادي ودعوه للدخول إلى اليمن ليتولى أمرهم[٥] .

وحينما قدم في السادس من صفر سنـة ٢٨٤ هـ/ ٨٩٧ م إلى صعـدة بـدأ بـأول

---

(١) المسعودي ، مروج الذهب ١٤٧/٤ ـ ٣٠٨ .

(٢) ابن أبي الرجـال . مطلع البـدور ومجمع البحور ١٢٩/١ . وأبو العتـاهيـة هو عبـد الله بن بشر بن الروية وكان متغلباً على صنعاء (الجرافي ، المقتطف من تاريخ اليمن ١٠٤

(٣) المحلي ، الحـدائق الـورديـة ١٩/١ . ٩ لعلـوي ، سيرة الهـادي ١٣٦ ـ ١٤٠ . والجنـداري ، الجـامع الوجيز (ق ٢٩/ب) .

(٤) العلوي ، سيرة الهادي ٦٥ ، ٨٠ .

(٥) المصدر نفسه ٣٥ ـ ٣٨ ، الجنداري . الجامع الوجيز (ق ٣٠/أ) .

عمل له وهو التأليف بين قبائلها المتنافرة ليضع بهذا أول لبنة في بناء الدولة الهادوية التي أراد لها أن تكون شبيهة بدولة النبوة ، وقد حرص كاتب سيرة الهادي أن يقارن بين خطوات الهادي وبين ما فعله الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في بناء الدولة[1].

وكان على الهادي أن يواجه العديد من القوى المتشابكة المتحالفة أحياناً والمتخالفة أحياناً أخرى .

أولى تلك القوى هي القوة العباسية أو بقاياها وقد يطلق عليها (الجفاتم) نسبة إلى آخر الولاة العباسيين في اليمن وهو علي بن الحسين المعروف (بجفتم) ولعلهم استوطنوا اليمن وأصبحوا يشكلون طائفة في صنعاء لها وزنها السياسي ، وكان إرسال علي بن الحسين هذا ـ كما عرفنا آنفاً ـ ما هو إلا لحفظ ماء وجه العباسيين . وهؤلاء لم يصمدوا للهادي إلاّ حينما دخل صنعاء ولكنه سرعان ما تخلص منهم ، لأن[2] قوتهم لم تكن ذات جذور قبلية كبيرة وليس لهم من المدد ما يطيل بقاءهم ، ولم تحمهم كفاءة علي بن الحسين وحنكته ما لم تكن مسنودة بعوامل النجاح الأخرى حتى أن حلفاؤهم بالأمس كا (لأكليليين) من همدان لم يتحرجوا من نفض أيديهم منهم وينضموا إلى صفوف أعدائهم[3] .

وكان العباسيون يراقبون ما يحدث في صنعاء ، إلاّ أنهم لم يقدموا شيئاً لا (للجفاتم) ولا لحلفائهم التقليديين وهم (آل يعفر) الموالين لهم ، واكتفت بتلقي التقارير من (مكة) عن حالة اليمن بعد أن أراح العباسيون أنفسهم بجعل اليمن ولاية تابعة لولاية مكة .

---

(١) المصدر نفسه ، ٤١

(٢) الجنداري ، الجامع الوجيز (ق ٣٠/ب) . المحلي ، الحدائق الوردية ٢٢/١ . الهمداني ، الإكليل ٣٣٣/١ ، ٣٣٤ . ابن خلدون ، التاريخ ٧٤٣/٦ ، ٧٤٤ . العلوي ، سيرة الهادي ١٩٥ ـ ١٩٨ ، نشوان الحميري ، الحور العين ١٩٦

(٣) العلوي ، سيرة الهادي ٢٥٠ ، ٢٥١

وبالرغم من أن الوالي العباسي المقيم بمكة حاول بسط نفوذه على تهامة كلها بما فيها تهامة الحجاز وتهامة اليمن بحكم قربها وسهولة السيطرة عليها ، إلا أنه لم يفعل شيئاً للتصدي للهادي ، وإن كان أهل نجران يترقبون فعل أي شيء في هذا السبيل ، ولكنه خيب آمالهم[١] ولم يخط خطوة واحدة لصالحهم .

ومن هنا فإن القوة العباسية لم يكن لها الدور المؤثر في مواجهة قوة الزيدية .

القوة الثانية التي واجهها الهادي : هي القوى القبلية ، تلك القوة الحقيقية التي ظل يصارعها طوال حكمه ، وقد عانى منها الأمرين ، وإذا كان لقي في مبدأ أمره ترحيباً من بعض القبائل[٢] جعله يشتعل حماساً ، وعلى أثره دانت له معظم اليمن حتى أصبح يطمح بمد انتصاراته وحركته إلى خارج اليمن[٣] .

إلا أنه ما لبثت تلك القبائل نفسها أن وقفت له بالمرصاد وتربصت به الدوائر ، وظل يندب حظه ويعلن أنه لولا خوفه على الإسلام ما أقام في اليمن[٤] ، خاصة وهو يشاهد القبائل لا تسعى إلاّ وراء مصلحتها[٥] .

ولكن صراعه مع القبائل لم يكن منشؤه من جانبهم إلاّ النزاع القائم على العصبية والثأر الذي حصل بين بعض القبائل المؤيدة والمناوئة ، أو لهوى بعض

---

(١) المصدر نفسه ٢٤٦ ، كان ترقبهم هذا عام ٢٩٥ هـ .

(٢) العلوي ، سيرة الهادي ٦٦ ـ ٦٨

(٣) المصدر نفسه ، ١٤٨ ، ١٩٢

(٤) المصدر نفسه ، ١٠٨

(٥) اضطر الهادي أن يضرب النقود بمواصفات خاصة بحيث تكون ذات بريق خاص ، وتصرف دنانيره بدراهم أكثر من مثيلاتها في ذلك العهد ليستميل بها القبائل (انظر : الهمداني ، الجوهرتين العتيقتين ١٧ ، ٧٧ . والمقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ٩٩ . وابن رستة ، الأعلاق النفيسة ١١٢

قـاداتهم ، أو لأن بعض التجمعـات القبليـة حصلت منهـا بعض تجـاوزات ، فكان يرى أن تلك القبائل عاصية خارجة فقاتلها ، أو لقرب بعض القبائل من الهـادي واستئثاره بها ، وتعيين بعض قادته منها ، مما أضرم بينهم نار الضغينة ، وهذا كلـه هو بعض العوامل التي أدت إلى انحسار قوة الهادي[1] .

ولا شـك أن القبـائل التي تضررت من إبراهيم الجزار في مطلع القرن الثـالث الهجري ، كانت هي نفسهـا التي وقفت لتـدير الصراع مع الهـادي في نهـايـة القرن الثالث ومطلع القرن الرابع .

وتعـد قـوة (آل يعفر) أقـوى من تصـدى للهـادي ، وإن كان قـد تـأرجـح موقفها ، ففي مبدأ الأمر تصدت للهـادي وحـاربتـه ، وحقق نصراً عليهـا فـانتزع منها صنعاء سنة ٢٨٨ هـ/ ٩٠٠ م ، وأودع قادتهم السجون[2] .

وسرعان ما انقلب الوضع حيث تدخل (آل يعفر) لإطلاق ابن الهادي الذي أسرته بعض القبائل سنـة ٢٩١ هـ/٩٠٣ م[3] ، وأصبحوا بـذلـك على علاقـة وديـة وتعاون مثمر[4] . وتولى أسعد الحَوَالي ـ بعد موت الناصر بن الهادي ـ تثبيت أبنائه ومساعدتهم على البقاء في صعدة[5] .

ولقـد عـانى النـاصر ـ هـو الآخر ـ الأمَرَّين من الجـانب القبلي ، وكان كلمـا أصلح شيئاً أفسدوه ، وإذا أخـذ عليهم عهـداً نقضوه ، وإذا أمر بمعروف أنكروه ،

---

(١) الهمـداني ، الإكليل ٤٢٥/١ . العلوي ، السيرة ٤١ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٩٣ ، ١٢٦ ، ١٦٨ ، ١٧٥ ، ٢١١ ، ٢١٥

(٢) الجنداري ، الجـامع الوجيز (ق ٣٠/ب) . الهمـداني ، الإكليـل ١٨٥/١ . الهمـداني ، الجـوهرتين العتيقتين ٤٧ . حصل تنافس واسع بين الهادي وآل يعفر حول مناجم الذهب والفضة .

(٣) العلوي ، سيرة الهادي ٢٧٠ ـ ٢٧٣

(٤) المسعودي ، مروج الذهب ٢٤٠/٢ . الهمداني ، الإكليل ٤٢٦/١ ، ٤٢٨

(٥) مجهول ، تاريخ اليمن (ق ٩٤/أ ـ ٩٦/أ) . العلوي ، السيرة ٤٧ وما بعدها .

وتكرر منهم نقض بيعته وعهده بين الفينة والفينة ، وقد أوصله هذا إلى اعتزالهم ، ورفض أخذ زكاة أموالهم ، وأحياناً يحاول إرسال زعماء آخرين للتفاهم مع المعارضين ، ودائماً ما يعبر عن ضيقه من تصرفاتهم[1] .

وهكذا انتهت دولة الهادي كما بدأت ، فقد قامت على مساعدة القبائل ، وانتهت كذلك بعد وفاة الناصر بن الهادي (ت ٣٢٥ هـ/٩٣٦ م)[2] بتخلي القبائل عنها حتى تلك القبائل التي آزرت الهادي وناصرته كقبائل صعدة .

أما القوة الثالثة فهي قوة الإسماعيلية : التي كانت شوكة في جنب الهادي سواء تحت لواء علي بن الفضل ـ الذي آثر (القَرْمَطَة) ـ أم تحت لواء (منصور اليمن) ـ الذي ظل محتفظاً بولائه (للمهدي الفاطمي) في (المغرب) ـ .

وإذا كانت المصادر لم تبين مواجهة ما تمت بين الهادي وبين منصور اليمن[3] ، إلاّ أنها لم تتوانى عن شرح المواجهة التي تمت مع علي بن الفضل منذ سنة ٢٩٣ هـ/٩٠٥ م[4] ، ولعل ذلك لأن منصور اليمن كان يسير وفق سياسة التريث وأحكام القبضة والتربية على وفق تفكيراته الإسماعيلية ، بينما علي بن الفضل ـ مثل الهادي مع الفارق ـ انخدع بالانتصار السريع فسار بسرعة نحو نهايته ولم يخلف شيئاً .

ويستثنى من هذا التعميم تلك المواجهات التي حصلت بين الهادي وبعض دعاة الإسماعيلية في (نجران) كان يطلق عليهم مصطلح (القرامطة) ، وهم في

---

(١) مسلّم اللحجي ، كتاب فيه شيء من أخبار الزيدية باليمن ، (ق ٤٩/ب) . مجهول ، تاريخ اليمن ، (ق ٩٣/ب) .

(٢) الهمداني ، الإكليل ٤٢٦/١ . والعلوي ، سيرة الهادي ٤٠٧ ـ ٤٠٩

(٣) الحمادي ، كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ٢٧ ، ٢٨ . والخزرجي ، العسجد المسبوك ٣٧ ، ٣٨

(٤) الخزرجي ، العسجد المسبوك ٤٠ . والعلوي ، سيرة الهادي ٣٣٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ ، ٣٩٥

الحقيقة أتباع (منصور اليمن)[1] ، ومع هذا فهي مواجهة فردية مع الهادي تتداخل مع النزاعات القبلية ، أما في عهد الناصر بن الهادي (ت ٣٢٥ هـ/٩٣٦ م) فكانت معظم حروبه مع الجانب الإسماعيلي أي منصور اليمن وأتباعه[2] ، خاصة بعد القضاء على زعيم القرامطة علي بن الفضل وقاعدته (المذيخرة) سنة ٣٠٤ هـ/٩١٦ م[3] .

القوة الرابعة الخوارج : كانت بعض قبائل مغرب صنعاء على مذهب الخوارج (الإباضية)[4] ، وحينما استولى (منصور اليمن) على معظم (مغرب صنعاء) دخلت تحت نفوذه قبائل (الخوارج) وظل يقاتل بها دولة الهادي وحتى بعد تقلص نفوذ الإسماعيلية ظلت هذه القبائل تقاتل الناصر كقوة وريثة لملك الإسماعيلية المنقرض ، وصار يطلق عليهم (قرامطة) في بعض الكتب ، وهذا بعيد عن الصحة لأن الناصر - إلى جانب إشهار السلاح في وجوههم - ألف كتباً لتفنيد وهدم أفكارهم التي صرح بأنها تقوم على أصول مذهب الخوارج[5] .

عوامل انحسار دولة الهادي :

بالإضافة إلى ما قامت به تلك القوى السابقة من جُهد في تقويض دولة الهادي نضيف عامل الاعتماد على قوة الشخصية ، والغفلة عن التربية للأفراد

---

(١) العلوي ، سيرة الهادي ٣٣٠ ، ٣٤٠

(٢) مسلّم اللحجي ، كتاب من أخبار الزيدية (ق ٤٤/ب - ٥٦/أ) . والمحلي ، الحدائق الوردية ٤٩/٢ - ٥٢ . العلوي ، سيرة الهادي ٤٠٤ - ٤٠٧

(٣) العلوي ، سيرة الهادي ٤٠٣ . نشوان الحميري ، الحور العين ٢٠٠

(٤) الإباضية : فرقة من فرق الخوارج (انظر : كتابنا النتاج العلمي لليمن في العصر الذهبي للحضارة الإسلامية) .

(٥) مسلّم اللحجي ، كتاب من أخبار الزيدية (ق ٤٠/أ ، ٤٤/ب ، ٤٥/ب) . والمحلي ، الحدائق الوردية ٤٦/٢ كان من أعظم قبائل الخوارج قبيلتي (قِدَم وظَلَيْم) . والاصطخري ، مسالك الممالك ٤٥

وإيجاد قيادات مؤمنة بالفكرة تحافظ على كيان الدولة ، فشخصية الهادي القوية ساعدت على بقاء دولته متماسكة مادام حياً ، وبموته عام ٢٩٨ هـ/ ٩١٠ م[1] انفرط عقد القوى التي كانت قد تجمعت . وصارت كل قوة تعمل على أن يكون لها كيانها المستقل[2] .

ويعد ضعف شخصية ابنه المرتضى عاملاً ثالثاً ، ولذا آثر الاعتزال سنة ٣٠١ هـ/ ٩١٣ م[3] ، تاركاً الدولة تتقاذفها الأعاصير دون أن يقوم بأي شيء للمحافظة عليها .

ولا شك أن اعتزاله هذا أفقد الدولة هيبتها ، ولم تفلح محاولة الناصر - بعد أن تولى بعد أخيه عام ٣٠١ هـ/ ٩١٣ م مقاليد الأمور - لإعادة هيبة الدولة بالرغم من اعتماده على قوة شخصيته كوالده ... وبالرغم من إخضاعه لبعض القبائل ، وفل الكثير من قوة (الباطنية)[4] .

وأما العامل الآخر فهو ما يمكن استخلاصه من مبدأ الزيدية ، فالهادي لم يعهد إلى أحد من أبنائه ، وكذلك المرتضى والناصر ابني الهادي[5] ، وهذا نابع من مبدأ (الزيدية) الذي ينص على أنه لا يستحق (الإمامة) إلاّ من توفرت فيه شروط الإمامة[6] ، وخرج داعياً إلى نفسه ، وهو مبدأ لا غبار عليه ، إلاّ أنه خطير ، لأن الهوى قد يتحكم بدفة الأمور ، وسيبرز كل مستحق وغير مستحق

---

(١) المحلي ، الحدائق الوردية ١٣/٢ - ٣٥

(٢) مسلّم اللحجي ، كتاب من أخبار الزيدية (ق ٣٩/ب) .

(٣) المحلي ، الحدائق الوردية ٤٤/٢ - ٤٦

(٤) الجنداري ، الجامع الوجيز (ق ٣٤/أ - ٣٦/أ) غالب أهل اليمن يطلقون - في الغالب - على القرامطة والإسماعيليين لفظ الباطنية .

(٥) المحلي ، الحدائق الوردية ٤٤/٢ ، ٤٥

(٦) (ذكرت في : ص ٢٢ من هذا البحث) .

لينادي بنفسه إماماً ، ومن هنا ستجر الأمور إلى الفتن والقتال بين الأئمة ، ولعل مصداقية هذا واضحة بعد وفاة الناصر عام ٣٢٥ هـ/٩٣٦ م حيث قام بعده ابنه المنصور يحي بن الناصر ، وادعى الإمامة ، فعارضه أخواه القاسم (المختار) ، والحسن ، وكان خراب صعدة على أيديها ، وقد انتهزت القبائل الفرصة فذهبت تقتل أحفاد الهادي هنا وهناك وهم في تفرق وتمزق [١] .

ومثل هذا حصل لمن بعدهم ، فلما قام يوسف بن يحي بن الناصر (المتوفى عام ٤٠٣ هـ/١٠١٢ م) ، ودعا إلى نفسه سنة ٣٦٨ هـ/٩٧٨ م قام في مواجهته أئمة آخرون منهم المنصور القاسم بن علي العياني في عام ٣٨٩ هـ/٩٩٨ م ، وقام دعاة آخرون ينافسونه وينافسون القاسم العياني (ت ٣٩٣ هـ/١٠٠٢ م) ، سواء في عهده أو في عهد ابنه الحسين (ت ٤٠٣ هـ/١٠١٢ م) الذي ادعى الإمامة بعد أبيه [٢] ، بعد أن تسربت إليه بعض أفكار (الشيعة الإمامية) [٣] ، التي ستكون مثاراً للجدل والقتال بين أطراف الزيدية في القرن الخامس الهجري وما بعده ، وهكذا حملت الدولة الهادوية كفنها بيديها ، وكما بدأت في أواخر القرن الثالث شابة قوية ، كانت في آخر القرن الرابع قد أصابتها الشيخوخة فأكل بعضها بعضاً .

٢ ـ الاتجاه الشيعي الإمامي ـ الإسماعيلي :

لقد سبق أن ذكرنا أن الشيعة ـ غير الزيدية ـ لم تكن الدولة العباسية

---

(١) زبارة ، أئمة اليمن ٦٥/١ ، ٦٦ ، ومجهول ، تاريخ اليمن (ق ٩٤/ب ـ ٩٦/أ) . والعلوي ، سيرة الهادي ٤٠٧ ـ ٤٠٩ . والجنداري ، الجامع الوجيز (ق ٣٦/أ) .

(٢) ابن عبد المجيد ، بهجة الزمن ٤٣ ، ٤٤ . ومجهول ، تاريخ اليمن (ق ٩٦/ب ـ ٩٧/ب) . والمحلي ، الحدائق الوردية ٦٠/٢ ، ٦٤ . وابن أبي الرجال ، مطلع البدور ٥٢/٤ ـ ٥٦ . وزبارة ، أئمة اليمن ٧١/١ ـ ٨٦ . والجنداري ، الجامع الوجيز (ق ٤٠/أ ـ ٤٢/ب) .

(٣) ابن عبد المجيد ، بهجة الزمن ٤٤ . والمحلي ، الحدائق الوردية ٦٠/٢ ـ ٦٤ . زبارة ، أئمة اليمن ٨٥/١ . الجنداري ، الجامع الوجيز (ق ٤٢/ب) . أحمد بن سليمان ، الحكمة الدرية والدلالة النبوية ١٣٧

لترهبهم ؛ لأن الشيعة الإمامية كانوا ينتظرون الإمام المنتظر ، ولذا كانوا لا يشكلون قوة يحسب حسابها في هذا الوضع ، بل كان ينظر إليهم على أنهم فرقة من الفرق السلمية أو السلبية ينتشر أفرادهم هنا وهناك بلا عائق ولا اضطهاد .

ولكن يبدو أن طائفة منهم كانت تعمل على إيجاد منظمة سرية محكمة التخطيط تتولى العمل والتمهيد لظهور (الإمام) ، وكانت أوساط الشيعة الاثني عشرية خير ميدان لجذبه إلى الاتجاه الجديد لقربهم من هذا الاتجاه ، وللملل الذي أصابهم من طول الانتظار ، وقد تولى هذا الاتجاه ما عرف فيما بعد بالإسماعيلية[1] .

وقد اعتمد هذا الاتجاه ـ الاتجاه الإسماعيلي ـ على التركيز بأن الإمام موجود ولكنه مستور ، ولا بد من ظهور دعاة يتولون الدعوة السرية ، وإعداد الرجال ، وحرث الأرض لاستقبال الإمام .

ولا يعنينا هنا الحديث عن الإسماعيلية (أو القرمطية ، أو الباطنية) كمعتقد وفكر ، فهذا له مجاله الخاص وبحثه المستقل[2] ، ولكن الذي يعنينا هنا حركتها الظاهرية ، وأثرها في اليمن .

لم يعهد عن الإسماعيلية حركة تذكر قبل النصف الثاني من القرن الثالث ، وإن كانت كتب الإسماعيلية تشير إلى أن (رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا) ألفها أحد أئمتهم ، أو أمر بتأليفها ـ كما يزعمون ـ للرد على حركة المأمون لتعميم الفلسفة[3] ، وتوحي كتبهم بأن أئمتهم ظلوا في طي الكتمان ، ولكنهم كانوا

---

(١) لا غرابة إذا شبه أحد الباحثين حركة الإسماعيلية بالحركة الماسونية في نظامها الدقيق وبعض مراتبها ومصطلحاتها [انظر : القرامطة لدى خويه] .

(٢) راجع إن شئت كتابنا : النتاج العلمي .

(٣) إدريس عماد الدين ، عيون الأخبار وفنون الآثار ، السبع الرابع ٣٦٧ ، ٣٩٠ ، ومسألة مؤلف هذه الرسائل فيها اختلافات كثيرة وإن كان المرجح لديّ أن واضعها ـ مادام قد أخفى اسمه ـ =

يبعثون الدعاة في الجزر والبحار[1] ليحرثوا الأرض حتى يظهر الإمام .

وبالنسبة لليمن تفيد بعض الأحداث بوجود تنسيق من نوع ما ، بين قيادة الحركة الإسماعيلية في العراق والشام ، وبين بعض العناصر الشيعية في اليمن[2] .

فقد كان في اليمن شيعة إمامية اثنا عشرية[3]، وكان معظمهم في (عدن أبين) أو (عدن لاعة) ، وهم الذين استقبلوا علي بن الفضل ومنصور اليمن حينما قدما إلى اليمن سنة ٢٦٨ هـ / ٨٨١ م[4] .

= فإنه ما أخفاه إلاّ لخوفه وما خاف إلاّ لأن وراءه شيء ، وأن هذا الشيء خطير ، فلا يستبعد أبداً والشأن كذلك أن يكون للدعاة الإسماعيليين دور في كتابة هذه الرسائل ، ويؤيد هذا تلك المعلومات التي ظهرت حول بعض الأسماء التي قيل إنها ألفتها ـ وكلها شيعية ـ (انظر : مصطفى غالب (الدكتور) ، تاريخ الدعوة الإسماعيلية ١٤٩ ـ ١٥١ ، ط ٣ ، ١٩٧٩ م

(١) هذه بعض مصطلحات الإسماعيلية فيقسمون المناطق المعمورة على ظهر الأرض إلى (جزر وبحار) ويجعلون عليها دعاة . (انظر : إسماعيل قربان حسين . السلطان الخطاب حياته وشعره ٢٦٤) .

(٢) كانت القيادة الإسماعيلية في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري بيد الداعي أو الحجة أو الحجاب ـ حسب المصطلحات الإسماعيلية ـ الحسين بن عبد الله بن ميمون القداح ، ولعله هو نفسه الإمام . (انظر : مصطفى غالب، تاريخ الدعوة الإسماعيلية ١٥٢ ـ ١٥٧) . ومن الملاحظ أن هذا الاسم يتفق تماماً مع الإمام الذي أعلنته الإسماعيلية فيما بعد بأنه الذي كان معاصراً للقداح هذا ، وهو الحسين بن أحمد (ويعرف بعبد الله) ، (إدريس عماد الدين ، عيون الأخبار ، السبع الرابع ٤٠٣) ، وهو والد عبيد الله المهدي ، وهذا يخالف ماذكره ابن خلدون في تاريخه ٧٥٧/٢ حيث جعل أباه محمداً الحبيب .

(٣) كان علي بن الفضل على مذهب الاثني عشرية (انظر : الوصابي ، الاعتبار في التواريخ والآثار ٢٣ . والحمادي ، كشف أسرار الباطنية ٢١

(٤) القاضي النعمان ، رسالة أفتتاح الدعوة ٤٤ ، ٤٥ ، وإدريس عماد الدين ، عيون الأخبار ، السبع الخامس ٣٦ ، ٣٧ . وابن خلدون ، التاريخ ٧٦٠/٦ ، ولا يتعارض هذا مع مانسب إلى ابن حوشب منصور اليمن من أنه أول من نشر مذهب الإسماعيلية باليمن ، وأن ابن الفضل أول من سنّ (القرمطة) في اليمن (نشوان الحميري ، الحور العين ١٩٧ ، ٢٠٠) . =

ويتأكد لنا أن سفر علي بن الفضل إلى العراق سنة ٢٦٦ هـ/٨٧٩ م قد اتفق عليه سلفاً ، لأن (الإمام الإسماعيلي) كان يتوقع قدومه بين لحظة وأخرى[(١)] ، وحينما قدم وأعاده إلى اليمن مع (ابن حوشب) المعروف (بمنصور اليمن) حدد لهما مواقع نزولهما باليمن مما يدل على الترتيب المسبق والمعرفة الواضحة بتمركز الإسماعيلية باليمن .

ولما قدم (ابن حوشب) إلى اليمن صرح (الشيعة) الذين استقبلوه أنهم كانوا ينتظرون مقدم (داعي المهدي)[(٢)] ، كل هذا يدل على الاتفاق المسبق بين القيادة في العراق وبين فروعهم أو خلاياهم في اليمن ، ولم يكن ينقصهم إلاّ وجود أحد الدعاة الأقوياء ليتولى قيادة تلك (الخلايا) ، وقد وقع الاختيار على أبي القاسم الحسن بن فرج بن حوشب بن رذان ـ الذي عرف بمنصور اليمن ـ وأشرك معه علي بن الفضل الخنفري الذي خرج إلى العراق ، لمقابلة الإمام لإعطائه تقريراً عن الوضع في اليمن[(٣)] ، وليسند إليه الدور الجديد ، وهو دور الإعداد والاستعداد للظهور ثم الانقضاض .

فقد دخلا اليمن عام ٢٦٨ هـ/٨٨١ م ، واستقر ابن الفضل في مدينة

= عدن أبين : هي مدينة عدن المعروفة الواقعة في جنوب اليمن ، والميناء المشهور ، وعرفت بعدن أبين لأنّ أبين بن زهير الحميري أقام بها ، ولأنها كانت من أعمال مخلاف أبين المشهور [الحجري ، مجموع بلدان اليمن ٥٥/١ و ٥٨٢/٣] .

عدن لاعة : **لاعة** : بلد من أعمال حجة الواقعة في الشمال الغربي من صنعاء إليها تنسب عدن لاعة ، وقد خربت عدن هذه في الوقت الحاضر [الحجري ، مجموع بلدان اليمن ٦٧٧/٤ ـ وعرفها الأكوع في تحقيقه لكتاب قرة العيون ١٨٣] .

(١) الحمادي ، كشف أسرار الباطنية ٢٢

(٢) إدريس : عماد الدين ، عيون الأخبار ، السبع الخامس ٣٦ . القاضي النعمان ، افتتاح الدعوة ٤٤ ، ٤٥

(٣) الحمادي ، كشف أسرار الباطنية ٢٢

(جيشان) في جنوبي شرق اليمن ، واستقر منصور اليمن في (عدن لاعة) ناحية (مسور) في الشمال الغربي لليمن ، وفي كلتا المنطقتين كان لهما شيعة[(١)] ، ولم تبين المصادر أن لقاءً تم بينهما بين عامي ٢٦٨ هـ/٨٨١ م و ٢٩٣ هـ/٩٠٥ م ، أي بين دخولهما اليمن وسقوط صنعاء تحت أيديهما إلاّ أنه من البداهة ألاّ تكون الصلة مقطوعة طوال هذه المدة ، ولا نستبعد أن تكون بينهما مراسلات سرية[(٢)] .

وقد اتفقت وسيلتهما في التوصل إلى قلوب الناس وهي الاستتار والزهد والتعبد والتنسك ، والابتعاد عن الناس ليقربوا إليهم ببعض الوسائل والطرق ، وعملاً على الاستعداد ببناء الحصون ، والقيام ببعض المناوشات مع من يحيطون بهم[(٣)] .

وأشهر أمرهما في وقت واحد هو سنة ٢٩٠ هـ/٩٠٢ م ، وبكيفية واحدة وهي الاستيلاء على أحد الحصون من حولهما ثم الانقضاض على القوى الصغيرة أولاً بأول[(٤)] .

وكما لاحظنا آنفاً فلا نعرف عنهما شيئاً بين سنتي ٢٦٨ ، ٢٩٠ هـ/٨٨١ ، ٩٠٥ م ، حتى الكتب الإسماعيلية وهي التي استقينا منها معظم معلوماتنا ليس لديها أي شيء عن هذه المدة .

---

(١) القاضي النعمان ، افتتاح الدعوة ٤٥ . وإدريس عماد الدين ، عيون الأخبار ٣٦/٥ ، ٣٧ ـ تزوج ابن حوشب ابنة أحد قادتهم وهو أحمد بن الخليع الذي مات في سجن آل يعفر .

(٢) من المشهور عن الإسماعيلية أنهم كانوا يستعملون الحمام الزاجل في مراسلاتها [ابن النديم ، الفهرست ٢٦٤] ، وقال كل واحد منهما لصاحبه حينما افترقا : أعلمني بأمرك وما يكون منك (الحمادي ، كشف أسرار الباطنية ٢٤) .

(٣) الحمادي ، كشف أسرار الباطنية ٢٥ ، ٢٨ . إدريس عماد الدين ، عيون الأخبار ، السبع الخامس ٣٧

(٤) إدريس : عماد الدين ، عيون الأخبار ٣٧ . والوصابي ، الاعتبار ٢٣

وإن كانت تلك المصادر قد قررت ظهورهما عام ٢٧٠ هـ/٨٨٣ م[١]، إلاّ أنها لا تفسر الصمت الذي ظل بعد ذلك حتى عام ٢٩٠ هـ/٩٠٢ م، ويمكننا تفسيره بأن تلك المدة انقضت في الإعداد والاستعداد، وأنها أظهرا (السلوك) أو (العقيدة)، ولكن ظهور (القوة) و (المواجهة) لم تتم إلاّ في عام ٢٩٠ هـ/٩٠٢ م.

ولا أظن صحة ما قاله أحد المؤرخين من أن بعثهما إلى اليمن كان في سنة ٢٩١ هـ/٩٠٣ م[٢]، لأن الإمام الذي أرسلهما كان مقيماً في العراق في عام ٢٦٦ هـ/٨٧٩ م، ولم يأت عام ٢٩٠ هـ/٩٠٢ م إلاّ وقيادة الدعوة قد انتقلت إلى الشام ثم إلى المغرب[٣].

بالإضافة إلى أن (المهدي) - الإمام الفاطمي - خرج من الشام سنة ٢٨٦ هـ/٨٩٩ م وكان عازماً على التوجه إلى اليمن[٤]، وما كان ليتوجه إليها إلاّ وهو يعلم أن الظروف مواتية له.

كان معظم صراع منصور اليمن مع آل طريف وآل يعفر وبعض القبائل في مغرب صنعاء، وقد استطاع الاستيلاء على معظمه[٥]، ولكن في وقت طويل إذا ما قورن بما حققه (ابن الفضل) في الزمن نفسه، لأن هذا لم يأت سنة ٢٩٣ هـ/٩٠٥ م إلاّ وهو يدق أبواب صنعاء الجنوبية في (ذمار) وما حواليها، عازماً على التقدم نحو الشمال للسيطرة على صنعاء عاصمة اليمن، بعد أن أنهى دولاً

---

(١) القاضي النعمان، افتتاح الدعوة ٤٤. وإدريس، عيون الأخبار، السبع الخامس ٣٧
(٢) يحيى بن الحسين، غاية الأماني ١٩١/١
(٣) دي خويه، القرامطة ٣٧
(٤) إدريس : عماد الدين، عيون الأخبار، السبع الخامس ٩٠
(٥) الحمادي، كشف أسرار الباطنية ٢٦، ٢٧. إدريس : عماد الدين، عيون الأخبار، السبع الخامس ٣٧ - ٣٩. الجندي، السلوك ٦٤. العلوي، سيرة الهادي ٣٨٩ - ٤٠٣

كاملـة كانت تسيطر على معظم منـاطـق الشـق الجنـوبي من اليمن ، وهي (دولـة المناخيين) في (المذيخرة) ، و (دولة الكرندي) في (المعافر)[1] ، و (دولـة أبي العلاء الأصبحي) في (يافع) ، وكانت انتصاراته هذه تتم بـاسم الـدولـة العلويـة هكذا على وجه الإطلاق .

وبعد سقوط صنعـاء تحت سيطرة علي بن الفضل سنـة ٢٩٣ هـ/٩٠٥ م[2] ، التقى هذا بمنصور اليمن وتبادلا الرأي في خطتهما المقبلـة فـاحتـدم الخلاف بينهما ، فقد كان رأي منصور اليمن أن يحتفظ كل واحد منهما بما تحت يـده لإصلاح شئونـه سنـة كاملـة ثم يفكرون بعـد ذلـك في خطوة أخرى . ولكن (ابن الفضـل) كان مصراً على التوجه نحو (تهامـة) والسيطرة عليهـا ، ولم يرضخ لرأي رفيقـه وأميره المقدم عليه حسب تعليمات الإمام الإسماعيلي بل سارع بالزحف نحو تهامة واكتسح مدنها كالمهجم وزبيد[3] .

ولقـد أسكرت (ابن الفضل) نشوة النصر فـداخلـه الغرور ووجـد نفسـه في نقص إن لم يسيطر على بقيـة اليمن كلهـا ، ولحسـابـه الخـاص ، لا (للمهـدي العلوي) ، ولا لغيره ، ولا بـد من الخـلاص من (منصـور اليمن) نفسـه . ولعـل مخالفته ودخول تهامة كان بداية لهذه الخطوة . وقد اتبعها بخطوة أخرى وهي أنـه كتب إلى منصور اليمن قائلاً : « إنما هذه الدنيا شاة ، ومن ظفر بها افترسهـا ، ولي

---

(١) المعافر هي : المنطقة المعروفة اليوم بالحجرية وهي ضمن لواء تعز .

(٢) الحمـادي ، كشف أسرار البـاطنيـة ٢٨ ـ ٣٢ . الجنـدي ، السلـوك ٦٤ ـ ٦٦ . عمـارة ، تـاريـخ اليمن ٦٤ ، الرازي ، تاريخ مدينة صنعاء ٢٦٣ . والهمداني ، الإكليل ٤٨/٨ ، ١٠٨ .

(٣) الحمادي ، كشف أسرار الباطنيـة ٣٢ ، ٣٣ . والجنـدي ، السلوك ٦٤ ـ ٦٨ ، أشـار في الكشف أن ابن الفضل قتل مظفر بن حاج أمير زبيد ، بينما الطبري في تاريخه ١٢٨/١٠ . وعُريب بن سعد القرطبي في صلة تاريخ الطبري ٢٠ . ومحمد بن عبد الملك الهمداني في تكملة تـاريخ الطبري ١٩٨ اتفقوا على أنه مات موتاً في زبيد وحمل إلى مكة ودفن بها .

بأبي سعد الجنابي أسوة لأنه دعا إلى نفسه : وأنا أدعو إلى نفسي ، فإما نزلت على حكمي ودخلت في طاعتي ، وإلاّ خرجت إليك »[1] .

وبمحاولة ابن الفضل هذه للإجهاز على صاحبه انقسم الصف الإسماعيلي إلى شقين ، ولعل هذا لم يكن في اليمن فحسب ، بل كان ناتجاً عن خلافات وانقسامات في قيادة الدعوة الإسماعيلية ذاتها[2] ، كما أشار ابن الفضل نفسه ، فظهر بهذا ما عرف بحركة (القرامطة) .

وقد أشارت كتب الإسماعيلية إلى أن السبب الذي أفسد ابن الفضل عن قيادته الإسماعيلية هو وصول أحد الدعاة المقربين من القيادة الإسماعيلية ويدعى (فيروز) الذي كان يعد (باب الأبواب) إلى الأئمة ، فقد وصل إلى اليمن مغاضباً (للمهدي) الذي توجه نحو مصر بعد أن كانت وجهته إلى اليمن ، وقد حاول (فيروز) استمالة (منصور اليمن) ولكنه أبى ، فتوجه نحو ابن الفضل فاستجاب له[3] .

ويمكننا قبول هذه الرواية ، مع إضافة الغرور القبلي ، ونشوة النصر التي طغت على مشاعر ابن الفضل ، ووجود نموذج آخر قد سبقه إليه وهو أبو سعيد الجنابي الأمير القرمطي في البحرين ، وكلاهما يستند إلى أسس المذهب الإسماعيلي الباطني وليس من اختراعهما .. ولعل هذا السبب هو أقوى الأسباب المؤدية إلى الاختلاف ، فالقرامطة تقوم بإظهار كل المبادئ الإسماعيلية والعمل على

---

(١) الحمادي ، كشف أسرار الباطنية ٣٣ ، ويشير صاحب عيون الأخبار ، السبع الخامس ٤٢ أن منصور اليمن هو الذي نابذ ابن الفضل الحرب ، ولعل الحمادي كان أصوب لأن ابن الفضل هو الطامع في السيطرة .

(٢) الحمادي ، كشف أسرار الباطنية ٢٠ . إدريس عماد الدين ، عيون الأخبار ، السبع الخامس ٤٠ ، ٩٠

(٣) القاضي النعمان ، افتتاح الدعوة ١٤٩ . إدريس : عماد الدين ، عيون الأخبار ، السبع الخامس ٩٥ ، ٩٦

تطبيقها ، بينما القيادة الإسماعيلية كانت ترى التريُّث في الأمر ، ويتضح هذا من التقرير الذي بعثه أحد رسل (المهدي) للصلح بين الطرفين فقد قال : « إن القوم قد أظهروا الباطن ، وعملوا به وفطنوا له ، وتشاتموا ، وتفاضحوا بينهم »[1] .

وكان مظهر هذا هو ما ذكرته المصادر غير الإسماعيلية من تحليل المحرمات ، وارتكاب الفواحش[2] ، وهي ليست بعيدة عن مبادئ الإسماعيلية التي توجد فيها مصطلحات (ليلة الإفاضة) أو (قيام القيامة) ، التي يباح فيها كل شيء[3] .

وأيّاً كان ذلك السبب الذي أدى إلى الاختلاف ، فإن منصور اليمن لم يرضخ لتهديد ابن الفضل فتجهز هذا لإخضاعه بالقوة ، ولكنه لم يفلح واكتفى ـ لحفظ ماء الوجه ـ بأخذ ابن منصور اليمن (رهينة) والعودة إلى (المذيخرة)[4] بعد أن دخل صنعاء للمرة الثانية عام ٢٩٩ هـ/٩١١ م تاركاً خلفه أسعد بن أبي يُعْفِر الحوالي نائباً عليها[5] .

وكان ابن الفضل بحركته هذه قد أثار نقمة كل الأطراف عليه ، وسعى كل طرف للخلاص منه ، ومن هنا كان ذلك الخلاف المتشعب حول موته عام ٣٠٣ هـ/٩١٥ م[6] .

---

(١) عبد الجبار الهمذاني ، تثبيت دلائل النبوة (ضمن مجموعة أخبار القرامطة ، تحقيق/سهيل زكار ١٤٩) .

(٢) الحمادي ، كشف أسرار الباطنية ٣٦ . والعلوي ، سيرة الهادي ٣٩٣

(٣) زكار ، أخبار القرامطة ٢٣ ، ٩٧ ، ٢٣٠

(٤) الحمادي ، كشف أسرار الباطنية ٣٥ ، ٣٦ ، وقد أعاد ابن الفضل الرهينة ابن منصور اليمن بعد أن أكرمه وبره وطوقه بطوق من ذهب .

(٥) العلوي ، السيرة ٣٩٧ ، ٣٩٨ . والرازي ، تاريخ صنعاء ٣٠٩ ، ٣١٠ . ويحيى بن الحسين ، غاية الأماني ١/٢٠٢ .

(٦) يقول إدريس عماد الدين ـ في عيون الأخبار السبع الخامس ٤٣ ـ: إن المهدي أرسل إليه من =

ومـا أن مـات ابن الفضـل حتى تجمعت كل القـوى وشـارك بعضهم عمليـا في تجمع ضخم بقيـادة أسعـد بن أبي يُعْفِر الحوالي وبعض القـوى شـاركت بـالحيـاد ، أو بالرضا ، وتجمعت أيضاً حول أسعد فلول القيادات والزعامـات التي تسـاقطت تحت ضربات (ابن الفضل) الكاسحة وجاءتـه الإمـدادات من (زبيـد) وحـاصر (المـذيخرة) ، ثم أخربهـا على رؤوس أصحـابهـا ، وسبى النســاء وفرقهن بين أصحابه[1] ، لتنته بذلك أول دولة للقرامطة في اليمن .

بـل انقرض التيـار الشيعي الإسماعيلي سـواء كان قرمطيـاً أم غيره من القسم الجنـوبي لليمن الـذي سيطر عليـه ابن الفضـل ، وتكرس الـوجـود الإسماعيلي في الشمال ، وما ذلك إلاّ لاهتمام منصور اليمن بالتربيـة ، وإيجـاد المخلصين للمبـدأ قبل التوسع في الرقعة ، بل كانت (مِسْوَر) ـ في اليمن ـ مركزاً لتربيـة الـدعـاة الـذين أرسلوا إلى خارج اليمن[2] .

وبالرغم من هذه الخطة البعيدة الأثر إلا أن المواجهات بين بقيـة الإسماعيليـة ومناوئيهم تركزت بعد سقوط المـذيخرة عـام ٣٠٤ هـ/٩١٦ م في منـاطق الشمال ، فقد حصلت مكاتبات واتفاقات بين (أسعد الحِوَالي) في صنعاء ، و (الناصر) في (صعـدة) ، وإبراهيم بن زيـاد في (زبيـد) ، للتنـاصر والقضـاء على القرامطـة

= يقتله بالسم . وجاء في سيرة الهادي ٤٠٣ أنه تفجر من أسفل بطنه فمات ٣٠٣ هـ/٩١٥ م ، بينما قـال الوصابي في الاعتبـار ٢٤ : إن العلمـاء أنكروا فعل ابن الفضل فقدمـوا لـه سماً على سبيـل الاختبار فمـات ـ وهي روايـة سـاذجـة ـ ومنهم من نسب قتلـه إلى آل يعفر (الحمـادي ، كشف أسرار الباطنية ٣٧) ، وقد تصـدق هـذه الروايـة لأن المتضرر المباشر لاجتيـاحـه هو أسعـد بن يُعْفِر . والغريب أن رواية تقول : إن الـذي قتلـه كان مرسلاً من الخليفـة العبـاسي (الجنـدي ، السلوك ٦٦) ، وهـذا بعيـد لأن الخليفـة كان مشغولاً بمـا هو أهم وأعم حول مقر حكمـه وعـاصمة دولته .

(١) نشْوان الحميري ، الحور العين ٢٠٠ . ويحيى بن الحسين ، غاية الأماني ٢٠٩/١

(٢) القاضي النعمان ، افتتاح الدعوة ٥٨ ، ٦٠ ، ٦١ . إدريس : عماد الدين ، عيون الأخبـار ، السبع الرابع ٤٤ ، ٤٥ ، والسبع الخامس ٣٧ ـ ٣٩ ، ٤٤

(الإسماعيلية) ، حيثما وجدوا[1] ، وقد تولى الناصر ذاته إدارة المعارك مع أنصار المنصور في مواقع كثيرة[2] .

ويبدو أن منصور اليمن لم يطل عمره كثيراً بعد القضاء على دولة القرامطة جنوبي اليمن ، وقد وردت رواية بأنه توفي عام ٣٠٢ هـ/٩١٤ م ، وهذا يعني أنه توفي قبل ابن الفضل ، إلاّ أن هذه الرواية غير مقبولة ولا مستساغة ، لأن الحمادي[3] الذي أورد تلك الرواية هو نفسه يعطينا خبراً مناقضاً لها وهو أن خليفة منصور اليمن عبد الله بن عباس الشاوري ، أرسل إلى (المهدي الفاطمي) يعلمه بموت (المنصور) وهو يومئذٍ بمدينة (المهدية بالمغرب) ، مع العلم أن (المهدية) اختطها (المهدي) سنة ٣٠٣ هـ/٩١٥ م ، وانتقل إليها سنة ٣٠٨ هـ/٩٢٠ م[4] . ومن ثم فإن وفاة منصور اليمن كانت عام ٣٠٨ هـ/٩٢٠ م أو بعده .

وبوفاة المنصور حصل الانشقاق بين خليفته (الشاوري) ـ الذي عينه (المهدي) على (الدعوة الإسماعيلية) في اليمن ـ وبين الحسن بن المنصور الذي وصل به الأمر إلى قتل (الشاوري) وتولى الأمر بنفسه ، لا ليواصل مسيرة والده ، بل ليتراجع عما كان عليه ، ويقتل أتباعه ويصبح عام ٣٢١ هـ/٩٣٣ م

---

(١) الحمادي ، كشف أسرار الباطنية ٣٨ ، ٣٩

(٢) مسلّم اللحجي ، كتاب من أخبار الزيدية (ق ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٩ ، وما بعدها) . والعلوي ، سيرة الهادي ٤٠٤ . ويحي بن الحسين ، غاية الأماني ٢٠٦/١ ـ ٢٠٨

(٣) كشف أسرار الباطنية ٢٨ ، ٣٩

(٤) إدريس ، عيون الأخبار ، السبع الخامس ١٣٦ ، ومما يؤيد تأخر وفاة المنصور بعد ابن الفضل بزمن طويل ما ذكره إدريس في عيون الأخبار ، السبع الخامس ٤٤ ، حيث قال : « واستمر أمر المنصور في اليمن بعد مقتل هذا اللعين (ابن الفضل) وملك أكثر مدة من السنين » . وانظر الهمذاني ، الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن (من سنة ٢٦٨ إلى سنة ٦٢٦ هـ) ٤٩

قوة عشائرية ضمن القوى القبلية في اليمن[1] ، ولكنه قتل على يد أصحابه ، ليقتسم أملاكه زعيان من زعماء اليمن ، وتتبعا أتباع المذهب الإسماعيلي (الباطني)[2] ، ووثب المسلمون على أبناء المنصور وأحفاده فقتلوهم صغيراً وكبيراً ، وسبوا حريمهم ، ولم يبق منهم أحد إلاّ جعفر بن منصور الذي هرب إلى (المهدي) في (المغرب)[3] .

وهكذا انتهى دور الوجود الإسماعيلي وانتقلت الدعوة الإسماعيلية في اليمن إلى الكتمان والسرية وسط قبائل (يام وسَنْحَان وجَنّب) ، حتى ظهرت الدولة الصُّلْحِيَّة في الربع الثاني من القرن الخامس ، وبالتحديد سنة ٤٣٩ هـ / ١٠٤٧ م[4] .

ثالثاً ـ الاتجاه القبلي

حينما تختف القوة المركزية في أي بلد ، فإن التكتلات البشرية في ذلك البلد تظهر ويصبح لها وزنها وثقلها ، وإذا واتت الظروف إحدى القوى لكي تتحكم ببقية القوى ، فإنها تكون حقبة مؤقتة ، لأن عوامل نشأة كتلة أخرى تعدّ كامنة في أعماق المجتمع .

فإذا كان هذا ينشأ في أي مجتمع ، فإن المجتمع اليمني كان أسبق المجتمعات لبروز تلك الظاهرة ، لأن الطبيعة الجغرافية والانقسامات القبلية القائمة على الثأر

---

(١) الحمادي ، كشف أسرار الباطنية ٣٩ ـ ٤١ . ويحيى بن الحسين ، أنباء الزمن في تاريخ يمن (ق ٣٥) . ومسلم اللحجي ، كتاب من أخبار الزيدية (ق ٤٦) .

(٢) الزعيان هما ابن العرجي وإبراهيم بن عبد الحميد السباعي .

(٣) الحمادي ، كشف أسرار الباطنية ٤٠ ـ ٤٢ . ويحيى بن الحسين ، غاية الأماني ١/٢٢٠ ، ٢٢٢ . والأنباء (ق ٢٤) . والمؤيد في الدين ، ديوان المؤيد ٦ . وإدريس : عماد الدين ، عيون الأخبار ، السبع الخامس ٤٤ ، ٢٧٤ ، ٣١٩ ، ٣٢٩ .

(٤) الحمادي ، كشف أسرار الباطنية ٤٤

والحروب ومحاولة الغلبة ، ووجود النزعة المتمردة لأتفه الأسباب ، وأحياناً معظمها أسباباً مادية بحتة ، بالإضافة إلى انتشار الأفكار الشيعية المتفرقة ، فإن اليمن يمكننا جعله في مقدمة المجتمعات التي تتفرق وتتمزق حينما تتلاشى القوة المركزية الضابطة .

وهذه الظاهرة وجدناها في اليمن حال ظهور الإسلام . فقد كان اليمن مجزأ إلى وحدات قبلية متفرقة ، كل زعيم قبيلة أو عشيرة يطلق على نفسه ملكاً[١] .

وهناك ظاهرة أخرى وهي أنه بمجرد وجود قوة مركزية تظهر في اليمن سواء من داخلها ، أو من خارجها ، وسواء كانت قوة بشرية عسكرية ، أو قوة فكرية ، كان بمجرد وجود تلك القوة المركزية ـ أيّاً كانت هويتها ـ تتجمع تلك القوى أو التكتلات وتنضوي تحت لوائها وتعلن لها الولاء ، ولكن سرعان ماتنقض ذلك الولاء لأي سبب من الأسباب ، حيث تسعى كل كتلة للانقضاض على الأخرى ، وتظهر الحزازات والإحن . وتبدأ مرحلة جديدة من المحن والابتلاءات التي تنزل بالجميع .

وهذه الظاهرة ـ مرة أخرى ـ نلاحظها بوضوح بعد الدخول في الإسلام فبمثل السرعة التي دخلت فيها تلك القبائل في الإسلام خرجت بعضها منه بدوافع قبلية وحصلت الردّة[٢] .

هاتان الظاهرتان سترافقانا في الحقبة التي نحن بصدد الكتابة عنها .

ولتعدد تلك القوى والتكتلات ، فإننا لانستطيع أن نبرزها دون أن نحددها في أطر وحدود لنتمكن من رسم صورة دقيقة عنها .

---

(١) ابن سعد ، الطبقات ٢٦٤/١ ، ٢٦٥ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ . والهمداني ، صفة جزيرة العرب ١٧٦ . والسهيلي ، الروض الأنف ٤١٣/٧ ـ ٤١٥

(٢) انظر : اليمن في صدر الإسلام ٢٠١ ـ ٢٣٣ ، لصاحب هذه الدراسة .

ولذا لا بدَّ من النظرة إليها من خلال تقسيم جغرافي لليمن ، فنجعل صنعاء مركزاً أو محوراً ، ثم نحدد بقية المواقع بالنسبة لها شمالاً ، وجنوباً ، وشرقاً ، وغرباً . ذلك لأن صنعاء عاصمة اليمن ولأنها عاصرت قوى قبلية تعاورتها بين التمكين والتدمير ، ولذا فهي القسم الأول في حديثنا . ويدخل فيه كل من آل يعفر وآل الضحاك وآل الدعام .

- **والقسم الثاني هو غربي صنعاء وسنلمّ بالحديث عن : آل الشراحي ،** وآل زياد ، وآل حَكَم ، وبني مَجيد وبني وائل ، وأبي العلاء في لَحْج ، وآل الْمُنْتاب .

- والقسم الثالث جنوبي صنعاء : وسيضمّ الْمُناخِيين ، وآل الكَرَنْدي ، وآل الْهَيْثَم وغيرهم .

- والقسم الرابع شرقي صنعاء : وسيحتوي على همدان ، وآل الرّوية من مَذْحِج .

- والقسم الخامس شمالي صنعاء : ليجمع بعض قبائل هَمْدان ، وخَوْلان ، وجُماعة ، وبني الحارث ، وبني عَبْدَ الْمَدان ، ويام بنَجْران .

أولاً - صنعاء

لقد جعلنا صنعاء قسماً مستقلاً لأنها كانت مطمح كل خارج ، وقد تعاورتها ثلاث قوى قبلية (همدانية) كانت كل واحدة منها ترنو إلى السيطرة على القوى الأخرى وهي : (آل يُعْفِر) ، وآل الضَّحاك ، وآل الدَّعام .

ثم جاءت قوة من خَولان ، وهي قوة ابن أبي الفتوح الخولاني . وسيدور حديثنا عن هذه القوى تفصيلاً إن شاء الله .

آل يعفر الحِواليُّون :

بـدأ ظهـور أسرة ذي حِـوَال في أول القرن الثـالـث حينـما ولّى (المـأمـون) ـ الخليفة العباسي ـ أحـد عمـالـه في اليمن وهو : الخطـاب بن النعمان بن الوضـاح الحوَالي[(١)] ، ولم يجعله كذلك إلاّ لمعرفته بكفاءته وزعـامتـه ، ومن هنـا فـإن هـذه الزعامة دفعته إلى الخروج على المأمون نفسه[(٢)] ، ولم تجبنـا المصـادر على تسـاؤلات مهمة : متى خرج ؟ هل كان قبل التولية فـاستقطبـه المـأمون حسب سيـاستـه في استرضاء الخارجين عليه ؟ أم خرج على المـأمون بعـد أن ولاه على اليمن ووجـد في نفسه الزعامة والقوة التي تؤهله للانفصال عن الدولـة الأم مستغلاً ظروف المـأمون العصيبة المتمثلة بكثرة الخارجين عليه ؟ وما هي النتـائج التي حققهـا من حركتـه هذه ؟

كل هذه التساؤلات لم نجد لها إجابة فيما بين أيدينا من مصادر .

وفي عهد المأمون ـ أيضـاً ـ ظهر يُعْفِر بن عبـد الرحمن الحوالي الـذي نسبت إليه الدولة ، وأصبحت تعرف بالدولـة (اليُعْفِريـة) ، وقـد ظهر بـاعتبـاره زعيماً من زعماء (آل حِوال) ساعياً إلى الانفصال عن الدولـة العبـاسيـة وإقـامـة دعـائم دولة قبلية جـديـدة ، وقـد أعلن عن ذلـك في شهر رمضـان ٢١٤ هـ/٨٢٩ م[(٣)] ، وسعى إلى تحصين نفسه ، فبنى قلعة (بشبام) وجهزها لتتسع للآلاف من الزجـال والـدواب ، وبنى حـولهـا سـوراً محصنـاً[(٤)] ، ولم يـأت عهـد المعتصم

(١) الهمداني ، الإكليل ٢١٣/١

(٢) الهمداني ، الدامغة ٤٦٧ ، ٤٦٨

(٣) الهمـداني ، الإكليـل ٧١/٢ ، ٧٢ ، وكانت تعـاصره دولتـان في اليمن : دولـة (آل الشراحي) في (عركبة) ناحية (تهامة) ودولة (المناخيين) في الجنوب (الهمداني ، الإكليل ٦٦/٢) .

(٤) ابن رستـه ، الأعلاق النفيسـة ١١٣ . الهمـداني ، صفـة جزيرة العرب ٢٣١ . والإكليـل ١٥١/٨ . شبام : تعرف بشبام أقيان أو شبام حمير أو شبام كوكبان للتفريق بينها وبين ثلاثة بلـدان تحمل الاسم ذاته . وشبـام هـنـا يقع بسفح جبل كوكبـان في الغرب الشمالي من صنعـاء بمسـافـة ٣٤ كم (الحجري ، مجموع بلدان اليمن ٤٤١/٢ . المقحفي . معجم البلدان والقبائل اليمنية ٣٥٠) .

(٢١٨ ـ ٢٢٧ هـ / ٨٣٣ ـ ٨٤١ م) إلا وقد أصبح قادراً على المواجهة مع ولاة الدولة العباسية ومقاتلتهم[١] .

وحينما تسلم الواثق (٢٢٧ ـ ٢٣٢ هـ / ٨٤١ ـ ٨٤٦ م) مقاليد الحكم كان (يُعْفِر) قد صار متغلباً على مخاليف صنعاء[٢] ، فاضطر الوالي العباسي (جعفر بن دينار) لعقد الصلح مع (يُعْفِر) وإقراره على ما تحت يده[٣] ، وكان هذا الإقرار يعبر عن تفاقم قوة (يُعْفِر) من ناحية ، واستكانة الدولة للأمر الواقع من ناحية أخرى .

ويبدو أن الأحداث وشيخوخة (يُعْفِر) دفعت أبناءه للتربع على عرش أبيهم حتى صار مختفياً عن إدارة الدولة ، وأقوى أبنائه هو : محمد بن يُعْفِر الذي تغلب على الأمر[٤] ، ولعلَّ تغلبه الحقيقي والفعلي كان بعد أن خَلَعَ آخوه أحمد ، وقتل الخليفة العباسي المتوكل (سنة ٢٤٧ هـ / ٨٦١ م) .

ولما تولى (المعتمد) الخلافة سنة ٢٥٦ هـ / ٨٦٩ م بعد فترة من الاضطرابات وعدم الاستقرار منذ مقتل المتوكل سارع محمد بن يُعْفِر وبايع للمعتمد وخطب له ، فأرسل إليه الخليفة ـ مكافأة له ـ كتاباً في المحرم من سنة ٢٥٧ هـ / ٨٧٠ م وبموجبه عين رسمياً نائباً على اليمن[٥] . ليكون بهذا قد كسب شرعية البقاء من ناحية وشرعية المطالبة بمدّ سلطانه على بقية اليمن من ناحية أخرى ، ومن هنا سارع إلى

---

(١) الجندي ، السلوك (ق ٥٩) .

(٢) ابن سعد ، الطبقات ٢٤٧/٦

(٣) الجندي ، السلوك (ق ٦٠) . ومجهول ، تاريخ اليمن (ق ١٦٨/أ ، ب) .

(٤) نشوان الحميري ، ملوك حمير وأقيال اليمن ١٦٥ . الوصابي ، تاريخ وصاب ١٨ ، ١٩

(٥) الجندي ، السلوك (ق ٦٢) . مجهول ، تاريخ اليمن (ق ١٢٣/أ) . والأكوع ، الوثائق السياسية ٢٣٤ . وكان محمد بن يُعْفِر على صلة خاصة بالموفق الذي كان يقوم بالأمر في عهد المعتمد (انظر : الهمداني ، الإكليل ١٨٢/٢) .

بسط نفوذه على صنعاء والجند وحضرموت[١] ، وقد توسع سلطانه حتى أصبح أقوى قوة في اليمن ، ومما يوضح سعة ملكه ماوصل إلينا من أرقام لإيراداته السنوية ، فقد كان يصل إلى خزينته في الأسبوع حوالي : (حِمْل) من الفضَّة وحدها ، ومقداره عشرون ألف درهم تقريباً ، ومعنى هذا أن إيراده السنوي من الفضة كان بالتقريب ألف ألف درهم[٢] ، (أي بالمصطلح الحديث مليون درهم) ، هذا من الفضة فقط . وهذا يعني أن الإيرادات الأخرى من ذهب ومزروعات ، وثروات حيوانية هي ضخمة بالقياس إلى ضخامة المبالغ الواردة من الفضة .

وامتدت سيطرته على الزعامات القبلية في معظم اليمن ماعدا (المناخي) في (المذيخرة)[٣] ، وعمل على تتبع التحركات (الشيعية) وبالأخص (الشيعة) الإسماعيلية وحبس زعماءهم[٤] ، ولكنه مالبث في آخر عمره أن اعتزل عن ممارسة الحكم وثاب إلى الإخبات والتنسك فقرّب إليه العلماء وسمع كتب الحديث[٥] ، وخرج إلى (مكة) حاجاً مستخلفاً ابنه إبراهيم ، فلما عاد بين عامي ٢٦٥ و ٢٦٨ هـ/٨٧٨ و ٨٨١ م لم يعد له في الحكم من حاجة[٦] ليصبح ابنه إبراهيم هو المدبر لأمور الدولة ، ولكن بقدر مابذل محمد بن يُعْفِر من جهد لبناء دولة الحِوالِيين فإن ابنه إبراهيم هدم كل مابناه أبوه وجده ، فقد قتل أباه وعمه

---

(١) الجندي ، السلوك (ق ٦٢) . ونشوان الحميري ، ملوك حمير واقيال اليمن ١٦٥

(٢) الهمداني ، الجوهرتين العتيقتين ٤٦

(٣) الهمداني ، الإكليل ٣٧٩/٢ . والهمداني ، صفة جزيرة العرب ٢٠٦ ، ٢٠٧ . ونشوان الحميري ، ملوك حمير وأقيال اليمن ١٦٥ ومنهم (آل الهزيلي) بحضرموت و (آل المكرمان) (ببيحان) ، و (آل الكرندي) في (المعافر) ، و (آل الرُّوية) في (مَذْحِج) ، و (الدَّعام) في همدان .

(٤) القاضي النعمان ، افتتاح الدعوة ٤٥

(٥) الهمداني ، الإكليل ١٨٣/٢

(٦) القاضي النعمان ، افتتاح الدعوة ٤٢ . والجندي ، السلوك (ق ٦٠) .

٢٧٠ هـ ، في لحظة سكر[١] - كما تزعم الروايات - والأقرب للصواب أن سبب قتلها يكمن في شخصية إبراهيم المتجبرة الطاغية .

وبالرغم من هذا فقد أقرته الدولة العباسية على اليمن بعد أبيه ، إلاّ أن حكمه الغاشم لم يؤهله للبقاء ، وخرجت الشكوى إلى الخلافة العباسية ، فأرسل (الموفَّق) رسائل إليه يحاول كبح جماحه . وأرسل إلى بعض زعماء اليمن للعمل على الخلاص منه مبرراً دعوته هذه بوصفه بأنه ارتكب المنكرات وأخذ أموال الرعية وسفك الدماء[٢] ، وهو في الحقيقة كان كذلك بشهادة معاصريه ، ومما يضاف إلى تجاوزاته وحكمه الغاشم أنه غيَّر نظام الزكاة وفرض على اليمن مائتي ألف دينار[٣] في كل عام كضريبة ، مما أثار الناس ، فأدّى هذا كله إلى أن ابتعد عنه الأعوان وانتقض ملكه ، وأصبح كل زعيم من زعماء القبائل مستقلاً عن دولة اليُعْفُريين[٤] ، وكان الدّعام بن إبراهيم الهمداني - وهو ممن راسله (الموفق) - من أخلص المقربين إلى محمد بن يُعْفِر ، ولكنه تصدّى لإبراهيم وتولّى زعزعة عرشه واستلب ملكه وسيطر على صنعاء ، وتملك فيها ، وجبيت إليه اليمن إلى ساحل (عدن)[٥] ، وباسمه لا باسم الدولة العباسية .

ومن هنا لجأت الدولة العباسية ممثلة (بالْمُوَفَّق) الذي يدير الدولة باسم الخليفة (المعتمد) إلى إرسال علي بن الحسين الوالي العباسي المعروف (بجفتم)

---

(١) الهمداني ، الإكليل ١٨٣/٢ . وبعض الروايات تقول إن الذي دفعه إلى هذا جده يعفر (الخزرجي ، اليمن في عهد الولاة ١١٢ ، ١١٣) وهو أمر غير مقبول لأن الهمداني لم يشر إلى شيء مثل هذا وهو الأقرب عهداً والأعرف بتاريخ دولة (آل يُعْفِر) .

(٢) مجهول ، تاريخ اليمن (ق ١٤٢ ، ١٧٣) . والأكوع ، الوثائق السياسية اليمنية ٢٢٦ ، ٢٢٧

(٣) ابن رسته ، الأعلاق النفيسة ١١٢ ، وقد اعتبر الذي قام بهذا الفعل هو ابن يُعْفِر ولكن كتاب تاريخ اليمن (ق ١٢٩/أ) حدَّد الاسم بأنه : إبراهيم أبو يُعْفِر وهذا هو الأصح .

(٤) الخزرجي ، اليمن في عهد الولاة ١١٢ ، ١١٣ .

(٥) الهمداني ، الإكليل ١٧٩/١٠

ليحافظ على ما يمكن المحافظة عليه من الولاء للدولة العباسية .

ولم يصل (جفتم) إلى اليمن إلا وقد تغيرت أوضاعه . فقد تمالأ بعض موالي (آل يُعْفِر) على قتل إبراهيم فقتلوه في (شبام) في المحرم من سنة ٢٧٩ هـ/ ٨٩٢ م ، وتولّى مكانه ابن عمه عبد القاهر بن أحمد ، ودخل (جفتم) صنعاء وكان في مبدأ الأمر على وفاق مع (الدَّعام) إلاّ أنهما اختلفا فتقاتلا ، وكانت الهزيمة من نصيب (الدَّعام) واستقر (جُفْتم) يحكم صنعاء حتى سنة ٢٨٢ هـ/ ٨٩٥ م عندما عاد إلى العراق دون أن ندري سبباً لذلك[1] ، إلا إذا استنتجنا من الوضع العام أن اختلالاً تاماً حصل في اليمن لم يمكنه من بسط سلطانه وفرض إمارته عليه مما جعله يعود إلى العراق .

وفي هذه الأثناء كانت قوة منصور اليمن قد تعاظمت واستغل وضع (آل يعفر) المضطرب فهاجمهم في عقر دارهم (بشِبام) ، وقتل عبد القاهر بن أحمد بن يعفر[2] ، وانتقلت قيادة (آل يُعْفِر) إلى أسعد بن إبراهيم وعثمان بن أحمد وأقرَّهما المكتفي (٢٨٧ ـ ٢٩٥ هـ/ ٩٠٠ ـ ٩٠٧ م) على ولايتهما[3] ، إلاّ أنهما لم يكونا على وفاق ، ولهذا كانت هذه الحقبة الممتدة من عام ٢٧٩ هـ/ ٨٩٢ م بعد مقتل إبراهيم إلى عام ٣٠٤ هـ بعد سقوط (المذيخرة) والقضاء على دولة ابن الفضل هي حقبة مضطربة غير مستقرة (لآل يُعْفِر) ، فقد كان الصراع متشعباً بين أسعد وعثمان[4] ، ثم كان الصراع محتدماً بينهما وبين (منصور اليمن) في

(١) مجهول ، تاريخ اليمن (ق ١٢٩/أ) . والهمداني ، الإكليل ١٨٠/١٠ ، ١٨٢ . والخزرجي ، اليمن في عهد الولاة ١١٤ عاد (جفتم) مرة أخرى إلى اليمن في عهد المكتفي (انظر : ص ١٩ من هذا البحث) .

(٢) الهمداني ، الإكليل ١٨٣/٢

(٣) مجهول ، تاريخ اليمن (ق ١٢٤/ب) .

(٤) المصدر نفسه (ق ١٢٩/أ) حيث تخلص منه أسعد بعد قتل (جفتم) سنة ٢٩٠ هـ/ ٩٠٢ م . والعلوي ، السيرة ٣٨٨ . وكان هذا سنة ٢٩٢ هـ/ ٩٠٤ م

مغرب صنعاء[1] ، وخرج عن (آل يُعْفِر) مواليهم (آل طَرِيف) الذين تغلبوا على صنعاء[2] . وكان (آل الرّوية) المذحجيون قد تغلبوا على صنعاء أيضاً لوقت قصير[3] .

كذلك كانت دولة الهادي قد نشأت في صعدة ، ثم اتجهت نحو صنعاء ، وتغلبت عليها فعلاً ، وطاردت (آل يُعْفِر) وأخذ كل من أسعد وعثمان سجينين عند الهادي ، ولم ينقذهما إلاّ خصمها القديم وهو (الدَّعام)[4] .

ومن الجنوب كانت القرامطة تطبق على صنعاء ، وأخرجوا منها (آل يُعْفِر) ـ كما ذكرنا آنفاً ـ[5] وظلّت صنعاء في فتن متوالية حتى أن السلطة الحاكمة فيها أيّاً كانت هويتها لجأت إلى فرض (حظر التجوّل) ليلاً ، فيمنع الخروج من المنازل من بعد صلاة العشاء حتى الفجر[6] ، وانتشرت المجاعات واستغلها التجار العراقيون والفرس والشاميون والمصريون فربحوا من ورائها الأرباح الطائلة[7] .

في هذا الجو المضطرب لم يكن (لآل يُعْفِر) دولة بالمعنى الصحيح لأنهم تخلوا ـ تحت وطأة الهزائم ـ حتى عن (شِبام) عاصمة ملكهم . ولكن في هذه الظروف كان أسعد الحوالي يعمل جهده لجمع الشمل وإعادة ملكهم فقد تخلص من ابن عمه عثمان بن أحمد وحاول طرد القرامطة من صنعاء سنة ٢٩٧ هـ/٩٠٩ م[8] ،

---

(١) الحمادي ، كشف أسرار الباطنية ٢٦ ، ٢٧

(٢) الهمداني ، الإكليل ٢٣٩/٢ (الهامش) و ١٨٢/١٠ . والعلوي ، السيرة ٢٤٥ ، ٢٥١ . ومجهول ، تاريخ اليمن (ق ١٢٩/أ) .

(٣) ابن أبي الرجال ، مطلع البدور ١٢٩/١

(٤) الهمداني ، الإكليل ١٨١/١ ، ١٨٢ ، ١٨٥ . والعلوي ، سيرة الهادي ١١١ ، ٢٥٠ ، ٣٩١ . توسط (الدَّعام) لهما عند الهادي فأطلقهما .

(٥) إنظر : ص ٣٨ من هذا البحث .

(٦) ابن رسته ، الأعلاق النفيسة ١١٣

(٧) الهمداني ، الجوهرتين ٤٧

(٨) مجهول ، تاريخ اليمن (ق ١٢٩/أ) .

وأصبحت له دالة عند الدَّعام الذي كان له مكانة عند الهادي[1] ، وتلقى عهداً من الخليفة العباسي المقتدر (٢٩٥ ـ ٣٢٠ هـ/٩٠٧ ـ ٩٣٢ م) يقلده فيه « أعمال الحرب والمعادن والأحداث بصنعاء ، وأهلها ، والمذيخرة ، ومخاليفها ، وعدن ، وأبين ولحج وما يتصل بها »[2] .

ومع هذا كله فقد خضع مقهوراً لعلي بن الفضل عام ٢٩٩ هـ/٩١١ م ، بعد أن دخل صنعاء للمرة الثانية وأصبح أسعد الحوالي نائباً لعلي بن الفضل على صنعاء وقطع الخطبة لبني العباس[3] .

ولكن بالرغم من ذلك فقد تهيأت الظروف والعوامل لأسعد الحوالي لكي يغيّر هذا الوضع وليعيد لنفسه السيادة على معظم اليمن .

فالناصر بن الهادي تربطه بأسعد الحوالي علاقات ودّية[4] ، ومنصور اليمن ودولته في (مَسْوَر) في عداء مستحكم لابن الفضل ودولته ، وقادة (تهامة) التابعين للوالي العباسي في (مكة) يأملون في التخلص من (ابن الفضل) انتقاماً منه ، وما من قبيلة من القبائل الممتدة من (حضرموت) حتى شمال صنعاء إلاّ وتضررت من الاجتياح (القرمطي) بقيادة (ابن الفضل) ، ولذا كانت تنتظر من يتصدّى له كي تقف إلى جواره . وأخيراً توّجت هذه العوامل بوفاة ابن الفضل حيث كان هذا الحدث هو الحافز الأخير للاجتماع والتقدم صوب (الْمُذيخرة) ـ مركز ابن الفضل ـ وتزعم أسعد الحوالي هذا التجمع وانضمت إليه القبائل أولاً بأول ، وجاءته القوات القبلية من كل صوب ، وطارد القرامطة عاماً كاملاً من ٩

---

(١) الهمداني ، الإكليل ١/١٨٥

(٢) مجهول ، تاريخ اليمن (ق ١٣٣/ب) . الأكوع ، الوثائق السياسية ٢٣٧

(٣) الجندي ، السلوك (ق ٦٦) . الخزرجي ، العسجد المسبوك ٣٩ . والرازي ، تاريخ صنعاء ٣٠٩ ، ٣١٠

(٤) سبق أن أبرزت هذا الجانب في ص ٢٩ من هذا التمهيد .

رجب سنة ٣٠٣ هـ/٩١٥ م حينما خرج أسعد من صنعاء ، وحتى دخل (الْمُذِيْخِرة) قهراً في ٩ رجب سنة ٣٠٤ هـ/٩١٦ م[١] .

وعادت السيطرة لأسعد الحِوالي على معظم الأراضي الواقعة حول صنعاء وجنوبها ، حيث رتب الولاة وأعاد الزعامات القبلية التي حرمت من زعامتها بظهور ابن الفضل ، وأصبح ملكه ممتداً من حضرموت جنوباً حتى صنعاء شمالاً ما عدا (صعدة) التي كانت تحت دولة ابن الهادي ، و (تهامة) التي كان عليها في هذه الحقبة قواد من قواد سلطان (مكة) التابع للعباسيين[٢] ، وكان (أسعد) نفسه يقدم ولاءه للعباسيين ، ويخطب باسمهم ، ولذلك كتب بعد فتح (المذيخرة) إلى (المقتدر) يهنئه بهذا الفتح الذي هو نصر لأمير المؤمنين ودفاعاً عن دولة الخلافة[٣] .

وبعد هذا الحدث نستطيع أن نقول في اطمئنان : لقد تلاشت دولة آل يُعْفِر الأولى على إثر مقتل إبراهيم بن محمد بن يُعْفِر . وبدأت دولة آل يعفر الثانية على يد أسعد الحوالي من مطلع القرن الرابع الهجري ، ولم يستقر في (شِبام) كما كان أبوه وجده بل اتخذ (كُحْلان) مقراً له وحصّنها ، ثم انتقل إليها سنة ٣٠٦ هـ/٩١٨ م وظلَّ فيها حتى توفي سنة ٣٣٢ هـ/٩٤٣ م[٤] .

---

(١) **العلوي ، سيرة الهادي ٣٩٨ ـ ٤٠٣ . ونشوان الحميري ، الحور العين ٢٠٠ . والوصابي ، تاريخ وصاب ٢٥ . وابن الديبع ، قرة العيون ٢٠٧/١ ـ ٢٠٩ . ويحي بن الحسين ، غاية الأماني ٢٠٩/١**

(٢) الخزرجي ، العسجد المسبوك ٤٥ . ويحي بن الحسين ، غاية الأماني ٢٠٦/١

(٣) مجهول ، تاريخ اليمن (ق ١٣٥) . وانظر : الأكوع ، الوثائق السياسية اليمنية ٢٤٢ ـ ٢٤٦

(٤) العلوي ، سيرة الهادي ٤٠٤

رسم كحلان : وهي مشترك لعديد من البلدان موجودة في اليمن والذي يعنينا هنا كحلان حضور قرية من عزلة الثلث ناحية الرضمة ، بالشرق من يريم ، لمسافة ٢٣ كم ، وفي هذه المنطقة حصن يقال له (كحلان خبان) ويسمى (كحلان الحداد) وكان أول من جدّده أسعد الحوالي . وهو من أمنع حصون اليمن ليس له إلا طريق واحدة (الحجري ، مجموع بلدان اليمن ٦٦٣/٢ ، المقحفي ، معجم البلدان ٥٥٠) .

ولم يعكر صفو ملكه إلاّ حسان بن عثمان بن أحمد بن يُعْفِر الذي كان يرى أن أسعد سلب ملك أبيه ، ولا بدَّ من إعادة ماسلب منه ، وقد بدأ عمله والياً من ولاة أسعد ، ثم تحرك يجمع القبائل ويعطي لهم الأموال ، واستولى على (نجران) التي كانت تحت حكم (الناصر) ، وقد دارت مواجهات بينهما ، ثم انتهز (حسّان) موت (الناصر) في سنة ٣٢٥ هـ/٩٣٦ م فتوجه إلى (صعدة) ، واستولى عليها وطرد أبناء (الناصر) ، وهنا دارت المعركة بين (أسعد) ، وبين (حسّان) بواسطة أبناء (الناصر) أنفسهم[1] .

ولكن (أسعد) لم يكن متحمساً للاستمرار فاستقرَّ في (كحلان) ، واكتفى بما قد فعله في مقتبل العمر ، وقرر الاحتجاب عن الناس إلاّ عن المقربين إليه إلى أن توفي سنة ٣٣٢ هـ/٩٤٣ م[2] .

وبوفاته اضطرب الأمر على بني يُعْفِر[3] إلى أن قام عبد الله بن قحطان الحوالي ليجدد للدولة اليعفرية شبابها ، فوحّد ماكان قد تفرّق من ملك (آل يعفر) ، واستولى على (صنعاء وكحلان) ، ثم توجه نحو (زبيد) وأخضعها سنة ٣٧٩ هـ/٩٨٩ م ، وخطب للمعز الفاطمي - صاحب مصر - واكتسح (مخلاف جعفر)[4] . وما لبث أن وافته المنيّة سنة ٣٨٧ هـ/٩٩٧ م ليأت ابنه

(١) الهمداني ، الإكليل ١٨٨/٢ . ومجهول ، تاريخ اليمن (ق ٩٣/ب - ٩٦/أ) . ومسلّم اللحجي ، كتاب من أخبار الزيدية (ق ٤٠/ب) .

(٢) المسعودي ، مروج الذهب ١٩٨/١ ، ١٩٩

(٣) الواسعي ، تاريخ اليمن ١٥٧

بعد أن توفي أسعد قام بعده ابنه سبعة أشهر ، ولما توفي توزع ملكه بين (مولى) لآل يعفر يسمى (علي وردان) ، وأسعر بن أبي الفتوح الخولاني ، وبني الضحاك ، ولما مات علي وردان سنة ٣٥٠ هـ/٩٦١ م أصبحت السيادة لابن أبي الفتوح إلى أن قام عبد الله بن قحطان .

(٤) المخلاف جمعه مخاليف وهي عند أهل اليمن كالأجناد لأهل الشام ، والكور لأهل العراق ، والرساتيق لأهل الجبال (ابن منظور ، لسان العرب ١٢٢٥/٢) . ويشبه الإقليم أو المحافظة أو اللواء حالياً .

(أسعد) وقد دان رغبة منه للإمام القاسم العيّاني الزيدي وخطب له بصنعاء . وما لبث أن مات سنة ٣٩٢ هـ / ١٠٠١ م لتكون السيطرة المباشرة للتيار الزيدي[١] ، ولتنتهي دولة آل يعفر تماماً .

أما آل الضحاك الهمدانيين الذين كان مقرّهم (ريدة) ، فكانوا من أكبر المناوئين لآل يُعْفِر ، وخاصة بعد وفاة (أسعد بن أبي يعفر) ، وكانوا يتبادلون معهم السيطرة على صنعاء ومع الخولانيين الذين كانوا في شرقي صنعاء وبلاد خولان ، وشاركتهم القوى الزيدية المتفرقة سواء (يوسف الداعي) أو (القاسم العيَّاني)[٢] .

ولعلَّ أحسن تصوير لحال صنعاء في أواخر القرن الرابع ماذكره ابن أبي الرجال[٣] حيث قال : « وكانت صنعاء وأعمالها (كالخرقة) الحمراء بين (الأجداء)[٤] لها في كل سنة أو شهر سلطان غالب عليها حتى ضعف أهلها وانتجعوا إلى كل صقع ، وتوالى عليها الخراب وقلّة العمارة في كمال أربعمائة من الهجرة حتى انتهى عدد دورها إلى نحو نيف وألف دار فقط بعد أن كانت دورها في كمال المائتين من الهجرة في زمان هارون الرشيد وابنه المأمون نحواً من مائة ألف دار وعشرين ألف دار » .

---

(١) الجرافي ، المقتطف ٦٢

(٢) الخزرجي ، العسجد المسبوك ٤٦ . وابن الديبع ، قرة العيون ١/٢٢٠ ـ ٢٢٤ . ويحي بن الحسين ، غاية الأماني ١/٢٢٢ ، ٢٢٣ . والهمداني ، الإكليل ١٠/٦٧ . والرازي ، تاريخ صنعاء ٥١٦

(٣) مطلع البدور ٤/٥٥

(٤) **الأجداء :** جمع جدي وهو الذكر من أولاد الماعز ، ويجمع أيضاً على أجد وجداء (لسان العرب ١/٥٧٢) . **والخرقة الحمراء** هي قماش أحمر تستخدم عند مصارعة الثيران ، لأن اللون الأحمر يهيجها ، ويبدو أن الجداء كذلك يهيجها اللون الأحمر فتنقض عليه تمزيقاً وتقطيعاً .

ثانياً ـ غربي صنعاء

هذه الجهة تعاورتها في القرنين الثالث والرابع الهجريين قوتان قبليتان بعد انتهاء النفوذ العباسي المباشر أو غير المباشر :

إحداهما : قوة آل زياد ، وسنفرد لهؤلاء دراسة خاصة نتحرى فيها نشأتها ودورها وسندلف من خلالها إلى بعض القوى القبلية التي كان لها وجودها ومشاركتها في بسط النفوذ على تهامة ومنها :

والقوة القبلية الأساسية الأخرى هي : قوة السباعيين الذين خلفوا الإسماعيليين في نفوذهم بعد تقلص الإسماعيليين وانسحابهم إلى نجران ، وكان لإبراهيم بن عبد الحميد السباعي الدور الأكبر في السيطرة على مغرب صنعاء وربط العلاقات ودفع آل زياد من تهامة وخطب باسم العباسيين وتتبع الإسماعيلية قتلاً وتشريداً ، ولكن سرعان ما اختلف مع آل زياد فاستقل عنهم ، ولما جاء المنتاب بن إبراهيم بن عبد الحميد السباعي ظلَّ على سياسة أبيه إبراهيم في تتبع الإسماعيلية ، وإن عمل في أواخر أيامه على الاتصال بالفاطميين في مصر مرة أخرى[1] .

ثالثاً ـ جنوبي صنعاء

كانت المنطقة الواقعة جنوبي صنعاء تتحكم فيها أكثر من قوة قبلية ، كل قوة أخذت لها جزءاً من هذه المنطقة ، ففي أقصى الجنوب في منطقة حضرموت كانت تابعة للولاة العباسيين ، ولما أرادوا الخروج عن آل يُعْفِر ـ الممثلين للعباسيين ـ عملوا على إخضاعهم وإعادتهم إلى الحظيرة العباسية ، فكانوا تحت آل زياد تارة

---

(١) الحمادي ، كشف أسرار الباطنية ٤٠ ، ٤١ . يحي بن الحسين ، غاية الأماني ١/٢٢٠ ، ٢٢١

وتحت آل يعفر تـارة أخرى[1] . ودخلـوا أيضـاً تحت النفـوذ القرمطي حينمـا اجتاحوا معظم المناطق الجنوبية لليمن .

وإلى جوار ذلك وجدت بعض القبائل التي اتخذت لها كياناً وكان لها وزن في إدارة حلبـة الصراع في هـذه الحقبـة . هـذه القبـائل أو القـوى هي : المنـاخيـون وآل الكرندي والوائليون والمخائيون ، وبنو الهيثم .

فأما المناخيون :

فهم ينتسبـون إلى (ذي منـاخ) أحـد ملـوك حمير[2] ، ويطلـق عليهم (الْجَعافر) ملوك (الكلاع) في الإسلام ، ويشتهرون (بالتجعفر) في الجـاهليـة والإسلام[3] ، ولا غرابة إذن أن ينسب إلى أحـد (جعـافرهم) مخلاف جعفر أحـد (مخاليفْ) اليمن المشهورة[4] .

وبينما كانت قوة (الحِوَالِيين) في (شِبَام) في الشَّمال الغربي لصنعـاء ، كانت قوة المناخيين تتواكب مع ظهور (آل حوال) في العقـد الثـاني من القرن الثـالث الهجري ، وبالتحديد فقد كان إبراهيم بن جعفر المنـاخي في سنـة ٢١٣ هـ/٨٢٨ م متصدراً لمناوأة الخليفة المأمون العباسي في أغلب المناطق الجنوبيـة لصنعـاء ، حتى

---

(١) الكبسي ، اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنيـة ١١ ، وابن زاكن ، جواهر تـاريخ الأحقـاف ٢٣/٢

(٢) نشوان ، ملوك حمير ١٦٧

(٣) الهمداني ، الإكليل ٩٣/٢ ، ٩٤

(٤) نسب نشوان في المصدر السابق ومن تبعه مثل الخزرجي في العسجـد المسبوك ٣٩ ، نسبوا مخلاف جعفر إلى جعفر بن إبراهيم الذي كان معـاصراً لعلي بن الفضل وقتل على يـده ، ولكن الهمـداني في الإكليل ٩٣/٢ يؤكد أن أسرته يطلق عليها لقب الجعافر ، فلا مانع أن يكون اسم المخلاف قـد أخذ من اسم الأسرة نفسها .

أمـا الكَلاع : فهي قبيلـة من قبـائـل حمير ، وأطلـق الاسم على بـلاد كبيرة في سروحمير ، وتقـع حالياً في محافظة إب (الحجري . مجموع بلدان اليمن ٦٦٥/٢) .

غزا (الجند) وسيطر عليها بعد إخرابها وإجلاء أهلها ، وذلك في رمضان سنة ٢١٤ هـ/ ٨٢٩ م[١] .

وكان (المناخيون) هم القوة التي لم تدخل تحت طاعة الخلفاء العباسيين[٢] ، وظلَّ إبراهيم بن جعفر مناوئاً للولاة العباسيين طوال حكمه[٣] .

ثم خلفه ابنه جعفر الذي حكم قرابة ثلاثة وأربعين عاماً من سنة ٢٤٩ هـ/ ٨٦٣ م إلى سنة ٢٩٢ هـ/ ٩٠٤ م ، حينما قتل على يد علي بن الفضل القرمطي[٤] .

وكان (جعفر المناخي) من القوة والشراسة بحيث أصبح مرهوباً غالباً في معظم الأحيان ، وكان يعاقب عقاباً غاشماً[٥] ، وكانت له وقعات مع (الحِواليين) نال في معظمها النصر والتمكين[٦] .

مع العلم أن (المناخيين) كانوا على وفاق مع الهادي إلى الحق العلوي . لقرابتهم بالمصاهرة من قبائل صعدة الموالية له[٧] ، ولميل (جعفر) الواضح للتشيّع ، وقد ظهر هذا في قصيدة فخر أنشأها من مائتي بيت يشيد فيها (بآل البيت والعترة) .

أما علاقته بعلي بن الفضل فكانت علاقة مصلحة محضة في بداية الأمر ، فقد

---

(١) الرازي ، تاريخ مدينة صنعاء ٢١١ . والجندي ، السلوك ٥٩ . ويحي بن الحسين ، غاية الأماني ١٤٨/١ ، ١٤٩

(٢) نشوان ، ملوك حمير ١٦٧ . الوصابي ، تاريخ وصاب ١٠٢

(٣) الجندي ، السلوك ٥٩

(٤) الخزرجي ، العسجد المسبوك ٣٩ . وفي الإكليل للهمداني ٩٣/٢ ملك قرابة خمسين عاماً .

(٥) الحمادي ، كشف أسرار الباطنية ٢٩ . يقال إنه قطع أيدي ثلاثمائة رجل دفعة واحدة .

(٦) المصدر نفسه ٣٠ . والجندي ، السلوك (ق/٥٩) .

(٧) العلوي ، السيرة ٢٤٠

كان (جعفر) في عداء مع (ابن أبي العلاء) أمير (لحج) ، وحينما ظهر علي بن الفضل كانت أول قوة واجهها هي قوة ابن أبي العلاء ، فدخل جعفر مع ابن الفضل في تحالف ضدّ عدوهما المشترك على أن يقتسما الغنائم بالسوية ، ولكن هذا التحالف انتهى إلى صراع مرير ، ثم طرد جعفر من مقرّ ملكه (المذيخرة) ، حتى لجأ إلى (تهامة) طالباً المدد الذي لم يمنع عنه قَدَره حيث سقط قتيلاً في عام ٢٩٢ هـ في آخر معركة له مع علي بن الفضل[١] .

وبسقوطه انتهى عهدهم الذهبي ، ولم تنفع المحاولات التي قام بها أولاده من بعده لإعادة ملك آبائهم ، فقد قتل أحدهم على يد (القرامطة) وهو في طريقه إلى العراق ، مستنجداً بالخليفة العباسي (المكتفي) ، واستقر بعضهم في صنعاء عازفاً عن الملك ، وانضم الآخرون تحت لواء أسعد بن أبي يُعْفِر الحِوالي حينما عمل على محاصرة (المذيخرة) ، وعلى الرغم من إعادتهم إليها بعد فتحها[٢] ، إلاّ أنه لم يعد لهم ملك ظاهر ، وإن كانوا قد استمروا كما قيل حتى أزالهم علي بن محمد الصليحي في القرن الخامس الهجري[٣] .

آل الكرندي :

هم من ولد أبيض بن حمال المأربي[٤] ، من جهة النساء ، أما من جهة الآباء فهم من (بني ثمامة) من ذرية (سبأ الأصغر) ، وهم ملوك (المعافر) ، ولعلهم كانوا أصحاب ملك وسلطان ، في عهد الهمداني حتى بداية النصف الثاني من القرن

---

(١) الحمادي ، كشف أسرار الباطنية ٢٨ ـ ٣٠ . والهمداني ، الإكليل ١٩٣/٢ . والخزرجي ، العسجد المسبوك ٣٩ . وابن الديبع ، قرة العيون ١٩٢/١ ، ١٩٣ وجعل قتله عام ٢٩١ هـ /٩٠٤ م .

(٢) الهمداني ، الإكليل ٩٣/٢ ـ ٩٥

(٣) نشوان الحميري ، ملوك حمير ١٦٧ . والهمداني ، الإكليل ٩٥/٢ (تعليق الأكوع) .

(٤) أبيض بن حمال المأربي : أحد الصحابة الذين وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وينسب إلى مدينة مأرب . (الهمداني ، الإكليل ٢٤٠/٢ . ونشوان ، ملوك حمير ١٧٠) .

الرابع الهجري لأنه أنشأ قصيدة في مدح أحد ملوكهم[1] ، وقد انتزع علي بن الفضل ملكهم ، فانضموا إلى آل يعفر ومن حالفهم للقضاء على قوة ابن الفضل[2] ، فاستعادوا مملكتهم في كل من (المعافر) ، و (لَحْج) ، و (الجند) ، ولا يبعد أن ولاءهم كان (للحِواليين) في حال قوتهم .

ودام ملكهم إلى ما بعد انقضاء المائة الرابعة ، ولم ينزع عنهم الملك إلاّ (آل الصّليحي)[3] ، في النصف الأول من القرن الخامس الهجري .

ولكن ـ للأسف الشديد ـ لا نملك أي معلومات عن هذه الدولة ولا اسم واحد من ملوكها ، أو وجهائها ، لأن المصادر التي بين أيدينا ليس فيها من المعلومات أكثر مما ذكرنا آنفاً .

☆ ☆ ☆

وكان بجوار الكرنديين بعض القوى القبلية الصغيرة التي كانت تمارس سلطانها بعيداً عن التبعية لأي قوة أخرى ، وتارة يمثلون بعض القوى ذات التأثير والنفوذ في البلد .

فالوائليون : هم بطن من (ذي الكلاع) من (حمير) . وكان مقرهم في (مخلاف شاحِط)[4] ، وقفوا مع (الحِواليين) لاستئصال شأفة علي بن الفضل ثم دانوا لهم .

---

(١) الهمداني ، الإكليل ٢٤١/٢ ، ٢٧٩

(٢) ابن سمرة ، طبقات فقهاء اليمن ١٠٥

(٣) الوصابي ، تاريخ وصاب ٢٠ . وابن خلدون ، التاريخ ٤٧٥/٧ ، ٤٧٦ . والعرشي ، بلوغ المرام في شرح مسك الختام ٢٠

(٤) ابن خلدون ، التاريخ ٤٧٩/٧ . **وشاحط :** مدينة باليمن ولها عمل واسع ، ياقوت الحموي . معجم البلدان ٣٠٤/٣ ، وجاء في مجموع الحجري ٤٣٩/٣ أن شاحط بلاد ريمة ولا أظن هذا صحيحاً ، وإنما هي من أعمال العدين (معجم المقحفي ٣٤٥) لأن العدين هي نفسها مركز بلاد الكلاع .

ولقد شاركهم هذا الموقف (الأنبوع)[1] ، وهم قوم من قبائل حمير ، ويقطنون سروحمير[2] ، ويطلق على تجمع قبلي وليس على عشيرة مفردة[3] .

وفي (التّعكر) - ويسمى اليوم جبل (شمسان) في (عَدَن)[4] - كان **المخائيون** الذين أصبحوا ممثلين (للحِواليين) بعد سقوط القرامطة ، ثم خلفهم **(بنو الهيثمي)** من عام ٣٤٢ هـ/٩٥٣ م ، وسرعان ما شكلوا قوة مستقلة أطلق عليها مصطلح الدولة ، حيث استمرت خمساً وثمانين سنة[5] . وما ذلك إلا بعد أن ضعف النفوذ اليعفري بعد وفاة أسعد الحوالي .

رابعاً - شرقي صنعاء

أما في شرقي صنعاء فقد تحدثنا عن زعامة (الدَّعام) لبعض قبائل همدان ، ونفوذ (آل الضحاك) الهمدانيين الذين تناوبوا السيطرة على صنعاء والوصول إلى مشارق صنعاء . وظهرت إلى جوارهم زعامة خولانية تولاها الأسمر (أو أسعد) بن يوسف بن أبي الفتوح الخولاني عام ٣٤٥ هـ الذي تولى النفوذ على صنعاء ومشرقها متحالفاً تارة مع دعاة الهادوية وتارة يختلف معهم وقد دخل صنعاء سنة ٣٥٨ هـ ، وظل في صراع مرير مع من حوله من القوى إلى أن قتل

---

(١) ابن سمرة ، طبقات فقهاء اليمن ١٠٥

(٢) يدلنا الهمداني في الإكليل ٤٤٩/٢ على أن الكثير من قبائل حمير تأتي على صيغة (أفعول) . ويؤكد القاضي إسماعيل الأكوع على أن صيغة (الأفعول) هذه شائعة الاستعمال في مساكن القبائل الحميرية (مجلة الإكليل عدد ٢ ص ٩) .

(٣) الهمداني ، الإكليل ١٢٤/١

(٤) عمارة ، تاريخ اليمن ١٧٤ (تعليق الأكوع) . والتعكر هذا غير جبل التعكر الذي يقع في أرض ذي الكلاع من مخلاف جعفر (انظر : المقحفي . معجم البلدان ١٠٨) .

(٥) ابن سمرة ، طبقات فقهاء اليمن ١٠٥ . والهمداني ، الإكليل ٢٢٩/١

على يد غلمانه سنة ٣٩٥ هـ/١٠٠٤ م[١] ، وبجوار خولان شرقاً ظهرت زعامة مذحجية اتخذت من مأرب مقراً لها ، وكان سيدها (أبو العشيرة) ، وأخوه (الربيع) ابني (الروية) ، وهم أصحاب رئاسة من أيام الجاهلية ويشتهرون بدار للضيافة وبمناجم للذهب التي لا يشاركهم فيها أحد[٢] .

ولكن هذه المناجم ـ والمعروفة بمعدن الرِّضْراض ـ نكبت سنة ٢٧٠ هـ / ٨٨٣ م بالخراب والدمار والنهب بعد مقتل محمد بن يعفر الحوالي ، فهرب العمال الذين كان ابن الرُّوية يستخدمهم وجلهم من الفرس وتفرقوا في البلاد ، بل إن المزارع التي كانت مصدراً رئيسياً لصنعاء أصيبت هي الأخرى بالخراب في هذه الفتنة[٣] .

وكان (ابن الرُّوِية) ممن وقف إلى جانب الهادي إلى الحق وناصره وآزره وجهز جيوشاً ـ بمساعدة (المناخيين) ـ قاتلت معه ، وتصدى (لآل الدّعام) في عهد (الناصر) ، وأحبط ما كانوا يحيكونه من مؤامرات ضده[٤] .

ولا ندري إلى متى استمر ملكهم لشح المصادر التي تمدنا بالمعلومات الكافية .

خامساً ـ شمالي صنعاء

فبالطبع أن شمالي صنعاء وبالذات في صعدة كانت الدولة الهادوية التي استمرت تتخذ منها عاصمة لها وتمدّ نفوذها أحياناً إلى صنعاء جنوباً ، ونجران شمالاً ، ولكن إلى جوار هذه القوة التي استمرت طوال القرنين الثالث والرابع الهجريين كانت هناك **قبائل همدان** كآل الدَّعام وآل الضَّحاك وقد تحدثنا عنهما

(١) ابن أبي الرجال ، مطلع البدور ٥٥/٤ . الواسعي ، تاريخ اليمن ١٥٧ ، يحيى بن الحسين ، غاية الأماني ٢٢٢/١ ـ ٢٣٤

(٢) ابن رسته ، الأعلاق النفيسة ١١٣ . والعلوي ، السيرة ٢٤٠ . والهمداني ، صفة جزيرة العرب ٢٣٦

(٣) الهمداني ، الجوهرتين العتيقتين ٤٥ ـ ٤٧ ، وصفة جزيرة العرب ٢٢١

(٤) العلوي ، السيرة ٢٤٠ . وابن أبي الرجال ، مطلع البدور ١٠٤/٢

آنفاً ، بالإضافة إلى قبائل **(خولان)** ، وعلى رأسهم ابن أبي الفتوح الخولاني ، الذين كان لهم نفوذ في الشمال والشرق من صنعاء ، ونضيف هنا قبيلة **(جُمَاعَة) ـ من خولان ـ** الذين كان لهم نفوذ على بعض القبائل من حولهم ، فيأخذون الأتاوات منهم ، ويفرضون سلطانهم عليهم[1] .

وعلى الرغم من وجود قوة (الحواليين) في صنعاء ، حيث كان يمتد نفوذهم أحياناً إلى صعدة ، وتوجد دولة الهادي من أبنائه إلا أن قبائل صعدة نفسها لا تخلو من صراع مرير فيما بينها مثل (سعد) و (الربيعة) ، وقد أشرنا إلى ذلك سابقاً[2] ، ولم يكبح جماح ذلك الصراع إلاّ الهادي إلى الحق ، وإن لم تدم تلك الحالة حيث عاد الصراع في عهد بنيه وأحفاده[3] .

وإذا امتد بنا السير نحو الشمال فإن قبائل (بني الحارث) و (يام) تقطنان (نجران) ، فكانت (يام) ركيزة الدعوة الباطنية الإسماعيلية بقية القرن الثالث وطوال القرن الرابع[4] ، بل لقد نسب إليها ـ فيما بعد ـ فرقة من الفرق (الباطنية) ، وهي فرقة (اليامِيَّة)[5] .

وأما (بنو الحارث) وعلى رأسهم (بنو عبد المدان) ، فقد كان ولاؤهم الحقيقي لبني العباس ، وذلك لعدة أسباب ، منها : أن (أبا العباس السفاح)

---

(١) الهمداني ، الإكليل ٤١٨/١ ، ٤١٩ . نلفت نظر القارئ إلى أن (خولان) بطن من كهلان ، وينقسم إلى خولان قضاعة وهؤلاء يقطنون الشمال ويتخذون من صعدة عاصمة لهم . وخولان العالية ويقطنون شرقي صنعاء ، وابن أبي الفتوح من هؤلاء . [انظر : اليمن في صدر الإسلام لصاحب هذه الدراسة ص ٤٠ إن شئت التوسع عن خولان] .

(٢) (انظر : ص ٢٦ من هذا البحث) .

(٣) مجهول ، تاريخ اليمن (ق ٩٣/ب) .

(٤) عمارة ، تاريخ اليمن ١٠٣ (تعليق الأكوع) .

(٥) الكرملي ، فهارس كتاب بلوغ المرام للعرشي ٣٤٤

كان متزوجاً من (بني عبد المـدان) . ومنهـا أن (بني العبـاس) كانـوا كثيراً ما يولون عمالاً على اليمن من (بني عبد المدان)[1] ، ولهذا ناصبوا الهـادي إلى الحق العـداء ، وكانت أكثر حروبـه معهم ، وكانـوا يتطلعـون إلى أي قـوة تـأتيهم من (بغداد) للانضمام إليها .

وبعد فيلاحـظ القـارئ أننـا حـاولنـا تتبع شوارد المعلومـات والربـط بينهـا لتجميعهـا والعمل على رسم الخريطـة السيـاسيـة لليمن في القرنين الثـالث والرابـع الهجريين ، فأرجو ألا أكون قد أتعبت القارئ معي في هذا الجهد اللاهث .

---

(١) ابن أبي الرجال ، مطلع البدور ٨٧/٣

نشأة الدولة الزيادية
بين الحقيقة والخيال(☆)

لقد اهتمت المصادر اليمنية بدولة بني زياد التي ـ كما حسبوا ـ كان لها نفوذ في تهامة منذ إشراقة القرن الثالث الهجري .

وأقدم هذه المصادر التي اعتمد عليها المؤرخون فيما بعد ، هو تاريخ اليمن لعمارة اليمني (ت ٥٦٩ هـ/١١٧٣ م) ، وكل من جاء بعده نقل عنه حرفياً كل تفاصيل تاريخ بني زياد ، وفي طليعة المؤرخين الذين نقلوا عن عمارة : الجندي (ت ٧٣٢ هـ/١٣٣١ م) ، والخزرجي (ت ٨١٢ هـ/١٤٠٩ م) .

وبالرغم من تقرير وموافقة المؤرخين اليمنيين المتأخرين لما جاء عند عمارة ، فإن الحقيقة التي ينبغي أن نفئ إليها هي أن هناك الكثير من الأخبار والقرائن والدّلائل التي تؤكد على عدم الوثوق بما جاء عند عمارة اليمني في روايته لنشأة هذه الدولة .

وقبل أن أورد هذه الدلائل التي تقرر هذه الحقيقة يحسن بنا أن نضع بين يدي القارئ صورة موجزة لأخبار الدولة الزيادية كما جاءت عند عمارة[1] والمصادر التي أخذت عنه وإليكموها :

(☆) بحث نشر في مجلة الإكليل اليمنية العدد الثاني ، السنة التاسعة ، (١٧) صيف ١٤٠٩ هـ/١٩٨٩ م .

(١) ـ عمارة ، تاريخ اليمن ٣٨ ـ ٨٤ .
ـ والجندي ، السلوك ٦١
ـ والخزرجي ، العسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك ٩٦ ـ ١٠٤
ـ والوصابي ، الاعتبار في التواريخ والآثار ٢٢ ـ ٢٦

في عام ١٩٩ هـ/٨١٤ م قدم على المأمون ـ الخليفة العباسي ـ قوم فيهم بعض من بني أمية . وقد سلط عمارة الأضواء على ثلاثة منهم ، فسمى أحدهم [محمداً] ونسبه إلى (زياد بن معاوية بن أبي سفيان) ، وأما الثاني فلم يسمه ، ولكنه نسبه إلى (هشام بن عبد الملك بن مروان) ، والآخر لم يسمه أيضاً ، ولكنه نسبه إلى (تغلب بن وائل) ، وقد أكرمهم المأمون وعهد إلى وزيره برعايتهم .

وفي عام ٢٠٢ هـ/٨١٧ م ورد إلى المأمون كتاب من عامل اليمن [يلاحظ أن العامل لم يعط له تعريفاً ولا اسماً] يخبره فيه بخروج (الأشاعر وعك) في تهامة عن الطاعة ، فأشير على المأمون أن يرسل الرجال الثلاثة هؤلاء إلى اليمن ليكون المنسوب إلى (زياد) أميراً ، والمنسوب إلى (هشام) وزيراً ، والمنسوب إلى (تغلب) حاكماً ومفتياً .

فخرج ابن زياد على رأس جيش وحج عام ٢٠٣ هـ/٨١٨ م وسار إلى اليمن ففتح تهامة بعد حروب جرت بينه وبين العرب بها (هكذا حروب بينه وبين العرب ، وكأن هذا القادم ومن معه ليس من العرب) . واختط زبيداً في شعبان ٢٠٤ هـ/٨١٩ م ، وفي عام ٢٠٥ هـ/٨٢٠ م حج من اليمن (جعفر) مولى ابن زياد (وهذا هو وزيره المنسوب إلى هشام بن عبد الملك ، ولا أدري كيف ورد اسمه هنا ، ثم كيف أصبح مولى ابن زياد ؟!) .

المهم أن جعفراً هذا خرج بعد الحج إلى العراق فالتقى بالمأمون وكرّ راجعاً إلى اليمن عام ٢٠٦ هـ/٨٢١ م ومعه ألفان من الفرسان فعظم أمر ابن زياد وملك إقليم اليمن بأسره ، الجبال والتهائم . وقد نسب إلى جعفر هذا (مخلاف جعفر) .

= ـ وبامخرمة ، تاريخ ثغر عدن ١٦/٦/٢ ، ١٧ ، ٥٩ ـ ٦٢ ، ١٥ ، ٢١٥ ، ٢١٦

ـ وابن المجاور ، تاريخ المستبصر ٦٦ ـ ٦٨

ـ وابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ٤٥٤/٧

ثم سرد العديد من المدن التي امتلكها ابن زياد في التهائم والجبال حيث لم يبق من اليمن مدينة إلا استولى عليها .

وكان ابن زياد مرتبطاً بالدولة العباسية ارتباطاً اسمياً ، حيث كان يذكر الخلفاء العباسيين في الخطبة . وقد خلفه من بعده إبراهيم بن محمد عام ٢٤٥ هـ/٨٥٩ م ، ثم ابنه زياد عام ٢٨٩ هـ/٩٠٢ م ، ولم تطل مدة حكمه حيث خلفه أخوه أبو الجيش إسحاق بن إبراهيم الذي دام ملكه ثمانين سنة !!! ولما كبر وأسن وتشعبت عليه الأطراف وانفصل الأمراء المستقلين عنه ، ومنهم الهادي في صعدة ، وتوفي أبو الجيش عام ٣٩١ هـ/١٠٠١ م وقيل عام ٣٧١ هـ/٩٨١ م[١] ، ولم يخلف رجالاً من صلبه ما عدا طفلاً اختلف في اسمه[٢] كان في كفالة أخته ، وعبدٍ لأبيه يدعى (رشيداً) ، ولهذا العبد (وصيف) يسمى حسين بن سلامة[٣] ، الذي لقب بالقائد . ولما توفي (رشيد) تولى حسين بن سلامة القبض على زمام الأمور وعمل على إخضاع الأمراء المتغلبين على الحصون والمخاليف ، وعادت إليه مملكة ابن زياد الأولى واختط مدناً مثل (الكدراء والمعقر) ، وقد دام في الملك ثلاثين سنة إلى أن توفي عام ٤٠٢ هـ/١٠١١ م .

هذا ـ باختصار ـ ما صوره عمارة (اليمني) ومن جاء بعده عن دولة (بني زياد) ، ولكن كل ما جاء في المصادر المعاصرة لهذه الحقبة أو المتأخرة من معلومات متناثرة تشكك في تلك الصورة إن لم تهدمها تماماً .

وسنحاول هنا تقديم هذه الإشارات وترتيبها لتكون دلائل بين أيدينا توصلنا إلى تقرير الحقيقة التي نتوخاها من الإدلاء بهذه الدلائل ورصدها ،

---

(١) هذا الاختلاف جاء من التصحيف في المخطوطات حيث سبع وتسع في رسمها الخطى واحد ولعدم وجود نقاط الإعجام كان اللبس .

(٢) اسمه عبد الله ، وقيل إبراهيم ، وقيل زياد ، وأخته اسمها هند .

(٣) النسبة إلى أمه وهي من أصل نوبي .

وسنلاحظ أن بعضاً منها استخلص من نص عمارة اليمني نفسه وبعضها من خلال القرائن والدلائل الواردة في المصادر المتعددة .

إننا لو تتبعنا المصادر الأولى التي أرخت للدولة العباسية واستقصينا أخبار الدولة في عهد المأمون ، فإننا لن نجد إشارة ـ مجرد إشارة ـ إلى ابن زياد ، هذا ضمن سلسلة ولاة المأمون على اليمن الذين بلغ عددهم أربعة عشر والياً ، ولم يذكر منهم ابن زياد[1] . كذلك لم يذكر في العهود التالية حتى عهد المعتمد (٢٥٦ ـ ٢٧٩ هـ/ ٨٦٩ ـ ٨٩٢ م) .

وقد يرى البعض حجة تنقض هذا وهي أن ابن خلدون ذكر في تاريخه تولية المأمون لابن زياد ، ولكن هذه الحجة تتلاشى إذا عرفنا أن تشابهاً واضحاً في العبارات الواردة عند ابن خلدون وعند عمارة اليمني ، مما يدل على أن ابن خلدون المتأخر زمناً نقل عن عمارة نقلاً دون تمحيص[2] .

وحينما نتتبع ـ أيضاً على سبيل الحصر ـ جوانب الخارطة السياسية لليمن في هذه الآونة فإننا سنصل إلى أكثر من حقيقة .

سنصل إلى أن إبراهيم الجزار الذي خرج في اليمن مؤيداً لمحمد بن إبراهيم طباطبا الخارج على بني العباس في الكوفة عام ١٩٩ هـ/ ٨١١ م استماله المأمون بعد أن قضى على طباطبا في الكوفة وولاه اليمن معطياً له بهذه التولية شرعية ممارسة سلطانه باسم الدولة العباسية وقد رضي بهذا الوضع حتى عام ٢١٣ هـ/ ٢٢٨ م[3] .

وسنصل إلى أن الحركة العلوية التي قامت في تهامة عام ٢٠٧ هـ/ ٨٢٢ م

---

(١) ابن الديبع ، قرة العيون بأخبار اليمن الميمون ٢/ ١٣٨ ـ ١٤٩

(٢) تاريخ ٧/ ٤٥٤

(٣) الجندي ، السلوك ٥٩

ـ أي في زمن ومكان تواجد ابن زياد حسب رأي عمارة ـ ما تولى إنهاء وجودها إلا الجيش الذي أرسله المأمون لأداء هذه المهمة[1] ولم يكن لابن زياد ذكر فيه .

وسنصل إلى أن حركة التمرد التي قام بها أحمد بن محمد العمري[2] في همدان أيام المأمون لم يعهد المأمون إلا إلى أحد قواده ليتولى التخلص من هذه الحركة حيث أرسله إلى اليمن عام ٢١٢ هـ/٨٢٧ م كوالٍ عليها[3] ، (ولو كان لابن زياد وجود ما تجشم المأمون مؤونة التصدي لهذه الحركة) .

وسنصل إلى أن أكثر من قوة قبلية في هذه الحقبة كونت لها كيانات مستقلة متميزة في مواجهة القوى الأخرى حتى قوة الدولة العباسية ، ولم تعرفنا المصادر ـ حتى كتاب عمارة نفسه ـ أنها بالتحديد دخلت ضمن الدولة الزيادية .

من هذه القوى قوة (المناخيين) في (المذيخرة) ، فقد كان إبراهيم بن جعفر المناخي في عام ٢١٣ هـ / ٨٢٧ م مناوئاً للدولة العباسية في كثير من المناطق الجبلية الوسطى من اليمن ، وزحف على مدينة (الجند) ـ وكانت فيها الإمارة العباسية ـ فأخربها وقتل الأمير العباسي[4] الذي ولاّه المأمون لإحباط حركة العمري ، فتمكن إبراهيم منها وظلّت هذه الدويلة في مواجهة بني العباس حتى

---

(١) الطبري ، تاريخ الطبري ٥٩٣/٨ ، كانت هذه الحركة بقيادة أحد العلويين ويسمى عبد الرحمن بن محمد .

(٢) نسبة إلى عمر بن الخطاب .

(٣) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ٤٦١/٢ ، كان العمري قد وثب على بيت المال في صنعاء وأخرج أميرها المسمى محمد بن نافع فولى المأمون أبا الرازي محمد بن عبد الحميد اليمن . وقد تمكن من أخذ العمري وأرسله إلى المأمون ، ثم كلف بملاحقة المناخي وإخضاعه لأنه كان هو الآخر متمرداً في المذيخرة ولكن أبا الرازي فشل في مهمته .

(٤) الرازي ، تاريخ مدينة صنعاء ٢١١ ، الجندي ، السلوك ٥٩ . يحيى بن الحسين ، غاية الأماني في أخبار القطر اليماني ١٤٨/١ ، ١٤٩ ، اليعقوبي ، تاريخ ٦١/٢

قضى عليها علي بن الفضل عام ٢٩٢ هـ / ٩٠٥ م[١] .

وظهرت منذ عام ٢١٤ هـ / ٨٢٩ م بوادر قيام دويلة جديدة عرفت فيما بعد بدولة (بني يعفر) ، وقامت أول ماقامت في (شبام) وسعت عن طريق الأعمال المسلحة لبسط نفوذها في مواجهة الولاة العباسيين في عهد المعتصم (٢١٨ ـ ٢٢٧ هـ / ٨٣٣ ـ ٨٤٢ م) . وأشار ابن سعد[٢] وهو من أقدم المؤرخين أن يُعْفِر الحوالي عام ٢٢٥ هـ / ٨٤٠ م كان متغلباً على مخاليف صنعاء ولم يشر بتاتاً لابن زياد .

ولقد اضطرت الدولة العباسية للرضوخ للأمر الواقع ، فاعترفت في عهد الواثق (٢٢٧ ـ ٢٣٢ هـ / ٨٤١ ـ ٨٤٦ م) بالدولة اليعفرية لتكون تابعة من الناحية الرسمية لبني العباس ، وأصبح هذا تقليداً يحتذى بين آل يعفر وبني العباس حتى انتهى النفوذ العباسي تماماً في الربع الأول من القرن الرابع الهجري[٣] .

ووصلت إلينا ـ عن طريق أوثق المصادر اليمنية ـ معلومات في غاية الأهمية حيث حدّد كل من الهمداني[٤]، ونشوان الحميري[٥] ، والوصابي[٦] أن الملوك الذين

---

(١) نشوان الحميري ، ملوك حمير وأقيال اليمن قصيدة نشوان وشرحها ١٦٧ ، الوصابي ، تاريخ وصاب ١٠٢ . الجندي ، السلوك ٥٩ . الخزرجي ، العسجد ٣٩ . الهمداني ، الإكليل ٢/٩٣

(٢) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ٦/٢٤٧

(٣) الهمداني ، الإكليل ٢/٦٦ ، ٧١ ، ٧٢ . الجندي ، السلوك ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٢ . مجهول ، تاريخ اليمن (ق ١٢٣/أ ، ١١٦٨ أ ، ب) .

ـ نشوان الحميري ، ملوك حمير ١٦٥ . الشجاع ، الحياة العلمية في اليمن في القرنين الثالث والرابع للهجرة ٣٩ ـ ٤٧

(٤) الإكليل ٢/١٦ . صفة جزيرة العرب ٢٢٢ ، ٢٥٩

(٥) ملوك حمير ١٨٠

(٦) الوصابي ، تاريخ وصاب ١٨ ، ١٠١

كان لهم الدور السياسي في اليمن منذ مطلع القرن الثالث الهجري كانوا ثلاثة ملوك : يعفر الحوالي ، وإبراهيم الجعفري ملك (الكلاع) ومقرّه (المذيخرة) ، والشراحي ومقرّه (عركبة) . و (الشراحيون) هؤلاء هم ملوك تهامة من عهد (المعتصم) إلى أيام (المعتمد) ، أي من سنة ٢١٨ ـ ٢٧٩ هـ / ٨٣٣ ـ ٨٩٢ م وكانوا ملوك زبيد من قبل (بني زياد) ، وهم الذين سوروا مدينة زبيد ، وللشراحيين ارتباط أسمى بالدولة العباسية حتى أنهم كانوا يضربون عملة (سكة) باسم العباسيين ، بالإضافة إلى ذكر اسم الخليفة في الخطبة .

فهذه المعلومات الهامة من المصادر الموثوقة تدفعنا إلى أن نتسائل مرة ومرة : أين ابن زياد وقواته الضاربة في تهامة كما ورد عند عمارة ؟

☆ ☆ ☆

مرة أخرى إن المعلومات السابقة ومعلومات لاحقة تجلو لنا حقائق جديدة ، فالمدن التي ادعى عمارة أنها بنيت في عهد بني زياد مثل زبيد والكدراء والمعقر هو ادّعاء غير صحيح على وجه اليقين ، لأن هذه المدن هي مدن قديمة من عهد الجاهلية . وذُكرت في أحداث عاصرت ظهور الإسلام[1] ، وقد ذكر الهمداني (زبيد) في أكثر من موضع وذكر (الكدراء والمعقر) بينما زعم عمارة أن الحسين بن سلامة الذي جاء بعد الهمداني هو الذي بناها فكيف يذكرها الهمداني ولم تبن إلا بعد وفاته ـ حسب زعم عمارة ـ ؟!!

ومن المعلومات نفسها نلاحظ أن الادّعاء بأن (مخلاف جعفر) منسوب إلى (جعفر) مولى ابن زياد هو ادعاء باطل ، لأن الهمداني وغيره من المؤرخين أكدوا على أن هذا المخلاف ينسب إلى ملوك (الكَلاَع) ويطلق عليهم

---

(١) انظر : تعليقات الأكوع على تاريخ اليمن لعمارة ٤٨

(الْجَعَافِر) منذ عهد الجاهلية . وإن رأى البعض أن هذه النسبة وجدت في عهد جعفر بن إبراهيم الذي كان معاصراً (لعلي بن الفضل) آخر القرن الثالث الهجري[1] إلا أنه لا ينسب قط إلى (جعفر الزيادي) .

ومادام قد ورد (علي بن الفضل) هنا فلا يفوتنا دليل آخر ، وهو أن المصادر المعاصرة والقريبة من هذه الحقبة التاريخية لم تذكر بني زياد في أحداث اجتياح (علي بن الفضل) لتهامة[2] . حيث أجمعوا كلهم على أن صاحب الأمر والنهي هناك هو (مظفر بن حاج) أحد قواد الخليفة العباسي المكتفي (٢٨٩ ـ ٢٩٥ هـ / ٩٠١ ـ ٩٠٧ م) وأخ أمير مكة (عج بن حاج) حيث تولى هذا عام ٢٨٨ هـ / ٩٠١ م إمرة مكة وضمَّ الخليفة إليه تهامة واليمن ، فما كان منه إلا أن عيَّن أخاه (مظفراً) على رأس قوة عسكرية على مناطق تهامة ، وأرسل رسائل إلى (ابن يعفر) لتجديد العهد للخليفة العباسي .. ولم يذكر ابن زياد[3] .

وأصبح (مظفر بن حاج) هو الذي يقود الأحداث حيث التحم مع الحكميين الذين بسطوا نفوذهم على زبيد واستعانوا بالهادي في صعدة ثم استعانوا (بآل يعفر) . وأخيراً وجدوا (القرامطة) عوناً لهم فاستعانوا بهم عندما تمكنوا من دخول زبيد عام ٢٩٣ هـ / ٩٠٦ م . وهكذا ظلَّ (مظفر بن حاج) معاصراً لهذه الأحداث إلى أن مات عام ٢٩٨ هـ / ٩١٠ م فخلفه ابنه محمد ، ولكنه سرعان

---

(١) الهمداني ، الإكليل ٩٣/٢ ، ٩٤ . نشوان الحميري ، ملوك حمير ١٦٧ . الخزرجي ، العسجد ٣٩

(٢) الطبري ، تاريخ ١٢٨/١٠ . عريب بن سعيد القرطبي ، صلة تاريخ الطبري ٢٠ (ملحق بتاريخ الطبري) . محمد بن عبد الملك الهمداني ، تكملة تاريخ الطبري ١٩٨ (ملحق بتاريخ الطبري) . ابن خلدون ، تاريخ ٧٥٢/٦ . الهمداني ، صفة ٣٢٣ . العلوي ، سيرة الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين ١٩٥ ـ ١٩٨ ، وإبراهيم بن محمد الذي ورد في السيرة هو (الحرملي) .

(٣) ابن الديبع ، قرة العيون ١٧٥/١

ما عاد إلى مكة فتولى إمرة تهامة (ملاحظ بن عبد الله الرومي) إلى أن مات عام ٣٠٣ هـ / ٩١٥ م فعيَّن خلفاً له (إبراهيم بن محمد الحرملي) أحد قواد سلطان مكة التابع للدولة العباسية[١] .

وتعاصرت مع هذه القيادة العباسية أكثر من قوة في تهامة منهم : (بنو طَرَف) من (الحكميين) في (عَثَّر) ومنهم : زعيم (بني مجيد) عبد الله بن أبي الغارات الذي حكم زبيداً خمسين يوماً ، وكان ممن وقف في وجه علي بن الفضل ولم يتمكن منه ، وانضم فيما بعد لأسعد بن أبي يعفر الحوالي للقضاء على (القرامطة)[٢] .

ومن عجائب المصادر التاريخية اليمنية أنها تأتي بالشيء ونقيضه ، فهي في بداية الأمر تراعي تسلسل الولاة العباسيين واحداً إثر الآخر حتى آخر واحد منهم المعروف (بجفتم) ، الذي تولى أمر اليمن في عهد الخليفة المعتضد (٢٧٩ ـ ٢٨٩ هـ / ٨٩٢ ـ ٩٠٠ م) ثم سرعان ما تنتقل إلى بداية القرن الثالث وتورد سرداً للقصص التي جاءت عن آل زياد بعبارة عمارة اليمني نفسه[٣] .

فيكون التناقض واضحاً ، والاضطراب متجلياً ، في صعوبة التوفيق بين التسليم بوجود ولاة عباسيين على اليمن ، ثم وجود (آل زياد) كممثلين فعليين للعباسيين كما جاء عند عمارة .

وتناقض آخر نلحظه من خلال كلام عمارة نفسه . فهو حينما يتحدث عن

---

(١) الطبري ، تاريخ ١٠/١٣٨ . العلوي ، سيرة الهادي ٢٣٣ ، ٢٩٥ ، ٣٩٢ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ . المحلي ، الحدائق الوردية في مناقب أئمة الزيدية ٢٥ . المقدسي ، أحسن التقاسيم ١٠٤

(٢) العلوي ، سيرة الهادي ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٤٠٣ . ابن حوقل ، صورة الأرض ٣٢ ، المقدسي ، أحسن التقاسيم ١٠٤ . الهمداني ، الإكليل ١/٢٢٩ ، ابن سمرة الجعدي ، طبقات فقهاء اليمن ١٠٥

(٣) خذ مثلاً على ذلك : الجندي ، السلوك ٥٩ وما بعدها .

(أبي الجيش) وأنه ظلّ في الملك ثمانين عاماً - أي من حوالي ٢٩٠ هـ / ٩٠٣ م - وأنه لما عجز تشعبت عنه الأطراف ومنها (صعدة) التي انفصل بها يحي بن الحسين ، فكيف يقال انفصل هذا بصعدة حينما كبر (أبو الجيش) ، بالرغم من أن ظهور الهادي ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م ووفاته ٢٩٧ هـ / ٩٠٩ م كان في وقت عنفوان شباب أبي الجيش وفي بداية ملكه حسب تحديدات عمارة !

☆ ☆ ☆

ونجمل ماسبق بأن الدلائل الكثيرة التي توصلنا إلينا سواء من خلال دراسة النص الذي جاء عند عمارة اليمني . أو من استقصاء ماورد في المصادر المعاصرة للأحداث أو القريبة منها - وهي مصادر موثوقة في علمها ونقلها - هذه الدلائل كلها تجبرنا على أن نلغي حوالي ثلاثة أرباع القرن من حياة دولة بني زياد كما رسمها لنا عمارة اليمني ، ولا نكون متجنيين عليه في هذا ، لأن الوثائق هي التي تكلمت وقادتنا إلى ذلك الحكم .. والوثائق - أيضاً - هي التي تعرفنا بالبداية الحقيقية لنشأة هذه الدولة ، لذلك لابد من إلقاء الضوء على هذه البداية من خلال المصادر نفسها .

لقد تأكد لنا أن (ال زياد) لم يكن لهم وجود سياسي في تهامة حتى انتهت قوة (الشراحيين) في عهد (المعتمد) العباسي ، أي على مطلع عام ٢٨٠ هـ / ٨٩٣ م ، وأن حضورهم الفعلي في مسرح الأحداث كان بعد عام ٣٠٤ هـ / ٩١٦ م عندما اشتركوا مع (الحواليين) للقضاء على (القرامطة) ، وهذا معناه أن الوجود السياسي لم يأت فجأة ، بل لابدّ أنه قد مرَّ بمراحل حتى وصلوا إلى المستوى الذي يخولهم للمواجهة السياسية مع القوى المحيطة بهم .

ولكن يبدو أن قوتهم ظلّت محدودة في إطار ضيق على أطراف (مخلاف جعفر) حتى عام ٢٩٢ هـ / ٩٠٥ م حينما دخل (علي بن الفضل) إلى

(المذيخرة) واستولى عليها ، وفي أثناء اكتساحه طرد (آل زياد) من أطراف هذا المخلاف[1] . والطرد هذا يأتي إما لكونهم يقطنون المخلاف ، فهربوا وأطلقوا على هذا (طرداً) ، وإما أنهم كانوا خارج المخلاف فاستولوا على جزء منه ، فلما جاء علي بن الفضل طردهم .

وظلَّ بنو زياد يضمرون العداء (لعلي بن الفضل) حتى جاء (أسعد بن أبي يعفر الحوالي) الذي قوي مركزه بالخلاص من منافسيه ، وبوفاة علي بن الفضل (٣٠٣ هـ / ٩١٥ م) ، وبدعم دولة الخلافة له اتخذ خطة لتجميع كل القوى التي تكن العداوة للقرامطة فراسلها فكان منهم قوة زياد بن محمد[2] .

ولا نشك في أن (زياد بن محمد) ـ وهو اسم جديد لم يرد في سلسلة (عمارة اليمني) ـ هو الذي نسبت إليه المجموعة التي طردها (علي بن الفضل) من أطراف (مخلاف جعفر) ، وربما كان (زياد) هذا يتزعم (بطن) من قبيلة استقرت في هذه المنطقة .

وربما كان المقدسي[3] على حق حينما نسب (آل زياد) إلى (همدان) ، وهذا نقيض ماقاله عمارة الذي نسبهم إلى (بني أمية) ، وإذا كان الهمداني لم يذكرهم في أنساب همدان ، فربما كان ذلك لأن الهمداني عاش بعيداً عنهم مشغولاً بمحنته التي عاشها بين صنعاء وصعدة وريدة . بينما المقدسي عاش عاماً كاملاً تحت حكمهم في زبيد وعدن وهو ثقة في نقله للمعلومات ، فلا يمنعنا مانع من قبول هذه النسبة . وإذا كان (زياد بن محمد) هو أول من نسبت إليه هذه الدولة ، فإن ابنه إبراهيم صاحب الفضل الأكبر لتوطيد سلطان آل زياد ، وقد وثقت السلطات العباسية

---

(١) الحمادي ، كشف أسرار الباطنية ٣٣ ، ١٤

(٢) الوصابي ، الاعتبار ٢٥

(٣) أحسن التقاسيم ١٠٤

علاقاتها بآل زياد بعد أن شاركوا في القضاء على دولة (القرامطة) في (المذيخرة) ، فأسند إبراهيم بن محمد الحرملي ـ أمير تهامة من قبل العباسيين ـ إمارة زبيد إلى إبراهيم بن زياد بن محمد . حتى أن المسعودي الذي دخل اليمن عام ٣٣٢ هـ / ٩٤٣ م عرَّف أمير زبيد إبراهيم بن زياد بأنه صاحب (الحرملي) ، وهذا يعني أن (الحرملي) هو صاحب السلطان وهو المشهور في تهامة وأن (ابن زياد) تابع للحرملي .

ومن هنا بدأ توطيد حكم آل زياد وأصبحت قوتهم ينظر لها ويحسب حسابها ، حتى أن الهمداني[1] كاتب إبراهيم بن محمد بن زياد لكي يتدخل لدى أسعد بن أبي يعفر الحوالي والناصر بن الهادي لإطلاقه من سجنه ، وربما أقدم على هذا لعلمه بأن علاقة ودّ وصداقة ومعاهدة تربط بين الأطراف الثلاثة[2] .

ويؤكد ماتوصلنا إليه من أن آل زياد لم يوجدوا إلا في مطلع القرن الرابع الهجري هو أن الوصابي[3] حدَّد مدة ملك آل زياد بمائة سنة وثلاث سنين ، وحدَّد نهاية حكمهم سنة ٤٠٧ هـ / ١٠١٦ م ، وهذا يعني أن بداية ملكهم الحقيقي كان عام ٣٠٤ هـ / ٩١٦ م وهي السنة التي برز إلى السطح (زياد بن محمد) حينما اشترك مع (أسعد الحوالي) ضدَّ (القرامطة) ، ومن ثم تلغى المائة الأولى (من ٢٠٣ هـ إلى ٣٠٤ هـ) ، ولا تدخل ضمن عمر الدولة الزيادية لأن الأحداث ـ بعد هذا التصحيح ـ يجلو عنها الغموض ، وينتفي عنها الاضطراب وتصبح متناسقة معقولة في ترتيبها الزمني ودورها الواقعي .



(١) الإكليل ٤٢٨/١

(٢) الحمادي ، كشف أسرار الباطنية ٢١٦

(٣) الاعتبار ٦٢ ، وكان قد ذكر في ص ٣٠ أن عمر الدولة ٢٦٣ سنة ، وأن نهايتها كانت في ٤٠٩ هـ وهذا باطل لأن بدايتها سيكون عام ١٤٦ . وهذا مالم يقله أحد ، وربما حصل تصحيف .

ولكن السؤال الذي ينبغي أن يستوقف الباحث هو : إذا كنا قد توصلنا إلى هذه الحقائق لكي نكوّن منها قناعاتنا ، فمن أين تسرب هذا اللبس إلى الأحداث التاريخية في كتاب عمارة اليمني ؟ وكيف اعتمد من جاء بعده على كتابه هذا ؟

إن الحقيقة التي لا مرية فيها أن البحث يوصل إلى مزيد من البحث ، ولقد أثارتني هذه الأحداث المتناقضة ، وظللت أرقب من يكتب عنها فوجدتهم - حسب علمي - لا يخرجون عن صنفين : صنف يتابع ما جاء عند عمارة - مدركاً أو غير مدرك للتناقض الواضح - أما الآخر وكان على رأسهم الأستاذ الفاضل / محمد بن علي الأكوع الذي أورد أحداثاً ترد على عمارة اليمني ، ولكنه اعتبر هذه من أوهام عمارة ، لأنه أملى الكتاب من حفظه ، وقد حرص الأستاذ / محمد علي الأكوع أن يؤكد على أن (أبا الجيش) شخصية خيالية بحجة أن هذه الكنية جاءت في بعض المصادر بلفظ (أبي الحسن) وربما - كما يقول الأكوع -[1] حصل تصحيف .

ولكن كاتب هذا البحث بعد عناء وحيرة توصل - وهذا فضل من الله سبحانه - إلى مكمن الداء الذي وقع فيه عمارة - بعد أن أثار الأستاذ الفاضل / محمد بن علي الأكوع الرغبة في البحث من خلال تعليقاته القيمة على كتاب عمارة - فقد وقع في يدي كتاب عرف بـ (صورة الأرض) لابن حوقل (ت ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م) الرحالة الجغرافي المشهور الذي أُغرم - بحكم مهنته كتاجر - برصد الجوانب المالية بصورة دقيقة .

لقد تحدث عن اليمن في الفترة ما بين ٣٣١ و ٣٦٧ هـ / ٩٤٢ و ٩٧٧ م وذكر ثلاث دول موجودة في تهامة أكبرها دولة بني زياد ، وكان المتولي لها خَلَف

---

(١) انظر : تعليقات الأكوع على كتاب المفيد . (تاريخ اليمن لعمارة) ٥٢ - ٥٤

(أبي الجيش) ، ثم حدَّد موانئها ومنافذ تجارتها ، وذكر دول الجبال ومنها (اليعفرية) و (الهادوية) .. فكانت هذه المعلومات من الأهمية بحيث تصبح مفتاحاً للمعلومات التي جاءت في المصادر الأخرى لأنه عاصر الأحداث وكتب ما كتب عن علم وبينة ، حتى أن تعبيره (خَلَف أبي الجيش) يدلّ على توزع السلطة بعد أبي الجيش .

ومنذ أول وهلة لفت انتباهي ذلك الشبه بين ما يقوله ابن حوقل وما قرأته عند عمارة اليمني فعدت لاهثاً إلى كتاب عمارة ، فأذهلني ما رأيت .. لقد وجدت العبارة نفسها عند الكاتبين .. وما دام عمارة متأخراً عن ابن حوقل فقد نقل عمارة ما جاء عند ابن حوقل نصاً وحرفاً ولم يكن يملي من حافظته ، ولكنه - وهذا هو المقتل - ربما كانت لديه بعض القصص عن بني زياد فوجد معلومات ابن حوقل فخلطها بها دون انتباه ولا وعي ، فظهرت تلك الصورة المضطربة لأنه لم يكتف بما جاء عند ابن حوقل الذي حدَّد معلوماته بحقبة زمنية محددة من القرن الرابع الهجري ، بل إن عمارة أخذ هذه المعلومات المتأخرة وجعلها لآل زياد في مطلع القرن الثالث الهجري وهنا كان الاضطراب .

ولكي يطلع القارئ على التشابه بين الكتابين أحيله إليهما وخذ مثلاً : ص ٣١ - ٣٣ ، ٤٣ من كتاب (صورة الأرض) لابن حوقل ، وص ٥٤ - ٥٩ من (تاريخ عمارة) فإن التشابه - عبارة وحرفاً وخطأ - لا يحوجنا هنا لذكر هذه النقليات .

ونكون بهذا قد رفعنا غشاوة سميكة عن تاريخ الدولة الزيادية ، وأزلنا لبساً أصاب الباحثين بالدوار والإحباط .. وأصبح تاريخ بني زياد في إطاره الصحيح وهو في حاجة الآن إلى تكوين وتجميع ، ولا شك أن كتاب عمارة نفسه سيفيدنا في هذا الجانب ، وخاصة حينما يحدثنا عن الإشراقات الحضارية في زبيد .

نخلص مما سبق إلى أن آل زياد يبدأ حكمهم بتولي زياد بن محمد الذي كان ينافس (المناخيين) في مخلاف جعفر أواخر القرن الثالث الهجري ، وقد خرجوا مطرودين في اتجاه زبيد ، ثم عادوا متعاونين مع تجمعات قبلية عديدة متحالفة ضدَّ القرامطة في المذيخرة ، وكان هذا في مطلع القرن الرابع الهجري .

ويبدو أن زياد بن محمد لم يطل عمره كثيراً فقد خلفه ابنة إبراهيم الذي عاصر محنة الهمداني ، وقد استعان به لإطلاق سراحه من سجنه[1] وكان هذا بين عامي ٣١٦ ، ٣٢٠ هـ/ ٩٢٨ ، ٩٣٢ م[2] .

وقد استمر حكم إبراهيم إلى ما بعد عام ٣٣٢ هـ/ ٩٤٣ م[3] فتبعه ابنه إسحاق الملقب بأبي الجيش ، الذي ذكرته بعض المصادر حاكماً لآل زياد عام ٣٥٢ هـ و ٣٥٦ هـ/ ٩٦٣ و ٩٦٧ م[4] ، وقد ظلَّ حاكماً إلى أن توفي قبل عام ٣٦٣ هـ/ ٩٧٣ م ، لأن ابن حوقل[5] حينما كان في اليمن عام ٣٦٠ هـ/ ٩٧٠ م تقريباً لم يخبرنا عن أبي الجيش ، ولكنه عمن خلفه ، وهذا خلاف ماذكره (عمارة)[6] من أن أبا الجيش توفي عام ٣٩١ هـ/ ١٠٠١ م ، ولم يذكر عمارة[7] سوى طفلاً اختلف في اسمه ليكون متولياً بعد أبيه وظلَّ بكفالة أخته وعبداً

---

(١) الهمداني ، الإكليل ١/٤٢٨

(٢) الهمداني ، المقالة الخامسة .

(٣) المسعودي ، مروج الذهب ٢/١٩

(٤) الخزرجي ، العسجد المسبوك ٤٦ . يحي بن الحسين ، أبناء الزمن (ق ٣٤) . مجهول ، تاريخ اليمن (ق ٩٩/ب) . الهمداني ، الصليحيون ٤٥

(٥) صورة الأرض ٣١ ، ٣٢ ويؤكد هذا ماذكره الأستاذ محمد علي الأكوع في هامش تاريخ اليمن ٦٧ ، ٦٨ بأن ابن جرير الصنعاني ذكر وفاة أبي الجيش في صبيحة الخامس والعشرين من ذي الحجة سنة ٣٦٢ هـ/ ٩٧٢ م .

(٦) تاريخ اليمن ٦٧ وجاء في نسخة أخرى من المخطوط توفي عام ٣٧١ هـ/ ٩٨١ م .

(٧) المصدر نفسه ٦٧ ، ٦٨

لأبيـه ، ولـذلـك اكتفى ابن حوقـل[1] بـإطـلاق تعبير (خَلَف أبي الجيش) دون تعيين . إلا أن هنـاك مـا يـدلّ على أن الـذي خلف أبـا الجيش هو أخـوه علي بن إبراهيم الذي ساعد قيس بن الضحاك الهمداني ضدَّ يوسف بن يحي بن النـاصر بن الهادي عام ٣٦٨ هـ / ٩٧٨ م[2] ، مقابل أن يخطب باسمه على منابر صنعاء[3] .

ولم يظهر بعد علي بن إبراهيم شخصية تمسـك مـا تبقى من حكم ال زيـاد بل وجـد طفل قيل هو لأبي الجيش ـ كما ذكره عمـارة وأشرنـا إليـه آنفـاً ـ ، وقيل هو لعلي بن إبراهيم ويسمى المظفر[4] ، وأيّاً كان الأمر فقـد أسنـد أمر هـذا الطفل أو ذاك إلى عبد من عبيدهم يعرف برشيد ، وما لبث أن هلك فتولى الأمر بعده عبـد له (أي عبد العبد) يعرف بالحسين بن سلامة[5] ، وهو الذي استطـاع أن يعيـد ذكر ابن زياد ، وقد اشْتُهِر وعلا صيتـه وكثرت أعمـالـه في كتب المؤرخين ، حتى غطى على كلّ أمراء آل زياد ونسبت إليه من الأعمال مـا يفوق مـا عمله آل زيـاد طوال حكمهم ، وسيأتي الحـديث عن بعض مـا فعلـه الحسين بن سلامـة في مـدينـة زبيد في البحث المخصص لهذه المدينة .

وحينما توفي الحسين بن سلامة في العقد الأول من القرن الخـامس الهجري[6]

---

(١) صورة الأرض ٣٢

(٢) مجهول ، تاريخ اليمن (ق ٩٧) .

(٣) المقدسي ، أحسن التقاسيم ١٠٤ . الخزرجي ، العسجد المسبوك ٤٦ ، ٤٧

(٤) يحي بن الحسين ، طبقات الزيدية الصغرى (ق ٤٨) .

(٥) عمارة ، تاريخ اليمن ٦٨ ، ٦٩ . الوصابي ، تاريخ وصـاب ٦٢ ، ٦٣ . الخزرجي ، العسجـد ٩٩ . يحي بن الحسين ، طبقات الزيدية (ق ٤٨) .

(٦) اختلفت الروايـات حول السنـة التي تـوفي فيهـا الحسين بن سـلامـة فعمارة (تـاريـخ اليمن ٧٠) حددها بـ ٤٠٢ هـ ، وابن الأثير (الكامل ٤٥٥/٩) حدّدها بـ ٤٢٨ هـ ، وبامخرمـة (تـاريـخ ثغر عدن ٥٩/٢ ـ ٦٢) اختار سنة ٤٢٦ هـ ، وقد رجح الأكوع هذا التاريخ كما ذكره في تعليقـه على كتـاب تـاريـخ اليمن لعمارة ص ٧١ ، وقـد اخترنـا العقـد الأول من القرن الخـامس الهجري لأن الدولة النجاحية بدأ حكمها عام ٤١٢ هـ / ١٠٢١ م .

لم يتسلم الحكم بعده أحد من بني زياد ، ولكن نقل إلى أسرة جديدة عرفت في تاريخ اليمن بأسرة بني نجاح ، فكان حكم الحسين بن سلامة بمثابة المرحلة الانتقالية بين حكم بني زياد وحكم بني نجاح .

المادة التاريخية لليمن عند الرحالة والجغرافيين حتى نهاية القرن الرابع الهجري[☆]

لم يحظ اليمن - كغيره من أمصار الأرض الإسلامية - بمؤرخ يدوّن ويسجل الأحداث التاريخية طوال القرون الثلاثة الأولى من الهجرة . وحينما أطلّ القرن الرابع الهجري بأحداثه ومعارفه لم نجد مؤرخاً متخصصاً نذر نفسه لكتابة تاريخ لليمن ، ولكننا وجدنا من يكتب في مجالين فقط :

المجال الأول : السير الشخصية لقادة الحركة الزيدية في اليمن كسيرة الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين (ت ٢٩٨ هـ / ٩١١ م) لعلي بن محمد بن عبيد الله (توفي في مطلع القرن الرابع الهجري)[١] ، وسيرة الناصر بن الهادي (٣٢٥ هـ / ٩٣٦ م) لعبد الله بن عمر الهمداني وهو كتاب لم يعد له وجود ، إلا أن بعض النقولات عنه وجدت في كتب متأخرة[٢] .

وقد ختم القرن الرابع بسيرة للمنصور القاسم بن علي العياني (ت ٣٩٣ هـ / ١٠٠٦ م) كتبها الحسن بن أحمد بن يعقوب[٣] .

(☆) بحث قدّم ضمن الندوة الثالثة التي عقدها قسم التاريخ ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة في الفترة من ٣ - ٥ أبريل ١٩٨٩ م ، وكان موضوعها : العرب وآسيا .

(١) حقّقها الدكتور سهيل زكار ، ونشرتها دار الفكر ، بيروت ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م .

(٢) انظر الدراسة التي قام بها صاحب هذا البحث عن الحياة العلمية في اليمن في القرنين الثالث والرابع للهجرة ٣٥٦ ، ٣٥٧ (رسالة دكتوراه في طريقها إلى النشر إن شاء الله) .

(٣) يحيى بن الحسين ، طبقات الزيدية الصغرى ٦٧ (مخطوط تحصلت على صورة منه) . بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ٨٥/٣

المجال الثاني : في الأنساب والمفاخرات . وقد تكفل بهذا أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني (ت ٣٥٠ أو ٣٦٠ هـ / ٩٦١ أو ٩٧١ م) الذي خاض معارك في المفاخرات ، وأعطانا معلومات تاريخية هامة ، ولكنها جاءت في معرض دفاعه عن قحطان وأنساب اليمن . ولا نستطيع التعميم فننكر كتابة تاريخية متخصصة للهمداني لعلَّ كتبه المفقودة كانت تفي بهذا الغرض[١] .

ومع هذا تتأكد لنا حقيقتان هامتان : الأولى : أن القرون الثلاثة الأولى لم نجد فيها مؤرخاً لليمن ، وإن كانت هناك إشارات في بعض الكتب المتأخرة في حاجة إلى دراسة حول كتابات قديمة مفقودة .

والثانية : أنه من بداية القرن الرابع الهجري ظهرت كتابة تاريخية من خلال السير الشخصية لأئمة الدولة الزيدية وكتب الأنساب التي ألفها الهمداني . ولهذا فإننا نحصل على نتف من المادة التاريخية لليمن المبعثرة في بطون كتب التاريخ العام ، بل وفي كتب أرّخت لأصقاع وأقاليم بعيدة عن اليمن كالعراق والشام ومصر والأندلس .

هذا الوضع يجعلنا نركض للبحث عن موارد لموادنا التاريخية لعلّنا نعثر على ما نبتغيه من هذه الموارد .

وإن أقرب هذه الموارد وأصدقها هي تلك الرحلات التي قام بها رحالة دوَّنوا ما لمسوه وشاهدوه وعرفوه في كتب خاصة بهم .. أو نُقِلَ عنهم مشافهة فدوِّنت بعد ذلك في كتب لاحقة .

هذا المورد الهام ينبغي ألا يغفل ، بل علينا أن نقتفي أثره ونكشف عن مكامنه ، ونستفيد من إشاراته ولمحاته ولفتاته ، بعد أن نحاول تلمس مناهج هؤلاء الرحالة في مادتهم التاريخية لنستفيد منها في استنباطاتنا واعتمادنا .

---

(١) راجع : الحياة العلمية في اليمن ٣٦٢ ـ ٣٦٨ هذا بالإضافة إلى كتاباته الجغرافية فهي تضم معلومات تاريخية كثيرة ودقيقة .

وإذا كنا سنواجه صعوبة وهي أن بعضاً من هؤلاء الذين كتبوا في هذا المجال لا يعرف عنهم أنهم رحلوا إلى اليمن أو دخلوا جزءاً من اليمن ، فكيف نأخذ عنهم هذه المعلومات التي دوِّنت عنها ؟ وهي صعوبة - ولا شك - تحتاج إلى تأنٍّ في الحكم ، وقد نجد لها حلاً ، وأقرب هذه الحلول الآن في هذه التقدمة : أن بعضاً من هؤلاء الكتاب يعتمد على مصادر في نقل معلوماتهم ، ونحن في أمس الحاجة إلى توثيق مصادرهم وتحديد مدى الاعتماد عليهم .

وهذا الذي سنقوم به من خلال هذا البحث ، حيث سنحاول استعراض الهدف من الكتابة عن الجغرافيين والرحالة ، ثم المنهج الذي اتبعوه أثناء كتابتهم ، مع البحث عن مصادرهم والتوثق منها ، ثم أخيراً نشير إلى أهمية هذه المادة والدعوة إلى دراستها .

☆ ☆ ☆

للوهلة الأولى ننبِّه إلى أن المؤلفين الذين سنتعرض لكتبهم يعيشون في حقبة واحدة هي بين آخر القرن الثالث وطوال القرن الرابع الهجريين ، ويسيرون في حلقة متعاقبة ومتعاصرة مع بعضهم .

فاليعقوبي (توفي بعد ٢٩٢ هـ / ٩٠٥ م) ، وابن رُسْتَه (توفي بعد ٣١٠ هـ / ١٩٢٢ م) ، وابن خرداذبه (ت ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م) ، وأبو الفرج قدامة بن جعفر (توفي بين ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م و ٣٣٧ هـ / ٩٤٨ م) عاصر بعضهم بعضاً .

وابن خرداذبه ، وقدامة وأبو زيد البلخي (ت ٣٢٢ هـ / ٩٣٤ م) ، والأصطخري (ت ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م) ، والمسعودي (ت ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م) ، وابن حوقل (توفي بعد ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م) عاشوا كلهم في عصر واحد وفي حقبة واحدة .

والأصطخري والمسعودي وابن حوقل والمقدسي (ت ٣٩٠ هـ / ١٠٠٠ م) عاصر بعضهم بعضاً .

هذه المعاصرة لها دور في تقارب الأفكار ، والاستفادة من بعضهم البعض ، وربما تبادل وعرض نتاجهم العلمي فيما بينهم .

وسنلحظ هذا في جوانب متعددة من هذه الدراسة .

فاليعقوبي أحمد بن إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح الكاتب اليعقوبي العباسي[1] في كتابه (البلدان) الذي نشر ملحقاً لكتاب الأعلاق النفيسة لابن رسته يعدّ مختصراً للبلدان كما يقول اليعقوبي نفسه[2] . وقد انتهى من تأليفه في حدود ٢٧٨ هـ / ٨٩١ م محدداً الهدف منه وهو الكتابة لموظفي الدولة ولمن يبغون معرفة البلدان والسفر إليها ، راسماً لهم لوحة عامة لها ، ملتزماً بتحديدها حسب الجهات الأصلية الأربع[3] ، وهي التي اعتمدها ابن خرداذبه أيضاً .

وأما أبو علي أحمد بن عمر بن رسته[4] فقد اشتهر بكتابه (الأعلاق النفيسة) الذي نشر الجزء الموجود منه ضمن مجموعة المكتبة الجغرافية عام ١٨٩٢ م على يد المستشرق الهولندي (دي خويه) . ولم يحدد هدفه في مقدمة كتابه ، لأن الجزء الموجود ليست له مقدمة ، ولكننا نلحظ هدفه من خلال المعلومات التي وردت في هذا الجزء . فكتابه عبارة عن موسوعة ضخمة ، وهذا الجزء الموجود هو الجزء

---

(١) إسماعيل باشا ، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون ٢١٩/٣ ، بروكلمان ، تاريخ ٢٣٦/٤ . كراتشكوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي ١٥٨ ـ ١٦١ ، الزركلي : خير الدين ، الأعلام ٩٠/١ ، وقد رجحنا تاريخ وفاته على ما جاء في كتاب البلدان ٣٧٢ من أنه نظم شعراً في عيد فطر عام ٢٩٢ هـ .

(٢) البلدان ٢٣٣

(٣) كراتشكوفسكي ، تاريخ ١٦٠/١ ، ١٦١

(٤) بروكلمان ، تاريخ ٢٣٩/٤ ، ٢٤٠ . كراتشكوفسكي ، تاريخ ١٦٤/١ ، ١٦٥ . أحمد عطية الله ، القاموس الإسلامي ٥٢٢/٢

السابع منها المخصص للفلك والجغرافيا[1] ، فهو يعرض للبلدان الكبيرة وخصّص من مدن اليمن : صنعاء ومدينة سبأ (مأرب) ، بالإضافة إلى معلومات فلكية في الأول ، ومعلومات ومعارف عامة في الآخر .

ويلوح لنا أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (وقيل أحمد) بن خرداذبه[2] الفارسي الأصل ، فمنذ أسلم جده على يد البرامكة أصبحت الأسرة مقرّبة إلى الخلفاء ، فوالده كان والياً على طبرستان[3] ، ثم صار هو أحد موظفي البريد في الدولة العباسية ، واشتهر بالأدب . وكتبه تتناول موضوعات أدبية ، وبدأت بالظهور والشهرة منذ عام ٢٧٤ هـ / ٩٢٢ م ، فقرّبه إليه الخليفة العباسي المعتمد على الله (٢٥٦ ـ ٢٧٩ هـ / ٨٨٠ ـ ٨٩٢ م) ، فكان نديماً له[4] . وفي هذه الأثناء طلب منه الخليفة تأليف كتابه (المسالك والممالك)[5] الذي نشر ضمن مجموعة المكتبة الجغرافية العربية على يد المستشرق الهولندي (دي خويه) عام ١٨٨٩ م[6] .

وبما أنه ألّف كتابه بناء على طلب من الخليفة ، فإن الهدف من تأليف الكتاب يكمن في تحقيق رغبة الدولة لمعرفة مسالك البلدان وطرقها ، لتحقيق

---

(١) كراتشكوفسكي ، تاريخ ١٦٤/١ . بروكلمان ، تاريخ ٢٤٠/٤

(٢) ابن النديم ، الفهرست ٢١٢ ، ٢١٣ . حاجي خليفة ، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ٢٧٨/١ و ١٦٦٥/٢ ، إسماعيل باشا البغدادي ، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين ٦٤٥/١ (ملحق بكشف الظنون) . الزركلي ، الأعلام ٣٤٣/٤ . وقد ضبط الاسم بضم الباء قبل الهاء ، وقيل بكسر الذال وتشديد الباء ، وقيل بسكون الذال وفتح الباء وسكون الهاء .

(٣) الطبري ، تاريخ الطبري ٥٥٦/٨

(٤) ابن النديم ، الفهرست ٢١٢

(٥) ص ٢

(٦) كراتشكوفسكي ، تاريخ ١٥٥/١ ، ١٥٦

أهداف الدولة ذاتها . ولم يكلّف بهذه المهمة إلا لمعرفة الخليفة بأنه أقدر على أدائها ، خاصة أنه كان أحد موظفي الدولة في مجال البريد .

وللغرض نفسه يؤلف أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي (توفي بين ٣١٠ و ٣٣٧ هـ / ٩٢٢ و ٩٤٨ م) كتابه (الخراج وصنعة الكتابة) بعد أن أسلم على يد الخليفة المكتفي بالله (٢٨٩ ـ ٢٩٥ هـ / ٩٠٢ ـ ٩٠٨ م) . وشهرته الأدبية أكبر من شهرته الجغرافية[١] . إذ لا شك أنه كتب هذا الكتاب باعتباره أحد أعضاء الجهاز الإداري للدولة ، ويظهر هذا من خلال اسم كتابه ، ومن استعراض ما وجد منه المنشور ضمن المجلد السادس من المكتبة الجغرافية ملحقاً بكتاب ابن خرداذبه ، فهو كتاب للموظفين وللخليفة أيضاً . وقد أمدنا قدامة نفسه في بداية النبذة الموجودة من كتابه ، والتي جاءت تحت عنوان (الباب الحادي عشر في ديوان البريد والسكك والطرق إلى نواحي المشرق والمغرب) حيث جعل يشرح أهمية هذا العلم ، وأطلق عليه (علم الطرق) ، وأن موظف البريد يجب عليه تعلم ذلك لكي يكون على استعداد لتقديم المشورة للخليفة إذا ما سأله عن الطريق لكي يسافر هو ، أو يرسل جيشاً يهمه[٢] .

ويتربع الأصطخري أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي[٣] عرش الجغرافيين في الثلث الأول من القرن الرابع الهجري . ولأنه كان تلميذاً لأبي زيد أحمد بن سهل البلخي (ت ٣٢٢ هـ / ٩٣٤ م) فقد عدّ بروكلمان[٤] كتاب (مسالك

---

(١) ابن النديم ، الفهرست ١٨٨ . ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ٢٩٧/٣ ، ٢٩٨ ، حاجي خليفة ، كشف الظنون ٥٩٢/١ و ١٩٧٣/٢ . إسماعيل باشا ، هدية العارفين ٨٣٥/١ . الزركلي ، الأعلام ٣١/٦ . بروكلمان ، تاريخ ٢٤٢/٤

(٢) الخراج ١٨٤

(٣) إسماعيل باشا ، هدية العارفين ٦/١ . وإيضاح المكنون ٤٧٣/٤ . الزركلي ، الأعلام ٥٨/١

(٤) تاريخ ٢٤٧/٤

الممالك) للأصطخري ماهو إلا أحد كتب أبي زيد البلخي ، وكان للأصطخري دور الصياغة فقط . وهي مبالغة واضحة . ولكن لا يمنع من أن نقول إنه اعتمد على كتابه اعتماداً كبيراً ، وربما عرض عليه عمله هذا[١] .

ويتضح الهدف من التأليف في مقدمة كتابه فهو يقصد التعريف « ببلاد الإسلام بتفصيل مدنها وتقسيم ما يعود بالأعمال المجموعة إليها »[٢] . وهو هدف - كما هو واضح - يرجع بالفائدة على المسلمين دولة وأفراداً ، حيث يساهم لسدّ جوانب النقص في الجانب الثقافي للدولة الإسلامية .

ويأتي ابن حوقل ، أبو القاسم محمد بن حوقل النصيبي[٣] بعد الأصطخري ويشتهر برحلاته وكتابه (صورة الأرض) الذي جعل بروكلمان[٤] أساس تأليفه هو كتاب البلخي (مسالك الممالك) الذي وضعه الأصطخري ، بينما ناشر كتاب صورة الأرض[٥] يقول : « اطلع ابن حوقل على كتاب مسالك الممالك لأبي إسحاق الفارسي المعروف بالأصطخري ، فكتبه من جديد محتفظاً بعنوانه ونسبه إلى نفسه » . وهو تعميم قريب من تعميم بروكلمان عن الأصطخري مع البلخي . ولأن كتاب الأخير ليس بين أيدينا فلا نستطيع المقارنة ، أما وكتاب ابن حوقل يزاحم كتاب الأصطخري في المكتبات فما علينا إلا أن نقارن بينهما لنخرج بحقيقة مفادها أن ابن حوقل اعتمد على كتاب الأصطخري حيث جعل هيكل كتابه هذا وترتيبه وقدراً كبيراً من المعلومات العامة أصلاً لكتابه (صورة الأرض) ، ثم عمد إلى بعض التعديل في الكلمات والحروف وأدوات الربط هنا

---

(١) كراتشكوفسكي ، تاريخ ١٩٩/١

(٢) مسالك الممالك ٢ ، ٣ ، ١٢

(٣) إسماعيل باشا ، هدية العارفين ٤٣/١ . الزركلي ، الأعلام ٣٤٤/٦

(٤) تاريخ ٢٤٧/٤

(٥) ص ٦

وهناك ، وتصرف بعد ذلك بما تفرد به من معلومات فأضافه في مكانه من هيكل كتاب الأصطخري . وكأنه تكفل بالتنقيح والإضافة لكتاب الأصطخري ليصبح كتاباً منسوباً إليه لأنه يريد كما جاء في مقدمة كتابه[١] أن يكون له الذكر الجميل في المجالس . وبالرغم من أهمية الجديد الذي أضافه ، إلا أنه عمل شائن ذلك الذي قام به ابن حوقل في كتاب الأصطخري ، وهو عمل يفسر لنا ذلك الحرص الذي أعلنه المسعودي في مقدمة ونهاية كتابه (مروج الذهب)[٢] ، فقد رفع عقيرته واستخدم أقصى أسلوبه الأدبي ، ليدعو على كل من يبدل أو يحرف جزءاً من كتابه .

والمسعودي أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي[٣] معاصر لابن حوقل عرف بكتابي : (مروج الذهب) ، و (التنبيه والإشراف)[٤] بالإضافة إلى أنه كان جغرافياً ورحالة ، حيث توسع في رحلاته حتى شملت ميداناً واسعاً قضى فيها خمساً وعشرين سنة متواصلة من عمره[٥] ، إلا أنه دخل اسمه في عداد المؤرخين لا الجغرافيين ولا الرحالة[٦] ، وأصبح الكتابان المذكوران الموجودان يمثلان شخصية المسعودي التاريخية . وهذا يعفينا من الوقوف عنده ، لأن المهتم بالجغرافيا هو الأولى بالرجوع إلى كتب المسعودي التاريخية ، يستقي منها متطلباته الجغرافية . أما المهتم بالتاريخ فكتب المسعودي جزء لا يتجزأ من مصادره الأصلية .

---

(١) ابن حوقل ، صورة الأرض ١٥

(٢) ١٨/١ و ٩٤/٤

(٣) السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى ٣٠٧/٢ ، حاجي خليفة ، كشف الظنون ٢٧/١ ، ٤٩٣ و ١٦٥٨/٢ . الزركلي ، الأعلام ٨٧/٥

(٤) حاجي خليفة ، كشف الظنون ٢٧/١ و ١٦٥٨/٢ ، ١٦٥٩

(٥) الخربوطلي ، المسعودي ٤٨

(٦) كراتشكوفسكي ، تاريخ ١٨٦/١

ويُختتم القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) بـ « أكبر جغرافي عرفته البشرية قاطبة ... فلم يسبقه شخص في اتساع مجال أسفاره وعمق ملاحظاته وإخضاعه المادة التي جمعها لصياغة منظمة »[1] . ذلكم هو محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء البشاري المقدسي[2] وكتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) وقد نشره (دي خويه) في القسم الثاني من المكتبة الجغرافية العربية عام ١٨٧٧ م ونشر مرة أخرى عام ١٩٠٦ م[3] .

ولا يهمنا هنا التوسع في ترجمته بالرغم من أنه يستحق الوقوف عنده كثيراً لوجود الكثير من الدراسات حوله[4] .

ويهمنا هنا أن نعرِّف بالهدف الذي كتب من أجله كتابه هذا ، فقد كان واضحاً أشدّ الوضوح ممن سبقه في تحديد الهدف حيث يقول : « وعلمت أنه باب لابدّ منه للمسافرين والتجار ، ولا غنى عنه للصالحين والأخيار ، إذ هو علم ترغب فيه الملوك والكبراء ، وتطلبه القضاة والفقهاء ، وتحبه العامة والرؤساء ، وينتفع به كل مسافر ويحظى به كل تاجر »[5] .

---

(١) كراتشكوفسكي ، تاريخ ٢٠٨/١ ، ٢٠٩ . هذه الكلمة نقلها عن : اشبرنرجر في دراسة عن المقدسي .

(٢) أفرد المقدسي وكتابه بدراسة علمية من قبل الباحث عدي يوسف مخلص تحت اسم : (المقدسي ، البشاري : حياته ، منهجه ، دراسة كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم من الناحية التاريخية ، طبع في النجف الأشرف ، العراق ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م) . بالإضافة إلى ما جاء عند إسماعيل باشا ، هدية العارفين ٦٢/١ ، ٦٣ . وحاجي خليفة ، كشف الظنون ١٦/١ . والزركلي ، الأعلام ٢٠٣/٦

(٣) بروكلمان ، تاريخ ٢٥٤/٤

(٤) حصل اختلاف في نسبته : إما المقدسي نسبه إلى البيت المُقَدَّس ، وإما المقدسي نسبة إلى بيت المَقْدِس (انظر كراتشكوفسكي ، تاريخ ٢٠٩/١ . بروكلمان ، تاريخ ٢٥٣/٤ هامش) .

(٥) أحسن التقاسيم ٢

لهذه الفئات كلها كتب كتابه الذي أنهاه سنة ١٣٧٥ هـ / ١٩٨٥ م[١] .

☆ ☆ ☆

ونستعرض معاً المنهج والأسلوب الذي اتبعه هؤلاء في كتبهم حسب التسلسل الزمني .

فاليعقوبي ـ الذي كتب كتابه لموظفي الدولة ـ يذكر أسماء البلدان والمسافة بينها ، ومن فتحها ، ومتى فتحت ، فيخص اليمن[٢] بذكر المراحل من مكة إلى صنعاء ، واصفاً هذه بأنها (المدينة العظمى التي ينزلها الولاة وأشراف العرب) ، ثم سرد المخاليف (الوحدات الإدارية) في اليمن والجزر اليمنية ، وبعض المدن الساحلية كعدن واصفاً لها بأنها (ساحل صنعاء وبها مرفأ مراكب الصين) .

وكان أسلوبه علمياً سهل المأخذ ، خالياً من العجائب والأساطير[٣] .

أما ابن رسته فهو يركز على المدن العظمى ، فيكتب عن مدينتين من اليمن فقط : صنعاء ، ومدينة سبأ (مأرب) . وإذا كان قد ذكر مدينة مأرب باقتضاب شديد مكتفياً بالروايات القديمة ، فقد أطنب في وصفه لمدينة صنعاء حيث تفرد بهذا الوصف بين جميع من كتب عنها وأصبح مشهوراً به إلى جوار وصفه لمدينة القسطنطينية[٤] .

وعلى خلاف ابن رسته فإن ابن خرداذبه الذي يؤلف للدولة يحدّد قبلة المسلمين ، وطرق البلاد الإسلامية ، والتقسيمات الإدارية ، والمحطات البريدية

---

(١) المصدر نفسه ٨ ، ٩ ، ٦٦ . قدّم المقدسي هذه النسخة إلى آل سامان ، ثم قدّم نسخة اخرى إلى الفاطميين بعد ثلاث سنين ، وهي النسخة التي رجع إليها ياقوت الحموي (انظر : كراتشكوفسكي ، تاريخ ٢٠٩/١) .

(٢) البلدان ٣١٧ ـ ٣٢٠

(٣) كراتشكوفسكي ، تاريخ ١٦١/١

(٤) الأعلاق النفيسة ١٠٩ ، ١١٩ . كراتشكوفسكي ، تاريخ ١٦٤/١

بدقة متناهية تدلّ على أنه ينقل من أوراق رسمية ، متطرقاً إلى بعض الأخبار القديمة[1] .

وشريكه في العمل قدامة بن جعفر يسير على المنوال نفسه ، فحدّد المسافات من مكة إلى صنعاء[2] ، مما يوحي بمعرفته الدقيقة بهذا الطريق ، لأنه يعلق قائلاً : « وهذا الطريق هو الذي عليه الأميال ، وهو طريق العوامل والعمال »[3] فهو يريد أن يعرفنا بأن هذا الطريق حددت سككه (محطاته) البريدية من قبل الدولة .

وهكذا يرسم بقية الطرق من مكة إلى كل من خولان وعمان ، ومن اليمامة إلى اليمن ، ثم يخصص باباً للخراج الذي يؤخذ من الأقاليم ويدخل اليمن ضمن ذلك ، واضعاً قوائم للخراج محدداً زمن أخذها بدقة .

وللأصطخري طريقته الخاصة حيث جعل ديار العرب أول الأقاليم الإسلامية العشرين التي يذكرها في كتابه ، وجاء ذكر اليمن في أكثر من موضع من الكتاب سواء منفرداً أو مندرجاً ضمن الحديث عن بلدان أخرى[4] .

ويركز حديثه عن اليمن مبتدءاً بتهامة دون استقصاء أو ترتيب ، بل ذكر المدن الكبيرة كصنعاء وصعدة ونجران والمذيخرة وعدن ، وكان يتعرض بين الحين والآخر لميزات بعض المدن ، والقوى السياسية المتحكمة فيها ، فأعطانا معلومات قيمة في هذا الشأن .

ولما كان ابن حوقل ناقلاً أميناً عن الأصطخري ، فلم يخرج عن ترتيبه

---

(١) المسالك والممالك ١٣٤ ـ ١٤٥

(٢) الخراج ١٨٧ ـ ١٩٠

(٣) المصدر نفسه ١٩٠

(٤) ورد الحديث عن بعض مناطق اليمن في كتاب مسالك الممالك في مواضع متناثرة بين ص ١٤ و ٣٥

البتة ، إلا أنه وضع خريطة بدائية للجزيرة العربية بيَّن فيها بعض المدن اليمنية الساحلية والداخلية ، ثم أعطانا معلومات غاية في الأهمية عن القوى السياسية الموجودة في اليمن المعاصرة له ومقدار ماتتحصله هذه القوى من الضرائب ، وهذا هو الشيء الذي تفرَّد به عن الأصطخري[1] . وكما فعل هذا فعل ابن حوقل في ذكر المسافات بين مناطق الجزيرة العربية .

وكان المقدسي تاجاً على رأس هؤلاء الجغرافيين لبلوغه غاية الدقة في طرحه لمنهجه وأسلوبه وطريقته في عرض المعلومات ، مبيناً هذا كله في المقدمة ، وملتزماً به في كل محتويات الكتاب ، حيث جعل الإقليم الأول ـ من الأقاليم الأربعة عشر التي احتواها كتابه ـ (جزيرة العرب) وقسمها إلى أربع كور ، وجعل اليمن كورة ، ثم قسمها إلى قسمين ، جعل كل قسم أربع نواحٍ ، ثم استعرض مدن كل ناحية ، ويستطرد لسرد المخاليف (الوحدات الإدارية) ، مبيناً قربها أو بعدها من المدن الكبرى لليمن .

ويلاحظ أنه لا يفرد اليمن بعنوان مستقل ، ولكنه دمجها تحت عنوان : الجزيرة العربية ، فقد أنشأ عناوين صغيرة للإقليم مثل وصف المدن ، المذاهب ، التجارات ، المياه ، الأخلاق ... إلخ . ويتحدث عن اليمن كجزء من موضوع تلك العناوين[2] .

وله منهجه الدقيق الذي رسمه في مقدمته محدداً المصطلحات والمختصرات ، وكيفية تعامله مع المصادر ، وعدم بخس الآخرين ولا السرقة من تصانيفهم[3] .

وربما استخدم السجع ليرضي بعض الناس ، ويعلن هذا صراحة « لأن الأدباء

---

(١) صورة الأرض ٣١ ـ ٣٥

(٢) أحسن التقاسيم ٨٤ ـ ١١٢ ، الكورة : مصطلح إداري يفيد الصَّقع أو الناحية الكبيرة . (المعجم الوسيط ٥١٨ ، ٨٠٤) .

(٣) المصدر نفسه ٦ ـ ٨

يختارون النثر على النظم ، والعوام يحبون القوافي والسجع »[١] .

ولا يضفي الألقاب والتبجيل والتفخيم على من يرد في كتابه[٢] .

ولقد وجه نقداً لاذعاً إلى من سبقه من الكتاب كالبلخي وابن الفقيه والجاحظ وابن خرداذبه ، مصوراً نفسه بطلاً مدعياً ادعاءات عريضة في بعض الأحيان ، مع إنصاف للبعض ممن سبقه[٣] ، متميزاً بحساسية مرهفة حيث كان يتلمس أي نقد قد يوجه إليه ، فيطرحه للمناقشة والردّ والتمحيص[٤] .

☆ ☆ ☆

إن أهم قضية في موضوعنا هذا هي معرفة مصادر الرحالة الجغرافيين ، ويمكننا أن نصنف هؤلاء الرحالة ـ من حيث استفادتهم من المصادر بصورة تقريبية ـ إلى مجموعات أربع :

المجموعة الأولى : ابن رسته ، اليعقوبي ، المسعودي .

المجموعة الثانية : ابن خرداذبه ، قدامة بن جعفر .

المجموعة الثالثة : البلخي ، الأصطخري ، ابن حوقل .

المجموعة الرابعة : المقدسي .

كل مجموعة تشترك مع الأخرى بنوع من المصادر ، وتفترق عنها بنوع آخر . ونستطيع أن نتتبعها من خلال تقسيمها إلى أربعة أنواع :

النوع الأول : كتب علماء اللغة والأدب التي دوّنت من خلال تتبعهم لمادة اللغة العربية . فقد تطرقوا إلى جوانب عدّة من تصاريف ومسميات اللغة ، وكان

---

(١) المصدر نفسه ٥

(٢) المصدر نفسه ٨ ، ٦٥

(٣) المقدسي ، أحسن التقاسيم ٣ ـ ٦ ، ٤٣

(٤) المصدر نفسه ٦٨

همّهم الأول إثبات هذه المسميات في كتبهم ، ومنها مسميات البلدان وأوصافها ، ولا نبالغ إن وافقنا كراتشكوفسكي في قوله : « إن الجغرافيا الوصفية التي يستفاد منها تاريخياً بصورة مباشرة نشأت أول مانشأت على يد اللغويين »[(١)] .

ولذا فقد صنفوا كتباً خاصة بوصف البلدان ، ولو راجعنا بعض ماجاء عن اللغويين في كتاب ابن النديم[(٢)] لوجدنا مسميات جغرافية كثيرة ، حرص اللغويون على إثباتها ، واستفاد من ذلك المتأخرون أمثال ياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م)[(٣)] . وهؤلاء اللغويون هم رحالة بكل ماتعنيه هذه الكلمة .

هذا النوع من المصادر يجمع بين الأدب واللغة ، والجغرافيا والتاريخ ، ولا نتردد في القول بأن من جاء بعدهم استفاد منه سواء من المؤرخين أو الأدباء أو الجغرافيين .

وبما أننا لا نملك الوصول إلى هذه الكتابات لانعدامها حتى نقارن بينها وبين ماكتب بعدهم إلا أن اليقين يظلّ يحوم حولنا لأن كُتّاب القرنين الثالث والرابع الهجريين استفادوا استفادة مباشرة جمّة من الكتابات اللغوية . ويزداد هذا الأمر يقيناً بمعرفتنا أن بعض الجغرافيين كانوا في الأصل أدباء ولهم مؤلفات أدبية ولغوية[(٤)] .

فاليعقوبي اعتمد « على مصادر أدبية ومعلومات ذكرها الرحالون »[(٥)] .

---

(١) تاريخ ١/١٢٤

(٢) الفهرست ٧٧ ، ٨٢ ، ١٤٢ . كتب النظر بن شميل (ت ٢٠٣ هـ / ٨١٩ م) كتاب الصفات ، وهشام الكلبي (ت ٢٠٦ هـ / ٨٢١ م) كتاب البلدان ، والأصمعي (ت ٢١٦ هـ / ٨٣١ م) كتاب جزيرة العرب ... إلخ .

(٣) معجم البلدان ١/١١ كالأصمعي .

(٤) ابن النديم ، الفهرست ٢١٢ ، ٢١٣

(٥) بروكلمان ، تاريخ ٤/٢٣٧

ويظهر أثر هذا النوع من المصادر لدى ابن رُسْتَة بوضوح حيث أنه وصف مدينة صنعاء وصف المشاهد لها ، أو نقل عمن وصفها بالمشاهدة لأن الشكوك تراودنا حول وصوله إلى اليمن كما سيأتي لاحقاً .

ولأن ابن خرداذبه وقدامة بن جعفر برعا في التصانيف الأدبية فلا ريب من اطلاعهما على الكتب التي صنفها اللغويون حول البلدان ، ومن ثم فلا بدَّ من أن يتأثرا بها ويأخذا جزءاً منها بالرغم من اعتمادهما الأكبر على الوثائق الرسمية ، كما سيتقرر هذا فيما بعد .

ولقد اشترك كل من الأصطخري وابن حوقل في معلوماتهما ومصادرهما حيث نلحظ هذا - عند حديثهما عن اليمن - من خلال الصيغ التعبيرية التي وردت في كتابيهما . فكلمة (بلغني) تكررت عند الأصطخري خمس مرات[1] ، وتكررت عند ابن حوقل أربع مرات ، وفي المواضع نفسها[2] .

وذكر كل منهما كلمة (يحكى) مرة واحدة في الموضع ذاته[3] .

وكما هو معروف أن ابن حوقل كان ناقلاً أميناً عن الأصطخري فيكون هذا هو الذي استقى معلوماته عن طريق الإبلاغ أو الحكاية . وربما وجد ذلك في كتب علماء اللغة ، وربما سمعها من غيرهم .

ويظلّ المقدسي متفرداً - بحق - على الجميع . فعرف كيف يستخدم معلوماته ومعارفه وذكاءه . ولا تنقصه الخبرة اللغوية في استخدام الأسلوب الأمثل ، ولا يعوزه الذكاء الذي وظّفه لانتقاء معلوماته ببراعة ، محدداً مصادره بدقة متناهية ، ناقداً للناقص ، مشيداً بالمفيد ، منصفاً للجميع .

---

(١) مسالك الممالك ٢٥ ، ٢٦

(٢) صورة الأرض ٤٣ ، ٤٥

(٣) مسالك الممالك ٢٦ . صورة الأرض ٤٥

فهو في مقدمة كتابه (أحسن التقاسيم) يرسم معالم منهجه وطريقته في التعامل مع المصادر ، فانتقد ضمن من انتقد الجاحظ[١] وهو أحد علماء اللغة والأدب ، وهذا يعني أنه رجع إلى مصادر لغوية وأدبية ، ولم نجد أصرح منه وهو يعبّر عن هذا الرأي وأنه رجع إلى « ماوجدناه في الكتب المصنفة في هذا الباب وغيره »[٢] وبالبداهة أن من ضمن هذه الكتب المصنفة كتب أهل اللغة والأدب .

النوع الثاني : الإسناد إلى مصادر سابقة سواء أكانت روايات مسندة إلى قائلها أم إلى مصادر مكتوبة مؤلفة من قبل مؤلفين سابقين لهم في هذا المجال ، أو سماع من أهل البلد التي دخلوها أو سألوا أهلها عن بلادهم في مناطق أخرى .

فالروايات المسندة ، غالباً ماتنقل عن الأخباريين صحيحها وسقيمها على السواء ، والرحالة سمعوا بعض تلك الروايات التي أصبحت جزءاً من التراث الشعبي عند الناس .

ومن هذا القبيل ماأشار إليه اليعقوبي[٣] بكلمة (زعموا) ، وابن رسته[٤] بكلمة (ذكر أهلها) أو (يزعم أهل سبأ) .

وقد تستقى المعلومات عبر الروايات المسندة إلى قائلها كما فعل ابن رسته[٥] .

أما الأصطخري وابن حوقل فقد ابتعدا عن هذه الأخبار كثيراً إلا في النادر حينما ذكر ابن حوقل[٦] أخباراً يمنية قديمة .

---

(١) أحسن التقاسيم ٣ ـ ٥

(٢) أحسن التقاسيم ٤٣

(٣) البلدان ٣٦٦

(٤) الأعلاق النفيسة ١١١

(٥) المصدر نفسه ١١٠ ، ١٤٤ ، ١٤٥ . انظر : الهمداني ، الإكليل ٢٤/٨ ، ٢٥ ، تحقيق / نبيه أمين فارس .

(٦) صورة الأرض ٣١

إلا أن كلمة (زعموا) و (يحكى) تكررت عند كل منهما في مواضع واحدة ، وهو دليل على أن الأخير نقل عن الأول ، وأن هذه المعلومات أسندوها إلى مجهولين ، وخاصة كلمة (يحكى) التي أوردها الأصطخري[1] عند رواية الأساطير مؤكداً على أنه « لا يستجيز حكايتها » .

ولا يخفى أن المقدسي[2] قد وضح طريقة تعامله مع المصادر ، فالخبر الذي لم يقبله أسنده إلى صاحبه أو يقول : « زعموا » .

وكانت كتب من نتحدث عنهم مصادر أيضاً للمعلومات ، فالمتقدم كان مصدراً للمتأخر . ولا نعدو الحقيقة إن وافقنا كراتشكوفسكي[3] حينما يؤكد على أن قدامة واليعقوبي وابن رُسْتَه والأصطخري وابن حوقل والمقدسي والمسعودي تأثروا بابن خرداذبه .

واستقى ابن حوقل[4] معلومات عن قدامة بن جعفر ، ويؤكد الخربوطلي[5] على أن ابن حوقل تأثر بالمسعودي ، ولم يبيّن مصدره إلا أنه احتمال قوي ، لأن ابن حوقل بدأ رحلته في الوقت الذي كان المسعودي قد ألقى عصا الترحال بعد عناء ومشاق .

وكعادة المقدسي فقد وضع هذه العبارة وهو يحدد مصادره : « ماوجدناه في الكتب المصنفة في هذا الباب وفي غيره ، وما بقيت خزانة ملك إلا وقد لزمتها ،

---

(١) مسالك الممالك ٢٦

(٢) أحسن التقاسيم ٣ ، ٨

(٣) تاريخ ١٥٨/١

(٤) صورة الأرض ٧ . كتب أحد المعلقين على المخطوطة وهو أبو القاسم محمد الحوقلي البغدادي ـ وكأنه من ورثة ابن حوقل ـ بأن من مصادر ابن حوقل : ابن خرداذبه وقدامة بن جعفر .

(٥) المسعودي ٤٩

ولا تصانيف إلا وقد تصفحتها ، ولا مذهب قوم إلا وقد عرفتها »[1] . ورجع إلى مصادر حددها في مقدمته منها : كتاب ابن خرداذبه وقدامة بن جعفر[2] .

ومع هذا نجده يأخذ معلومات عن مخاليف اليمن من كتاب ابن خرداذبه دون الإشارة إليه[3] . ولكن هذا وفق شرطه الذي يحدده بقوله : « وحكينا ماسمعناه فما صحَّ عندنا بالمعاينة وأخبار التواتر أرسلنا به القول ، وما شككنا فيه أو كان من طريق الآحاد أسندناه إلى الذي منه سمعناه »[4] .

وسار المقدسي ملتزماً بهذه الطريقة ، ولم يحد عنها ، فهو يسترسل في سرد المعلومات دون إشارة إلى مصدره ، وإذا ماشك أسند : إما سماعاً وإما إسناد رواية وإما إلى مصنف سبقه .

النوع الثالث : الوثائق الرسمية التي كانت في دواوين الدولة سواء ما يخصّ الأمور الإدارية أو المالية أو السياسية .

فالجهاز الإداري للبريد « خضع لتنظيم جيد في العهد الأموي ، واستدعى إعداد رسوم تخطيطية لمختلف الطرق ... ومثل هذه الرسوم قد وجد بلا ريب في دواوين الحكومة ، واستغلها بعض مؤلفي العصر العباسي في وضع مؤلفات في هذا الميدان وصلت إلينا »[5] .

هذا إلى جانب دواوين الخراج التي تضم العديد من الوثائق المالية ودواوين الجند وكثير من الدواوين التي أنشئت في العهد الأموي والعهد العباسي الأول .

---

(١) أحسن التقاسيم ٤٣

(٢) المصدر نفسه ١٠٥ . وانظر : ابن خرداذبه ، المسالك والممالك ١٣٦ ـ ١٤٣

(٣) أحسن التقاسيم ٨٨

(٤) المصدر نفسه ٨

(٥) كراتشكوفسكي ، تاريخ ٦١/١

هذه الأجهزة الحكومية لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تكون خالية من الوثائق الرسمية ، ولا يمكن أيضاً تصور أن المؤلفين لم يستفيدوا منها ، خاصة أن بعضهم إما أنه كان موظفاً في الدولة كاليعقوبي وابن خرداذبه وقدامة ، وإما كان على صلة بالدولة وموظفيها ، وتمكن من الاطلاع على وثائق محفوظة لديهم مثل ابن حوقل والمقدسي .

فاليعقوبي ـ الكاتب الذي عاش مع جده وأبيه وكانا من كبار عمال البريد[1] ـ وابن خرداذبه ـ الذي كان أبوه أميراً من أمراء الدولة العباسية ـ يتشابه نقلهما فيما يخص مخاليف اليمن . صحيح ليس مرتباً ترتيباً واحداً عندهما ، ولا يلتقيان في زيادة المعلومات التي جاءت عند ابن خرداذبه على غير ما هو عند اليعقوبي ، إلا أن هذا التشابه يشي بأنهما رجعا إلى مصدر واحد في هذه المعلومات ، ولا يخرج هذا المصدر عن الوثائق الرسمية ، لأن كلاً منهما كان موظفاً في الدولة ، بل إن وظيفة ابن خرداذبه كانت وظيفة هامة ودقيقة ، كونه تولى أمر البريد الذي كان يخشاه الولاة والعمال ، لارتباطه مباشرة بالخليفة ، وكانت من مهماته تتبع أخبار الولاة وإيصالها إلى الخليفة[2] .

فمن أين له[3] مثلاً : معرفة السكك (المحطات) البريدية في اليمن التي وصل عددها إلى ثمانين محطة بريدية ؟

ومن أين له[4] أن يعرف الميزانية المرصودة لتحسين مستوى أداء البريد والإنفاق على كل ما يؤدي هذه المهمة على الوجه المطلوب ؟

---

(١) كراتشكوفسكي ، تاريخ ١/١٥٨ ، ١٥٩

(٢) حسن إبراهيم حسن ، النظم الإسلامية ٢٢٦ ، ٢٢٧

(٣) المسالك والممالك ١٤٣

(٤) المصدر نفسه ١٥٣

ومن أين لقدامة[1] أن يعرف ويدوّن في كتابه تلك القوائم المالية الدقيقة التي وردت بصورة منظمة تحتوي على العديد من الأنواع والأموال الواردة إلى خزينة الدولة ؟

من أين لهما ذلك إن لم يكن مصدرهما هو الوثائق الرسمية الحكومية ؟

ولقد أشار قدامة[2] مرة إلى كلمة (الدواوين بالْحَضْرة) أي في حضرة الخلافة ، وأنه رجع إليها ليأخذ منها بياناً بما ارتفع من الخراج من أراضي الدولة .

وكذلك ابن حوقل[3] الذي أوصل إلينا بياناً بالواردات المالية للقوى السياسية التي تتحكم في اليمن في الثلث الثاني من القرن الرابع الهجري .

ولم يفرّ من هذا المقدسي أيضاً ، فهو يعدد أنواعاً من الضرائب والمكوس ومقدار ما يؤخذ من كل نوع من أنواع السلع الداخلة إلى زبيد وعدن وغيرهما ، وربما استقى هذه المعلومات من ملاحظاته الشخصية ، أو استفساره من التجار . ومع هذا فهو يريحنا بالاعتراف بقوله : « وشحنته ـ أي كتابه ـ بفصول وجدتها في خزائن الملوك »[4] .

وهكذا نستطيع أن نقرر أن الوثائق الرسمية سواء المحفوظة في دواوين الدول الإسلامية أو المحفوظة لدى رجال هذه الدول كانت مورداً غزيراً لكلٍّ من صنَّف في هذا المجال .

النوع الرابع : الرؤية والمشاهدة ، ويظهر هذا المصدر عند المقدسي بصورة صريحة ، وعند ابن حوقل بقرائن مقنعة ، وعند ابن رسته بتلميحات واضحة .

---

(١) الخراج ٢٣٦ ـ ٢٥٢

(٢) الخراج ٢٣٦ ، ٢٣٧

(٣) صورة الأرض ٣١ ـ ٣٥

(٤) أحسن التقاسيم ٣٠ ، ٤٣

أما البقية فإن الأمل ضعيف في أن نجد دلائل أو قرائن تدلّ على وصولهم اليمن أو أنهم وصفوا ما شاهدوه .

فاليعقوبي[1] يريحنا من أول وهلة ، إذ يخبرنا أنه كان يدوّن المعلومات التي يتلقاها من سكان أهل البلدان ، وأنه سأل خلقاً كثيراً ، وعالماً من الناس عن كلّ شيء في أقاليمهم في الموسم وغير الموسم ، وقد جمع هذه المعلومات ليخرج كتابه (البلدان) .

إن تصريحه هذا يرفع عنا الكلفة ، إذا ما جزمنا بأنه لم يدخل اليمن وإنما سمع أخبارها عن أهلها القادمين إلى مواسم الحج ، بالإضافة إلى الوثائق الحكومية والمصادر التي سبقته كما بيناه آنفاً .

أما ابن رُسْته فإنه يوقعنا في حيرة ، فهو من ناحية لا يقول ولا يأتي بأي عبارة تدل على دخوله مدينة صنعاء .

ومن ناحية أخرى يرى القارئ وصف ابن رُسْته لمدينة صنعاء وكأنه رآها رأي العين ، ولذا فهو يكتب ما رآه . يصف وصف الواثق الناقد الذواقة الذي لا يكتفي بالكلمات الباردة ، بل سرعان ما يشدّ القارئ بتذوقاته وأسلوبه وأحاسيسه ، دون أن تلمس إشارة إلى أنه رأى هذا الشيء أو لمسه أو قرأه أو سمعه من غيره ، بل إن القارئ يلحظ كأن الرجل يسير في طرقات المدينة يصف هذا ويشرح ذاك ، وإذا ما اعترضته معلومة قديمة ينسبها إلى (فقهاء تلك الناحية) أو (فقيه منهم) دون تحديد اسم لهذا أو ذاك . وربما يترجح لدينا دخوله صنعاء فعلاً ، على عكس بقية اليمن . لأنه مثلاً حين يتحدث عن (شبام) يأتي بكلمة (زُعِمَ) المبنية للمجهول ، أو عن (مأرب) يقول : « ذكر أهل سبأ »[2] ، أما

(١) البلدان ٢٣٢ ، ٢٣٣

(٢) الأعلاق النفيسة ١١١ ، ١١٣ . شِبام : - بكسر الشين - وهي شبام كوكبان وتقع في الغرب الشمالي من صنعاء (الحجري ، مجموع بلدان اليمن ٤٤١/٣) .

صنعاء فهو يصفها وصف الواثق الرائي اللامس المعايش . مما يدلّ على أنه دخلها أو أنه نقل عن مصدر آخر فيه كل هذا الوصف . إلا أنه كما صرح كان في مكة عام ٢٩٠ هـ / ٩٠٣ م[١] فليس ببعيد أن يكون رحل إلى اليمن ، وهذا تقليد مألوف عند المسلمين في مثل هذا العصر ، فما بالنا بابن رسته صاحب دائرة المعارف الموسعة (الأعلاق النفيسة) .

ويؤكد احتمال دخوله صنعاء أنه قارن بين وادي السرار (السائلة)[٢] - الذي يشق مدينة صنعاء - بنهر دجلة لتوسطه المدينة ، ومما لا ريب فيه أنه رأى نهر دجلة ، ولذا جعله مشبهاً به لشيء رآه فتواردت إليه صورة ذلك النهر .

بالإضافة إلى هذا ، أن المعلومات التي أوردها عن بني يعفر وسور صنعاء معلومات معاصرة لمسها الكاتب بنفسه .

وأشير أخيراً إلى مرجح آخر لدخوله صنعاء ، وهو أن الرحالة المسلمين في هذه الحقبة لم تكن عندهم الرغبة في الإشادة بأنفسهم ، فلم يرددوا كلمات (رأيت هذا ، شاهدت كذا ، تفحصت كذا ، عملت كذا) لأنهم كانوا مشغولين بتدوين ما يرونه ووصفه وصفاً مجرداً ، فابن رسته هذا بالتأكيد دخل مكة والمدينة ووصف الحرمين الشريفين وصفاً في غاية الدقة ، ومع هذا لم يشر إلى نفسه بشيء ، وهذا هو نفسه الذي فعله في وصفه لمدينة صنعاء .

أما ابن خرداذبه ، فإن الغالب أنه تولى مناصب إدارية مالية وبريدية في مقتبل عمره ، واتجهت رغبته حول الأدب ، ثم أصبح مشهوراً في هذا الجانب ، وقرّبه الخلفاء العباسيين إليهم ، وطلب منه أحدهم أن يؤلف كتابه (المسالك

---

(١) المصدر نفسه ٧٣ ، ٧٥

(٢) سائلة صنعاء : واد يشق مدينة صنعاء وتنفذ إلى شعوب ، وفيها تمرّ مياه الأمطار النازلة من بلاد سنحان وما إليها (الحجري) ، مجموع بلدان اليمن وقبائلها ٤١٣/٣

والمالك) ، وهذا كله يدلّ دلالة كاملة على أنه لم يدخل اليمن ، ومن ثم فمعلوماته استقاها من مصادر أخرى غير المشاهدة وهو نفسه لم يَدَّعِ هذا في كتابه .

ويشبهه في هذا الاتجاه قدامة بن جعفر فهو أديب أولاً ، وكاتب في الخراج والبريد ، أو كل ما يهم موظفي دواوين الدولة وأهمهم أصحاب البريد وأصحاب الخراج ثانياً . ولخبرته في هذا المجال أراد أن يقدم حصيلة هذه الخبرة لمن بعده ، ولم يزعم لنفسه الرحلة والتجوال والوصول إلى الأصقاع البعيدة ومنها اليمن[1] .

وإذا لم يكن للثنائي الإداري وصول إلى اليمن ، فإن الثنائي الجغرافي (الأصطخري وابن حوقل) يتشابه مع الثنائي الأول ، إلا أننا يمكننا التفريق بين الأصطخري وابن حوقل ، فالأول كان مؤلفاً مكتبياً فما قرأه أو سمعه صاغه بعبارته ليخرج كتاباً وهذا هو دوره فقط .

أما ابن حوقل فقد ندمغه بهذا الحكم للفعل الذي قام به وهو استعارة المادة العلمية عند الأصطخري لباً وقالباً ونصاً وحرفاً ، ولكن الذي يكبح جماحنا عن هذا الحكم تلك الإضافات الهامة التي وردت في كتابه عن الأحوال المالية في اليمن[2] . وقد افترضنا آنفاً بأنه ربما تحصل على ذلك من خلال صلاته بالدول وموظفيها .

وما دام ابن حوقل قد طاف البلدان حوالي ثلاثين عاماً ، فلا نشك في وصوله إلى مكة ، وما دام أيضاً قد أتحفنا بمعلومات عن دول محلية يمنية ، فإن الغالب أن يكون قد وصل إلى اليمن وخاصة مدينة (زبيد) المقر الحضاري لليمن في تلك الحقبة .

---

(١) ابن النديم ، الفهرست ٢١٢

(٢) ابن حوقل ، صورة الأرض ٣١ ـ ٣٥

والمقدسي يأتي ـ غالباً ـ كمسك الختام ، فيكرر في مقدمة كتابه[1] ما يدل على المشاهدة والرؤية مثل : « وقد ذكرنا ما رأينا » ، « فما صحَّ عندنا بالمعاينة » ، « وما لم يكن لي بدّ من الوصول إليه والوقوف عليه قصدته » ، « فانتظم كتابنا هذا ثلاثة أقسام : أحدها ماعايناه .. » إن هذا يكفينا دليلاً ، فما بالنا إذا ماصرح المقدسي بأنه أقام في اليمن عاماً كاملاً[2] . ويكرِّر القول أكثر من مرَّة بأنه يصف ماشاهده وعاينه من اليمن ، ويعترف أيضاً معتذراً عن عدم دخوله بعض البلدان اليمنية ، وأنه سيثبت ماسمعه من أهل الخبرة عنها »[3] .

☆ ☆ ☆

إن الاستطراد الذي ملأ الصفحات السابقة يدعونا لوقفة استراحة بعد اللهاث الطويل ، وفي حال استراحتنا هذه نتساءل : ترى هل استفاد المؤرخون من المعلومات التي وردت في كتب الجغرافيين والرحالة ؟

الإجابة على هذا التساؤل تزعج وقفة استراحتنا هذه ، ولكن لا بدَّ مما ليس منه بد .

إن من الواضح أن كتب الجغرافيا الوصفية والرحلات تحتوي على معلومات حضارية [اجتماع ، اقتصاد ، إدارة ، فكر] ومن الواضح أيضاً أن كتب التاريخ الإسلامي ينصب اهتمامها على الجوانب السياسية والعسكرية بوجه خاص . ومن ثم فما الذي يدعوهم إلى الاستمداد من كتب الجغرافيين والرحالة ؟ فلا هم يستعرضون المظاهر الحضارية المختلفة ، ولا يميلون إلى دراسة المجتمعات لأنهم ينظرون إلى الأحداث الكبيرة ـ في حسهم ـ الظاهرة للعيان التي تؤثر في

---

(١) أحسن التقاسيم ٣ ، ٨ ، ٤٣

(٢) أحسن التقاسيم ٨٨

(٣) المصدر نفسه ٨٦ ، ٨٨

الأوضاع السياسية والعسكرية ، ولا يرغبون في دراسة (البنية التحتيـة) كما يعبر عنها أصحاب علم الاجتماع . لا يعملون على دراسة عوامل الصعود وعوامل الانحدار في المجتمع من خلال النظرة الفاحصة لما يدور في وسط المجتمع ، ربما لم يفعلوا ذلـك لأنهم يشعرون أن غيرهم يفعل هذا ، وأن مهمتهم محددة ، وهي تسجيل وتـدوين الأحـداث الظـاهرة المؤثرة ... ولكن غيرهم لم يفعل هـذا بشموليـة ، وإنمـا نلتقي ببعض الشذرات من المعلومات في غير مظانها .

وحتى لا نتجنى على مؤرخينا الأفـاضل وننكر فضلهم ، فـإننـا نعترف بوجود معلومات حضارية كثيرة في كتبهم ، لاحظوهـا بـأنفسهم فسجلوهـا أو رجعوا إلى كتب الرحالة والجغرافيين فاستقوها منها ، ولكنها بصورة عارضة .

وربمـا رجعوا إلى كتب الرحـالـة والجغرافيين فـأخـذوا عنهم المعلومـات التي ترتبط بالجوانب السياسية والعسكرية وكذلك المالية .

واختتم هذا البحث بالدعوة إلى بذل الجهد لدراسة كتب الجغرافيين والرحالـة دراسة متأنية ، مستعينين بعلوم عدة لتصوير الحياة الإسلامية في القرون الأربعـة الأولى ، والوصـول إلى عـوامـل النهـوض والقـوة في المجتمـع الإسـلامي ، وعـوامـل الانحطـاط والضعف التي اعتورته أيضاً وأثرت في سير تقدمه .

اليمن
في عيون الرحالة المسلمين
في القرن الرابع الهجري[☆]

(الرحلة) في الحضارة الإسلامية ، بالرغم من أنها كلمة لها مدلولها اللغوي[١] ، الدال على الترحال إلا أنها - وهذا هو الجانب الهام فيها - تعد مصطلحاً علمياً تربوياً متداولاً في أوساط العلماء . فطالب العلم يخرج من بلده بعد أن يحصل ما فيها من علم إلى البلدان الأخرى أو المراكز العلمية المتفرقة لتحصيل العلوم ولقاء العلماء والشيوخ للتلقي عنهم ومذاكرة العلم معهم ، واعتبرت الرحلة من لزوميات طلب العلم[٢] ، بل هي وسيلة من وسائل التعليم المعروفة في تاريخ الإسلام العلمي[٣] ، وكان العلماء يحثون الطلبة على الرحلة . وقلما نجد بين العلماء من لم يرحل في طلب العلم[٤] .

وهذا يجرنا لتحديد أنماط الرحلة :

(☆) محاضرة ألقيت في الأسبوع الثقافي الأول بكلية الآداب / جامعة صنعاء ، أكتوبر ١٩٨٨ م ، ونشرته مجلة الإكليل اليمنية ، العدد الأول ، السنة السابعة ، ربيع ١٤٠٩ هـ/ ١٩٨٩ م .

(١) ابن منظور ، لسان العرب ١٦٠٩/٣ - ١٦١١ . المعجم الوسيط ٣٣٥/١ ، القاهرة ، البستاني ، منجد الطلاب ، ٢٣٦ .

(٢) السيوطي ، تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي ١٤٢/٢

(٣) حسن عبد العال (الدكتور) ، التربية الإسلامية في القرن الرابع الهجري ١٥٦ ، ابن الصلاح ، مقدمة ابن الصلاح ٣٦٩

(٤) منير الدين أحمد ، تاريخ التعليم عند المسلمين ٦٥

فقد كان المسلمون الأوائل يؤكدون على أن رحلاتهم إما ركوب الإبل إلى بيت الله للحج ، وإما ركوب الخيل في الجهاد كما عبر عن ذلك عبد الله بن مسعود[1] . وبالطبع يكون في الجهاد التعلمُ والتعليم مصداقاً للآية القرآنية الكريمة : ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾ [التوبة ١٢٢] .

إلا أننا لا نغفل أنماطاً أخرى من الرحلات : فهناك الرحلات التجارية . وقد امتن الله سبحانه على قريش بأن هيأ لهم الأمن في وسط القبائل العربية ، وأتاح لهم رحلتين تجاريتين هامتين : رحلة في الشتاء إلى اليمن ورحلة في الصيف إلى الشام ، حتى ألفت قريش هاتين الرحلتين على مدار العام للتجارة[2] .

ولم تكف الرحلات التجارية في ظل الدولة الإسلامية سواء بين أمصار بلاد الإسلام أم بين دار الإسلام ودار الكفر أو الحرب أي بين الدولة الإسلامية وبين الدول المجاورة .

وكانت الطرق التجارية تخترق البلدان شرقاً وغرباً وتقام الأسواق التجارية الموسمية منها والأسبوعية ، ويرتحل إلى هذه الأسواق العديد من القوافل التجارية .

وبعض الرحالة الذين سنتطرق للحديث عنهم هم في الأصل يبحثون عن أرزاقهم من خلال التجارة ، وبجوار التجارة كانت لهم اهتمامات علمية جعلتهم يدونون مشاهداتهم في كتب أصبحوا بها مشهورين مثل ابن حوقل الذي ألف كتاب (صورة الأرض) .

---

(١) ابن منظور : لسان العرب ١٦٠٩/٣

(٢) راجع ـ إن شئت ـ تفسير سورة قريش من كتاب فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية للشوكاني ٤٩٧/٥ ـ ٤٩٩

وهناك رحلات يمكن أن يُطلق عليها رحلات إدارية كان يقوم بها موظفون في الدولة الغرض منها تحديد المناطق والمراحل بينها ، ورسم صورة عن الأمصار الإسلامية ، وتعيين المسافات بينها ، وكيفية الوصول إليها ، والطرق المسلوكة ووصفها ، لكي يكون لدى الدولة العلم الكافي عن البلاد التي تحكمها .

إن أبرز كتابين ألفا في القرن الرابع الهجري عن الرحلات الإدارية كانا لموظفين في الدولة العباسية ، أحدهما كان موظفاً على الخراج وهو قدامة بن جعفر (ت/ ٣٢٠ هـ) الذي ألف (كتاب الخراج وصنعة الكتاب) .

والآخر كان موظفاً على إدارة البريد وهو المعروف بابن خرداذبة (ت في حدود ٣٠٠ هـ) وقد ألف كتاباً أسماه (المسالك والممالك) .

وكانت وظيفة البريد في العصر العباسي الثاني تعد مهمة جداً ، لأنها تقوم بتتبع أخبار الولاة والرعية وإيصالها أولاً بأول إلى الخليفة ، حتى مشاكل الناس اليومية وأسعار سلعهم[١] .

وهناك رحلات علمية خالصة إما لتلقي العلوم والمعارف ، أو لمعرفة البلدان وتسجيل المشاهدات حولها ، وقد يمارس الرحالة عملاً خاصاً في رحلاته هذه ، ليكسب ما يتزود به ، سواء أكانت حرفة مهنية أو تجارية أو شغل وظيفة في دولة من الدول التي يدخلها بصفة مؤقتة ، أو غير ذلك مثل المقدسي الذي اشتغل في تجليد الكتب حينما استقر في عدن[٢] ، وابن حوقل (توفي بعد ٣٦٧ هـ/ ٩٧٧ م) ، الذي عمل لحساب الدولة الفاطمية ، فكان يتنقل في الأمصار ويدخل المناطق التي ليست تحت نفوذها ويمدها بما تحتاج إليه من أخبار[٣] . وعرف كتابه باسم (صورة الأرض) .

---

(١) صبحي الصالح (الدكتور) ، النظم الإسلامية ٣٣٢

(٢) أحسن التقاسيم ٨٨

(٣) أحمد رمضان ، الرحلة ١٢٦

ويدخل في إطار الرحلات العلمية نوعان :

النوع الأول : الرحلات العلمية كوسيلة تعليمية وهي المصرح بها في كتب الحديث وكتب التربية والإعداد الإسلامية ، وهذا النوع ألمحنا إليه آنفاً ، وقد كثرت رحلات العلماء من هذا النوع من اليمن وإليها في القرون الثلاثة الهجرية الأولى ، وليس هذا مجال طرح النماذج المتعددة في هذا الشأن ، ولكني أريد أن أشير إلى ومضات منها ، وهي في حاجة إلى جهود من الباحثين حتى يخرجوا لنا وسيلة فعالة من الوسائل التعليمية التي أدت إلى نتائج باهرة لا تكاد تصدق . ويكفي أن نعد من نتائجها ذلك التلاقح الفكري والثقافي والتعليمي بين المشرق والمغرب ، وأصبحت الكتب العلمية متبادلة بين العلماء هنا وهناك[1] .

أما النوع الثاني : فهو الرحلات العلمية الجغرافية الاستكشافية وتدوين الملاحظات والمشاهدات في كتب خاصة ، وكان الأصطخري (ت ٣٤٦ هـ) والمقدسي (ت ٣٨٠ هـ) يمثلان هذا النوع خير تمثيل ، فألف الأصطخري كتابه المشهور (مسالك الممالك) . أما المقدسي فقد ألف كتابه الفذ المعروف (بأحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) ليكون أحسن ماألف في هذا المضمار حتى القرن الرابع الهجري .

ولم يكن هدف هؤلاء الرحالة هو مجرد تسجيل مشاهداتهم فقط ، وإنما كانوا يرجون من وراء ذلك إفادة الدولة فيما تحتاج إليه ، لربطها بالمناطق ، وتلبية حاجة الحجاج في معرفة طرق سيرهم ومحطات طرقهم ، وهي أيضاً خدمة للتجار لتعريفهم بالبلدان وما تنتج كل بلد لتكون هذه الكتب كدليل لأي مسافر

---

(١) منير الدين ، تاريخ التعليم ٦٧ . والشرجي ، طبقات الخواص ٥٠ ، بامخرمة ، تاريخ ثغر عدن ٣٠٢/٢ ، ١٤٢ ، وانظر الحياة العلمية في اليمن في القرنين الثالث والرابع للهجرة ١٥٧ ـ ١٦٤ ، لصاحب هذه الدراسة .

يحملها ، بالإضافة إلى أن كتب الرحالة هؤلاء عُدّت من الكتب الأدبية الشعبية ، لأنها تعتمد على المشاهدة وحكاية ما رأوه في رحلاتهم[1] .

والرحالة الخمسة ـ ابن خرداذبة ، وقدامة بن جعفر ، والأصطخري ، وابن حوقل ، والمقدسي ـ سنكون بصحبتهم في رحلاتهم هذه ، من خلال مشاهداتهم التي دونت في كتبهم الخمسة المطبوعة ـ كلها ـ بمطبعة بريل بمدينة ليدن ، هولندا .

وسنحاول رسم هذه المشاهدات بعد تقسيمها إلى مشاهدات إدارية وسياسية ، ومشاهدات اجتماعية ، ومشاهدات عمرانية ، ومشاهدات علمية .

المشاهدات الإدارية والسياسية

بالرغم من أن اليمن في القرن الرابع الهجري كان من الناحية الإدارية تحت قوى سياسية متعددة متفرقة الاتجاه ، وأن القوة التي ترتبط بالدولة العباسية وهي (اليعفرية والزيادية) لم تكن ترتبط بالعباسيين إلا برباط اسمي فقط ، بالرغم من ذلك ، فإن الدولة العباسية وهي توجه موظفيها أو أن موظفيها أنفسهم يجعلون اليمن ضمن إطار حديثهم عن التنظيمات الإدارية للدولة العباسية .

وكان أهم وأول كتاب يعنى بطرق البريد وسككه ، وتوضيح المسافات بينها هو كتاب (المسالك والممالك لابن خرداذبة) المعين مديراً للبريد في عهد المعتمد العباسي (٢٥٦ ـ ٢٧٩ هـ/ ٨٧٠ ـ ٨٩٢ م) الذي تميز عهده بانتعاش الخلافة العباسية :

وقد ركز ابن خرداذبة حديثه عن اليمن من الناحية الإدارية على تحديد المسافات بين البلدان اليمنية ، ابتدأها من الشمال قادماً من مكة مخترقاً وسط

---

(١) شوقي ضيف ، الرحلات ، ١٢

البلاد ، حتى وصل إلى عدن وحضرموت ، ثم عاد من الجنوب نحو الشمال ، ولكن في المناطق الساحلية ، ثم الشمال الغربي لصنعاء ، فجعل هذه المدينة مركزاً يحدد المناطق من خلالها .

وهو لا يكتفي بذكر المسافات فقط ، بل يسرد الوحدات الإدارية المعروفة يومذاك بالمخاليف ـ جمع مخلاف ـ فعد ٧٦ (ستة وسبعين مخلافاً) ، ويعرج بين الفينة والفينة إلى بعض ما تميز به كل مخلاف[١] .

وهو بهذا يؤكد على ما استقر عليه الوضع الإداري لليمن ، حيث أصبح اليمن ولاية واحدة تحت إمرة أمير واحد ، ثم تنتظمها عدة مخاليف صغيرة .

وهذا ما يؤكده قدامة[٢] المسئول عن الخراج في عهد الخليفة المقتدر بالله (ت ٣٢٥ هـ / ٩٣٦ م) ، حيث ذكر مجموعة من المخاليف دون ترتيب ، لأنه لم يكن همه ذكر المخاليف بقدر ما كان همه تحديد منازل المسافرين أو المحطات التي يمكنهم أن يحطوا فيها رحالهم أثناء سفرهم ، فيذكر هذه المخاليف عرضاً . وكما بدأ ابن خرداذبة من مكة ، بدأ أيضاً قدامة من مكة فجعلها مركزاً ولكن خلافاً لابن خرداذبة فقد رسم الطريق منها حتى وصل إلى صنعاء فقط ، ثم اتجه إلى عمان والبحرين واليمامة ورسم الطريق بينها وبين اليمن ، ثم واصل سيره على ساحل اليمن حتى وصل إلى مكة .

بينما نلاحظ الأصطخري[٣] لا يرى حاجة إلى ذكر المسافات والمنازل بالتفصيل ، بل يجمل إجمالاً مقتصراً على مجموع المراحل أو المسافات بين البلدان ، ويقرر أن هذا ما يحتاج إلى عمله . أما غيرها فلا تحتاج إلى معرفة فيذكر الطريق

---

(١) المسالك والممالك ١٣٥ ـ ١٤٤

(٢) الخراج وصنعة الكتابة ١٨٩ ـ ١٩٣ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩

(٣) مسالك الممالك ٢٣ ـ ٢٨

الساحلي من (عمان) حتى (جدة) ، وبعض المسافات بين المدن الكبيرة في اليمن . ومثله ابن حوقل[1] الذي لا يزيد عما جاء به الأصطخري فتتحدد لديها الطرق ومراحلها التهامية منها والجبلية ، وقد حصرت هذه المراحل في ما يزيد عن خمسين مرحلة . وهذا نفسه يشي بأن هذه المراحل هي محطات بريدية معروفة للمسافرين أو ينبغي أن يعرفها المسافرون ، وهذا الذي صرح به الأصطخري .

وفي إطار الرؤية والمشاهدة الإدارية - أيضاً - يعطينا ابن خرداذبة خارطة بريدية يحدد فيها مسار محطات البريد في أنحاء اليمن . وهذه المحطات كانت تسمى (سكة) ، وهي الموضع الذي كان يسكنه الفيوج (جمع فوج) ، وهم مجموعة من الموظفين المرتبين في بيت أو قبة أو رباط ، وكان في كل « سكة بغال ومؤنة الطريق » ، وتكون المسافة بين السكة والسكة فرسخين وقيل أربعة[2] . وبهذا يمكن أن نطلق على هذه السكة دار البريد أو محطة البريد أو إدارة أصحاب البريد[3] .

وقد أحصى ابن خرداذبة المحطات البريدية في اليمن ، فأثبت ثمانين محطة (سكة) بريدية . ولا شك أن هذا الإحصاء نابع من خبرة ومعرفة أكيدة من خلال الوثائق الرسمية للدولة التي توفرت له بحكم منصبه .

ومما لا ريب فيه أن هذه المحطات لها ميزانيات مرتبة من قبل الدولة ، وقد أعطانا ابن خرداذبة المبلغ الإجمالي الذي تصرفه الدولة العباسية على المحطات البريدية في الدولة كلها التي وصل عددها إلى تسعمائة وثلاثين (سكة) محطة ،

---

(١) صورة الأرض ٤٦ - ٤٧ ، المرحلة من خمسة فراسخ إلى ستة فراسخ ، أي في حدود ٢٨ - ٣٢ كيلومتراً ومتوسطها ٣٠,٥ كم .

(٢) لسان العرب ١/٢٥٠ و ٣/٣٠٥١ . والفرسخ = ٥,٥٤٤ متراً ، فتكون المسافة ٢١ أو ٢٢ كيلومتراً .

(٣) منجد الطلاب ٣٢٥

وهي في حاجة إلى أموال للإنفاق على الرجال والموظفين والدواب ، فكانت الدولة العباسية تنفق على ذلك في العام ١٥٩١٠٠ دينار (مائة ألف وتسعة وخمسين ألفاً ومائة دينار)[١]، وتعطينا هذه الإحصائية رؤية واضحة للمواصلات في ذلك الوقت والاهتمام بها والحرص على تأمينها والإنفاق عليها .

وقد خصص قدامة[٢] حديثه عن « السكك (المحطات) التي رتبت فيها للرجال لحمل الخرائط » (الأكياس المعدة لحمل البريد فيها) ، وجعلت رسماً للبريد ، ولكنه لا يذكر كل شيء عن سكك الدولة الإسلامية ، فيصرح بأنه « مالم نذكره من سكك النواحي فهو للغنى بما ذكرناه من المسافة بينها » ، ومما لم يذكره هو سكك اليمن ، مكتفياً بذكر المسافات بين بلدانه . وكان اهتمامه الواضح في رصد الجوانب المالية كما سيأتي الحديث عنه فيما بعد .

أما المقدسي فهو بحق أدق من كتب في هذا المجال فهو لا يذكر إلا ما شاهده ، وقد صرح بدخوله اليمن واستقراره فيه عاماً كاملاً وما لم يدخله من البلدان يعترف بأنه لم يدخله ، ولكنه يسجل ما استقر لديه وتأكد منه[٣] .

فيعطينا المقدسي[٤] رؤيته ومشاهداته الإدارية بصورة دقيقة لم يسبقه إليها أحد ، فيقسم الجزيرة العربية إلى أربع كور كبيرة (الكورة : الصقع أو الإقليم الكبير ويشابه الولاية أو المحافظة) ، وهي الحجاز واليمن وعمان وهجر ، ثم يقسم الكور إلى نواحٍ .

---

(١) المسالك والممالك ١٥٣

(٢) الخراج ٢٢٥ و ٢٢٩

(٣) أحسن التقاسيم ٨٨

(٤) المصدر نفسه ٦٩ ، ٧٠

فاليمن ـ وهذا الذي يعنينا هنا ـ يقسمه إلى ناحيتين ، ناحية تهامة ، وناحية الجبال .

أما ناحية تهامة : فجعل قصبتها ـ أي مدينتها العظمى ـ مدينة زبيد ، وتتبعها أربع وعشرون مدينة تهامية .

وأما ناحية الجبال أو نجد اليمن فقصبته (عاصمته) مدينة صنعاء ، ومدن هذه الناحية بلغ عددها ست عشرة مدينة .

ثم يعود[1] إلى إحصاء المخاليف اليمنية ، فيصل عددها عنده إلى خمسة وستين مخلافاً أو وحدة إدارية ، ويتعرض للمسافات بين البلدان اليمنية ، ولكنه سرعان ما يعترف[2] بعدم قدرته على ضبط المسافات بينها ، ويذكر ما يعرفه منها فقط .

وأما الرؤية والمشاهدة السياسية فإن ابن خرداذبة قد يشير إلى من يحكم هذا المخلاف أو ذلك كإشارته[3] إلى المناخيين في مخلاف جعفر والشراحيين في مخلاف جبلان والحواليين في شبام . وإشارته هذه تشي ـ باعتباره موظفاً حكومياً في الدولة العباسية ـ بأن هذه القوى المتحكمة في هذه المخاليف كانت لها علاقة بالدولة العباسية سواء أكانت اسمية أم حقيقية .

وبالمقابل أهمل الإشارة إلى وجود الدولة الزيدية تماماً التي كانت تهدد النفوذ العباسي في اليمن منذ أواخر القرن الثالث الهجري ، وهو بالتأكيد إهمال مقصود حتى لا يعطيها الشرعية عندما يثبتها في كتابه الذي طلبه منه الخليفة العباسي . ولم يتحفنا الأصطخري[4] برؤية سياسية شاملة بل أشار إشارة إلى نفوذ الدولة

---

(١) أحسن التقاسيم ٨٨ ـ ٩٢

(٢) المصدر نفسه ١١٢

(٣) المسالك والممالك ١٣٥ ـ ١٤٢

(٤) مسالك الممالك ٢٤

الزيدية في صعدة معبراً عنه بقوله : « والحسني المعروف بالزيدي بها مقيم » ، ويقصد بالحسني الناصر بن الهادي الذي ينسب إلى الحسن بن علي بن أبي طالب .

وعند مخلاف جعفر ومدينة (المذيخرة) يصرح بكلمة (بلغني) مما يدل على السماع أو القراءة دون الرؤية ، ثم يشير بقوله : « تغلب عليه (أي جبل المذيخرة) القرمطي الذي كان خرج باليمن يعرف بمحمد بن الفضل »[1] ، ويقصد به علي بن الفضل ، وهذا الخطأ في الاسم أخذه عنه ابن حوقل ثم عمارة اليمني بعد ذلك .

ولم يختلف ما قاله ابن حوقل عما جاء عند الأصطخري ، بل لقد كان ابن حوقل ناقلاً بارعاً عن الأصطخري ليس المعلومات فقط ، وإنما التعبير والترتيب والتنسيق وبشكل غريب جداً لا يختلف عنه إلا ببعض العبارات أو قل الكلمات التي يضيفها هنا أو هناك ، وأحياناً يغير حرف العطف أو حرف الجر دون أي إشارة إلى أنه أخذ هذا من كتاب الأصطخري ، وأحياناً كان يضيف عبارات مارسها باعتباره من التجار مثل تحديد سعر سلعة معينة .

ولا داعي لذكر الأمثلة بل أحيل القارئ والسامع إلى قراءة الكتابين والمقارنة بينهما ، وسيرى العجب العجاب حتى الغلط الموجود عند الأصطخري أثبته ابن حوقل ، وزاد خطأه أكثر حينما تفرد عنه ببعض المعلومات مثل قوله : « إن المذيخرة كانت لأسعد بن أبي يعفر »[2] وهذا غلط واضح .

وحتى لا نظلم الرجل فربما كانت رحلاته نحو المغرب والأندلس وبلاد المشرق وهذه هي البلاد التي شاهدها وسجلها في كتابه . أما بلاد العرب ومقدمة الكتاب فهي طبق الأصل عن الأصطخري ، إذا استبعدنا زيادات لا تكاد تذكر إلا في

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) ابن حوقل ، صورة الأرض ٤٣

المجال الاقتصادي لتخصصه واهتمامه به ، وقد يكون تحصّل عليها في رحلاته أيضاً إلى هذه البلاد ، ولكنه لم يكلف نفسه أن يسجل مشاهداته كلها واكتفى بالجانب المالي ، وربما لم يجد ما يضيفه من المعلومات العامة لأنها متطابقة مع ما شاهده ولذا ليس هناك من ضرورة لإنشاء الكتابة إنشاءً .

فقد حرص على أن يعطينا بيانات عما يجبى من الأموال في الوقت الذي كان فيه يطوف البلدان أي في حدود ٣٣١ ـ ٩٤٢/٣٦٧ ـ ٩٧٧ م ، فأمدتنا هذه البيانات المالية بتصوير واضح للوضع السياسي في اليمن في هذه المدة التي كتب فيها الكتاب ، فذكر خمس قوى كان لها النفوذ على اليمن ، في مقدمتهم ملوك تهامة ومنهم آل زياد ، حيث امتد سلطانهم على الساحل من الشرجة شمالاً إلى عدن جنوباً ، وكانت الدولة الزيادية بيد علي بن إبراهيم بن زياد الذي خلف أبا الجيش إسحاق بن إبراهيم (ت ٣٦٢ هـ/ ٩٧٢ م) وأطلق على آل يعفر ملوك الجبال ، وأما أبناء الهادي في صعدة فعرف المتولي منهم بالحسني[1] (نسبة إلى الحسن بن علي بن أبي طالب) .

ولم ينس ـ وهو صاحب الميول الفاطمية[2] ـ أن يتحدث عن العلاقة بين هذه القوى والدولة الفاطمية ، فيجزم بأن جميع ملوك تهامة خطبوا لصاحب المغرب (ويعني به الخليفة الفاطمي بالمغرب) ، وهذا يدل على أن الفاطميين لم يكونوا قد استولوا على مصر بعد لأنهم لم يدخلوها إلا عام ٣٥٨ هـ/ ٩٦٩ م ، فكيف يكون للفاطميين السيادة على تهامة اليمن ولم يصل نفوذهم بعد إلى مصر .

أما إذا كان يقصد بصاحب المغرب القادم من المغرب باعتبار نشأة الدولة الفاطمية في المغرب أولاً ، فيكون المفروض أنه كتب كتابه هذا بعد عام

---

(١) ابن حوقل ، صورة الأرض ٣٣

(٢) أحمد رمضان ، الرحلة ١٢٦ . كراتشوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي ٢٠٤/١

٣٨١ هـ ، وهو العام الذي دانت فيه مكة والمدينة للفاطميين ، وربما مالت اليمن في هذا الوقت نحو الدولة الفاطمية .

ولكن من الثابت أن ابن حوقل (ت عام ٣٦٧ هـ/٩٧٧ م) أي قبل وصول الفاطميين إلى الشام ومكة ، وبهذا نرجح أن قولة ابن حوقل هي مجاملة للفاطميين وليست على الحقيقة .

أما وضع اليمن السياسي في الربع الأخير من القرن الرابع الهجري من خلال مشاهدات ورؤية المقدسي[١] فيوجزه لنا بأربعة أسطر فقط ، ويحدد لنا خمس قوى تمتلك النفوذ في اليمن أكبرهم آل زياد في تهامة ، وإمارة آل الضحاك في صنعاء ، واليعفريون في شبام ، والعلويون في صعدة (ويقصد بهم أبناء الهادي) .

وهكذا نستطيع أن ندرك أن التقسيم الإداري لليمن المسمى بالمخاليف ، ظل كما هو عند جميع من شاهد اليمن في هذا القرن ، بينما الوضع السياسي تراوح بين الارتباط بالدولة العباسية ، والدويلات التي أصبحت تمثل كيانات خاصة بها ، وقد يدين بعضها للأقوى منها ، بالإضافة إلى دخول تيارين فكريين إلى اليمن ، وهما الزيدية والقرامطة . ثم تسرب الولاء للفاطميين أواخر القرن الرابع الهجري .

المشاهدات الاجتماعية

من المؤكد أن كل رحالة يسجل في كتابه ما يراه مهماً وما سيحتاج إليه قارئ مثل هذه الكتب ، ولهذا نلاحظ أن كلاً من ابن خرداذبة[٢] وقدامة[٣] يركزان

(١) أحسن التقاسيم ١٠٤

(٢) المسالك والممالك ١٣٤ ، ١٣٦

(٣) الخراج ١٨٨ ـ ١٨٩

على المحطات البريدية هل هي آهلة بالسكان ، ونوعياتهم ، هل هم أعراب أم من القبائل المعروفة ، وإلى من ينتسبون ؟ إلى خولان أم همدان أم من القبائل غير اليمنية التي استقرت في اليمن كالعُمَرِيين الذين استقروا في خيوان .

أما الأصطخري[1] وابن حوقل[2] لتقاربهما نصاً ومعنىً ، فلا يكفان عن التعبير عما يطمئن المسافر بأن هذه البلدة أو تلك عامرة بأهلها فيها القرى والمزارع والمياه . إلا أنهما يشيران إلى بعض المذاهب المنتشرة في بعض المناطق اليمنية مثل الخوارج بالقرب من خيوان (شمالي صنعاء) ، ولفتت انتباههما لغة بلاد (مهرة) فوصفاها بأنها مستعجمة جداً لا يكاد يوقف عليها ، وهذا ما قرره لسان اليمن أبو محمد الحسن بن أحمد الهمداني[3] ، (توفي بين عامي ٣٥٠ ـ ٣٦٠) .

وقد أشار إلى هذا المقدسي[4] ليس في مهرة فحسب ، بل في مناطق من حمير ، ويشير إلى بعض اللهجات الموجودة في اليمن كلهجة عدن مثلاً .

وكان المقدسي[5] أكثر الرحالة تسجيلاً لمشاهداته وأدقهم في ملاحظاته ، الشاملة لجوانب متعددة من الحياة الاجتماعية .

فيصف أخلاق أهل البلد الذي ينزله ، فيعطينا صورة واضحة واقعية عن أخلاق الناس ، فيصف مثلاً أهل زبيد بالظرف ، وأهل صنعاء بالرفق والعفة .

ويصف لون أجسادهم . ويسلط الأضواء على المياه في المناطق التي يكتب عنها ، وطبيعة هوائها ، وهل هي ذات هواء طيب أم ينتشر فيها الوباء والمرض .

---

(١) مسالك الممالك ٢٣ ـ ٢٥

(٢) صورة الأرض ٤٣ ـ ٤٤

(٣) صفة جزيرة العرب ٢٧٧

(٤) أحسن التقاسيم ٦٩

(٥) المصدر نفسه ٨٤ ـ ٨٧ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٥

ومما يلفت النظر أنه لا يغفل الحديث عن الحمامات ، مشيراً إما إلى نظافتها أو اتساخها ، ويلاحظ أن مساجد وحمامات المناطق التي يشح فيها الماء كثيراً ما يصفها بأنها متسخة .

ويحدد سكان المناطق والأجناس التي تشترك في سكناها مثل عدن ، حيث يكثر فيها الفرس بينما مدينة زبيد يكثر فيها الحبشة والنوبيون .

ويحدثنا عن ملابسهم ومآكلهم فيقول : « وأهل هذا الإقليم أصحاب قناعة ونحافة يتقوتون باليسير من الطعام ويتجوزون بالخفيف من الثياب » . ومع هذا يلفت النظر إلى غرائب ملابس بعض المناطق مثل أهل المخاء الذين يعيبون على من يكون له إزار ورداء وإنما عادتهم أن يلبسوا ثوباً واحداً جزء منه إزار والجزء الآخر يلتف به بمثابة الرداء .

ويشرح وسيلة الإضاءة في بيوتهم ، فيذكر المصابيح وأنواع الزيت المستخدم ، ومنه زيت السمك في المناطق الساحلية ، وإنهم يحبون تجليد كتبهم ومصاحفهم بأحسن ما يوجد ، ويبذلون بسخاء في سبيل ذلك .

وأما عادات الأعياد والمناسبات فينقل صورة طريفة عن عدن التي قطن فيها أكثر من غيرها فيقول :

« ويزينون بعدن السطوح قبل رمضان بيومين ، ويضربون عليها الدبادب (الطبول = المفرد دبداب) فإذا دخل رمضان اجتمع رفق (مجموعة من الرفقاء) يدورون عند السحر يقرأون القصائد إلى آخر الليل ، فإذا قرب العيد جبوا الناس (أي أخذوا من الناس أموالاً مقابل عملهم هذا) ، ويتخذون في النيروز (عيد عند الفرس يوافق أول يوم من السنة الشمسية الإيرانية ٢١ مارس ، وهذا دليل على كثرة الفرس في عدن) قباباً (خياماً) يدورون بها على المباشرين

ومعهم الطبول ، فيجمعون مالاً جزيلاً (ربما كانت تلك المجموعة من الرفقاء هم الذين يطوفون أيام رمضان) » .

وكما يتعرض للأجناس يتعرض للأديان أيضاً ، وأهمها اليهودية والنصرانية ، فيجزم بأن إقليم بلاد العرب بأجمعه يكثر فيه اليهود ويقل النصارى ، ولا يوجد أهل ذمة في هذا الإقليم غيرهم .

المشاهدات العمرانية

لا يخلو كتاب من الكتب الخمسة للرحالة الخمسة ذات الصلة بحديثنا هذا من ذكر المدن والقرى وغالباً ما يجملون وصفها بأنها ذات قصور ومنازل[1] وقد أحصى[2] المقدسي مدن اليمن التهامية والجبلية ، فكانت أربعين مدينة .

ويتطرق الأصطخري[3] لوصف صنعاء بأنها ذات مرافق أكثر من أي مدينة أخرى في اليمن ، ولا شك أن هذه المرافق تشمل أشياء كثيرة منها المساجد والحمامات والسقايات والشوارع والأسواق والملاجئ والمستشفيات إلخ .. وأنها حسب تقرير المقدسي[4] أجمل من زبيد وأعمر منها ، إلا أنها يوم أن دخلها المقدسي في النصف الثاني من القرن الرابع كان قد اختل وضعها ، وأصبحت أقل شأناً من زبيد ، وربما كان ذلك لكثرة الحروب والفتن التي تعرضت لها صنعاء في هذه الحقبة ، وزبيد حسنة البنيان ، وعليها سور بأربعة أبواب ، ومرافقها أكثر من مكة وأن أكثر ما يبنون بالآجر ، وأن منازلهم تتميّز بالتهوية الجيدة والاتساع .

وجعلوا المسجد بعيداً عن الأسواق وهو مزين ونظيف ، وأما أسواق زبيد

---

(١) قدامة ، الخراج ١٨٨ . الأصطخري ، المسالك والممالك ٢٤

(٢) أحسن التقاسيم ٦٩ ، ٧٠

(٣) المسالك والممالك ٢٤

(٤) أحسن التقاسيم ٨٤ ـ ٨٧ ـ ٩٥

فضيقة ، بينما صنعاء أحسن بناء وأوسع أسواقاً ، شبهت بنيانها بالكوفة ، وكله بالآجر ، وجامعها طريف وعلى طرف البلد .

أما عدن فكثيرة القصور ومساجدها تتصف بالحسن إلا أن قلّة الماء عندهم أدّت إلى قلّة نظافة المساجد والحمامات ، ويبدي المقدسي عجبه من الاستقرار في السواحل اليمنية على قلّة مائه ، ويؤكد أنه لو لم يكن البحر لما استقرَّ أحد في تلك المناطق .

ويصف مدخل مدينة عدن الساحلي بأنه (الشق) الذي يشق الجبل المطل على البر ، وهذا الشق أسماه الهمداني[1] (الشصر) ، ويحدثنا المقدسي[2] بأن باباً من حديد يسدّ هذا الشق ، وهو الذي يوصلها براً دون صعود الجبال المحيطة بها . ثم يقول : « ومدّوا من نحو البحر حائطاً من الجبل إلى الجبل فيه خمسة أبواب » وهو لا يخبرنا من الذي مدَّ هذا السور ولا من بناه ، ثم إذا ما حاولنا الاستعانة ببعض المصادر وأهمها كتاب (صفة جزيرة العرب) للهمداني ، فلا نجد عنده شيئاً يفيدنا في هذا الشأن مكتفياً (بالشصر) كما أسماه ، وربما أقيم هذا السور في عهد بني زياد ، في الوقت الذي كان فيه الهمداني مقيماً في (ريدة) ، ولم يتمكن من معرفة ذلك ، وربما أيضاً تهدَّم بعد ذلك ، ولكنه بني في عهد بني زريع ٤٧٦ ـ ٥٦٩ هـ / ١٠٨٣ ـ ١١٧٣ م لأن كلاً من ابن المجاور[3] وبامخرمة[4] ذكرا السور الذي بني في عهد بني زريع والممتد من حصن الخضراء إلى جبل حُقَّات على الساحل .

---

(١) صفة ٣٤٤

(٢) أحسن التقاسيم ٨٥

(٣) المستبصر ١٢٧

(٤) تاريخ ثغر عدن ١٣/١ ـ ١٥

المشاهدات العلمية

لم يعن رحالاتنا كثيراً بتسجيل مشاهدات علمية واضحة ، فلم يخبرونا عن مراكز علمية أو حلقات كانت تقام ، أو أنهم حضروا مجلس علم أو عن كتب أو مكتبات أو أسواق الوراقين ، كل هذا لم يحدثنا به أحد من أولئكم الرحالة ، وإنما فاجأنا المقدسي[1] بحكم عام على بلاد العرب بصفة عامة داخلاً فيه اليمن بأنه بلد قليل الفقهاء والمذكرين والقراء . وهذا هو الرحالة الموسوعي الجاد الملاحظة الذي لم يفته شيء إلا سجّله ، فما بالك بمن كان لا يهتم إلا برصد الطرق ، ومحطات
يفته شيء إلا سجّله ، فما بالك بمن كان لا يهتم إلا برصد الطرق ، ومحطات
البريد ، ومساعدة المسافرين في تحديد معالم الطرق ، كابن خرداذبه فهذا لم يذكر شيئاً عن هذه الناحية ، وقدامة[2] أيضاً ـ كسابقه ـ لم يهتم بهذا الجانب ، إلا أنه وهو يعرّف بالمدن يشير إلى بعض مميزاتها ، كان يصفها بأنها تحتوي على منبر ومسجد أو جامع ومنبر ، وهذه اللفتة تشير إلى وجود مساجد جامعة يتجمع فيها الناس لصلاة الجمعة ، وتنبئ أيضاً عن وجود مركز علمي أو مدرسة علمية على شكل حلقات علمية تقام في هذا المسجد الجامع ، لأن المساجد الجامعة في بلاد الإسلام بوجه عام كانت لا تخلو من حلقات علمية في علوم شتى .

وإذا كان الأصطخري وابن حوقل قد أهملا الإشارة ـ مجرد الإشارة ـ لرؤية علمية ، فإن المقدسي ـ رغم تعميمه السابق عن بلاد العرب ـ سجّل لنا تعبيرات دقيقة لمشاهداته العلمية في بعض المدن .

فيقول عن زبيد : « بها علماء وأدباء »[3] ، ويقول عن صنعاء ومشايخها :

---

(١) أحسن التقاسيم ٩٥

(٢) الخراج ١٨٩

(٣) أحسن التقاسيم ٨٤

« لم أر بجميع اليمن مثلهم هيبة وعقلاً وبهاء »[1] ، أما حضرموت فيعطينا المقدسي[2] تعبيراً فضفاضاً فيصف أهل حضرموت بأن لهم في العلم والخير رغبة .

واشترك كل من الأصطخري[3] وابن حوقل[4] بالتنو يه إلى وجود طائفة من الخوارج تسكن بالقرب من خيوان في بلاد همدان ، ويشير المقدسي[5] إلى وجود بعض منهم هناك والبعض الآخر في بلاد حضرموت ، وهذه الإشارات تعطينا خلفية علمية ، لأن وجود مذهب ما في منطقة ما غير المذهب العام فيها يدلّ على وجود علماء إما منافحين معلمين لهذا المذهب ، أو يفندون جوانب القصور فيه ومعارضته للمذاهب الأخرى وهكذا .

ولم يبخل علينا المقدسي بوضع بيان بأسماء المذاهب الفكرية كالسنة والشيعة والمعتزلة والخوارج .

ثم وضع بياناً بالمذاهب الفقهية التي كانت منتشرة في القرن الرابع الهجري في اليمن وبالمناطق التي ينتشر فيها ذلك المذهب وها هي ذي أسماؤها وأماكن وجودها :

١ ـ مذهب أبي حنيفة (ت ١٥٠ هـ / ٦٦٧ م) ، وأتباعه هم أصحاب الانتشار والظهور في منطقة صنعاء وصعدة والمساجد فيها ـ التي تمثل المدارس العلمية ـ كانت بيد علماء المذهب الحنفي .

---

(١) المصدر نفسه ٨٦

(٢) المصدر نفسه ٨٧

(٣) المسالك والممالك ٢٥

(٤) صورة الأرض ٤٤

(٥) أحسن التقاسيم ٨٧ ، ٩٦

٢ ـ مذهب ابن المنذر (ت ٣١٩ هـ / ٩٣١ م) ، وكان منتشراً في بلاد المعافر (الحجرية حالياً) .

٣ ـ مذهب سفيان بن عيينة (ت ١٩٨ هـ / ٨١٣ ـ ٨١٤ م) في نواحي نجد وربما يقصد بها المناطق الوسطى .

٤ ـ مذهب مالك بن أنس (ت ١٧٩ هـ / ٩٧٥ م) في المناطق التهامية .
فهذه مذاهب أربعة لا يذكر فيها مذهب الإمام الشافعي (ت ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م) مما يدلّ على عدم انتشاره في اليمن في هذا القرن ، ومن استقراء الواقع الحالي نجزم أن مذهبين من تلك المذاهب المشهورة يومذاك لم يعد لهما وجود اليوم إلا في بطون الكتب كمذهب ابن المنذر ومذهب سفيان .

أما علم القراءات فكما هو معروف أنها نسب إلى علماء مبرزين فيها ، وأصبحت قراءات مشهورة تحتذى ، وأقرّها علماء الأمة . ومن ثمّ لا ينبغي أن يخلو اليمن من هذه القراءات ، خاصة أنها تهتم بكتاب الله المرسل إلى البشر ، الذي يحتوي على قواعد حياتهم كلها الفكرية والسلوكية ، فأخبرنا المقدسي[1] عن قراءتين اشتهرتا في اليمن : قراءة عاصم الكوفي (ت ١٢٧ هـ/٧٤٥ م) ، وقراءة أبي عمرو بن العلاء البصري (ت ١٥٤ هـ / ٧٧١ م) التي تستعمل في جميع إقليم بلاد العرب ومنه اليمن .

والقراءات تستلزم بالضرورة وجود علماء للقراءات ، لأن القراءات تؤخذ مشافهة من حفاظ لا يجيدونها وحدها ، بل يجيدون معها علوماً لا غنى عنها لعلماء القراءات كعلوم القرآن وعلوم اللغة ، ولذا فلابد من وجود علماء بها ومدارس لهم يعلمون تلاميذهم فيها .

---

(١) أحسن التقاسيم ٩٧

المشاهدات الاقتصادية

لقد كان اهتمام الرحالة بالجانب الاقتصادي كبيراً وأخذ حيزاً واسعاً من تفكيرهم ، إلى حدّ أن من أهدافهم التي وضعوها نصب أعينهم وهم يدونون مشاهداتهم ، أن يسجلوا الجوانب المالية والاقتصادية خدمة للدولة ، لتعرف الأقاليم وحاصلاتها ، ومقدار مايجبى منها ، والطرق الموصلة إليها ، ومن ناحية أخرى كان هدفهم تقديم يد العون للتجار ، فينتقلون بين البلدان ، ولديهم معرفة بطرق قوافلهم التجارية الآمنة منها والخطيرة ، ليستعدوا لمواجهة المخاطر ، ثم تعريفهم بالمدن التجارية التي تدر عليهم الأرباح والمرافئ البحرية ذات الأهمية التجارية ، ومخازن السلع في البلدان ومعرفة قيمة هذه السلع ، ويسجلون في كتبهم كل مايحتاجه التجار من موازين ومكاييل ونقود .. إلخ .

وقد حدّد لنا هؤلاء الرحالة مدناً يمنية تجارية كثيراً ماتوقفوا عندها وأعطوها وصفاً تجارياً هاماً سواء المدن التجارية الداخلية أو المرافئ المطلّة على البحر . فأما المدن التجارية الداخلية فكان بعضها مثل صعدة تعدّ مكان تجمع للتجار يأتون إليها من كل مكان ، وأكثر روادها تجار البصرة حتى أنهم كانوا يخترقون طريقاً خاصة بهم توصلهم بين البصرة وصعدة(١) .

وعرف عن مدينة صعدة بأنها مدينة الصناعات الجلدية المتعددة المنافع كالكساء والأواني والفرش وتستخدم كأدوات دفاعية أيضاً .

كذلك عرفت بعض المدن الأخرى مثل كبرى المدن التهامية بأنها خزائن الذرة فتتوزع منها إلى المرافئ اليمنية الأخرى كعدن والمخاء(٢) .

---

(١) ابن خرداذبه ، المسالك والممالك ١٣٦ . قدامة ، الخراج ١٨٩ . الأصطخري ، مسالك الممالك ٢٤ . ابن حوقل ، صورة الأرض ٤٣ . المقدسي ، أحسن التقاسيم ٨٧

(٢) المقدسي ، أحسن التقاسيم ٨٦ . وصفت بهذا الوصف مدينة الشرجة والحردة ، وعطنة .

ووصفت بعض المدن بمستوى حركة التجارة ومدى الربح فيها وغلاء الأسعار ، فزبيد وصفها المقدسي[1] بغلاء الأسعار ، بينما وصف صنعاء برخص الأسعار ، وأن فيها تجارات مفيدة .

وأما المدن المطلة على البحر ، فهي إلى جانب أنها تعدّ موانئ ومرافئ هامة كعدن والمخاء والشحر وعثَّر وغلافقة التي تقع على الساحل المقابل لزبيد ، إلى جانب ذلك فهي أيضاً مدن تجارية هامة ، فقد نعت مدينة عدن بأنها مرفأ عظيم تأتيه السلع من الهند والسند والصين والحبشة والزنج (جنوب وسط إفريقيا) وفارس والبصرة وجدة وبحر القلزم (الأحمر)[2] .

بينما ميناء ـ المخاء ـ بالإضافة إلى كونه مرفأ تجارياً ، كانت فيه مصانع (معاصر) الزيت[3] ، وربما كان المستخلص من السمك ، ومن بعض الحبوب التي كانت تزرع في المناطق المجاورة مثل السمسم .

وغلافقة[4] ـ كميناء أيضاً ـ يقال لها فرضة زبيد ، أي الساحل الذي ترسو فيه السفن ، ويكون المنفذ البحري الوحيد الذي يصل المدن الكبيرة بالبحر ، ولذا كانت غلافقة فرضة زبيد ، لأنها هي النافذة التي تطلّ منها مدينة زبيد على البحر .

كما كانت مدينة (عثَّر)[5] فرضة صنعاء وصعدة ، فالسلع التجارية التي تأتي من البحر مباشرة إلى صنعاء وصعدة لا تدخل إلا من مدينة عثَّر شمالي تهامة .

---

(١) المصدر نفسه ٨٥ ، ٨٦

(٢) ابن خرداذبه ، المسالك والممالك ٦١ . ابن حوقل ، صورة الأرض ١٤

(٣) المقدسي ، أحسن التقاسيم ٨٥

(٤) المصدر نفسه ٨٦

(٥) المقدسي . أحسن التقاسيم ٨٦

وأما الأسواق التجارية ، فقد أعطانا الرحالة عدّة صور ولقطات لها . منها الأسواق المحلية في المدن مثل أسواق زبيد وصنعاء وعدن ، فتوصف من ناحية السعة والضيق والنظافة وقربها من وسط المدينة أو قربها من المسجد الجامع .

ومنها الأسواق المحلية الأسبوعية التي تعقد في يوم محدد من كل أسبوع لتلبية حتياجات المناطق المجاورة كسوق مدينة (أثافث) الذي كان يقام يوم الجمعة من كل أسبوع[1] .

ومنها أسواق عامة دائمة يأتيها التجار من كل مكان ، حاملين إليها تجاراتهم ، ومتزودين منها ما يحتاجونه من السلع التجارية المختلفة ، وقد تربعت عدن على رأس المدن الساحلية أو الموانئ التجارية الهامة ، كما أن صعدة تقف على قمة المدن الداخلية ، حيث يرتادها التجار على اختلاف مشاربهم[2] .

ولسنا في حاجة إلى حصر السلع التجارية التي تخرج من اليمن ، وتنقل إلى الأسواق العالمية حينذاك ، حتى لا نثقل البحث ببيانات نحن في غنى عنها ، قد يتحصل عليها القارئ في دراسات متخصصة ، ولكننا لا نستغني عن أمثلة أو نماذج منها ، فنأخذ من كل كتاب من الكتب الخمسة لرحالاتنا الخمسة نموذجاً أو نماذجاً .

فابن خرداذبه[3] ذكر الورس (وهو نبت يستخدم لصبغ الملابس) ، وذكر الثياب اليمنية المزركشة والعنبر والبغال والحمير .. وقدامة[4] يذكر الصناعات الجلدية التي تستورد من صعدة .

---

(١) قدامة ، الخراج ١٨٩ . ومدينة أثافث تقع شمالي صنعاء .

(٢) ابن خرداذبه ، المسالك والممالك ٦١ . قدامة ، الخراج ١٨٩

(٣) المسالك والممالك ٧١

(٤) الخراج ١٨٩

وركز الأصطخري[1] على الأحجار الكريمة المشهورة في اليمن كالعقيق واللؤلؤ ، وخصّ بالذكر اللبان الذي ينقل من مدينة (الشحر) .

وأما ابن حوقل[2] كعادته في النقل عن الأصطخري فلم يزد على ما جاء عنده ، وقد أبدع المقدسي[3] بالشرح والتفصيل ، فوضع عنواناً للتجارات ، وذكر تحته أنواعاً كالثياب والعقيق والجلود ، وبعد أن يذكر العديد من أنواع السلع ، ثم يعتذر عن عدم الاستقصاء مخافة إطالة الكتاب ، ويعود في صفحة أخرى ليضع عنواناً آخر وهو (من خصائص نواحي هذا الإقليم) فيذكر ماتشتهر به المناطق اليمنية من منتجات أو صناعات فذكر منها نِيْلَ زبيد وهو نبات تستخرج من ورقه مادة زرقاء تستخدم لصبغ الملابس ، وعقيق صنعاء ، وبرود السحول جمع برد وهو نوع من الثياب (السحول بلد يقع في لواء إب) ، وأصباغ عدن ، ومشروبها ، وهو نوع من العصير يصنع من الفواكه الطبيعية ، ويبدو أنه كان يروق للمقدسي[4] ولهذا قال عنه : « وشروب عدن يفضل على القصب » .

وبما أن اليمن بلد زراعي تقوم حياته كلها على الزراعة ، فإن من البداهة أن لا يغيب هذا الجانب عمن يرتاد اليمن ، ـ كائناً من كان ـ فما بالك بمن يحرص على تدوين مشاهداته الاقتصادية بوجه خاص ، ولهذه البداهة نفسها لن نقف كثيراً لنسجل هذه المشاهدات خوفاً من الإطالة .

ولكننا نشير إلى أن رحالاتنا وهم ينتقلون بين المناطق ، كانوا حريصين على وصف الطريق والمحطات والمدن والقرى ، ثم يذكرون المزروعات والمزارع ،

---

(١) مسالك الممالك ٢٥

(٢) صورة الأرض ٤٤

(٣) أحسن التقاسيم ٩٧ ، ٩٨

(٤) المصدر نفسه ٩٨

وكيفية سقيها بالآبار أو العيون أو الأمطار ، وموسم نزول الأمطار[١] ، ويحكي لنا ابن خرداذبه[٢] إحدى طرائفه عن الأمطار فيقول : « فمطر صنعاء وما والاها حزيران (يونيو) ، وتموز (يوليو) ، وآب (آغسطس) ، وبعض أيلول (سبتمبر) ، من الزوال إلى المغرب يلقى الرجل الرجل نصف النهار فيكلمه فيقول : عجل قبل الغيث . لأنه لا بدَّ من المطر في هذه الأيام » .

وأما المقدسي[٣] فيذكر لنا المناطق المشهورة بكثرة الفواكه كصنعاء ، وكثرة الذرة كبعض تهامة (الشرجة ، الحردة ، عطنة) ووصفها بأنها خزائن الذرة ، ومنها تنقل إلى عدن ، ثم إلى خارج اليمن .

ولا ينبغي أن نغفل ما يصل من هذا الخير كله إلى خزائن الدولة أو الدويلات التي كانت لها السيادة على اليمن في هذا القرن .

فالموارد المالية للدولة أو الدويلات المتعددة مسألة هامة في الرؤية الاقتصادية إلا أنها لم تسجل بتفصيل عند جميع الرحالة ، فابن خرداذبه[٤] وقدامة[٥] رجع كل منهما إلى وثائق حكومية ـ بحكم منصبهما ـ فوجدا في سجلات ديوان الخراج أن أكثر ما ارتفع أي حُصِّل من اليمن في الدولة العباسية كانت ستمائة ألف دينار ، ولم يخبرنا ابن خرداذبه متى كان هذا ، إلا أن قدامة ينبّه إلى أنه رجع إلى الوثائق المالية المدونة من سنة ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م . أما ما قبل هذا فقد أحرقت السجلات في الفتنة التي حصلت بين الأمين والمأمون عام ١٨٣ هـ / ٧٩٩ م . ثم

---

(١) ابن خرداذبه ، المسالك والممالك ١٣٤ ، ١٣٦ ، ١٥٩ . قدامة ، الخراج ١٨٨ . الأصطخري ، مسالك الممالك ٢٤ . ابن حوقل ، صورة الأرض ٤٣

(٢) المسالك والممالك ١٥٩

(٣) أحسن التقاسيم ٨٥ ، ٨٦

(٤) المسالك والممالك ١٤٤

(٥) الخراج ١٣٦ ، ٢٤٩ ، ٢٥١

يأتي في موضع آخر بعد أن يثبت ماأخذ من اليمن ، يذكر بعدها مباشرة ماأخذ من البحرين عام ٢٣٧ هـ / ٨٥٨ م : وحسب معرفتنا بتدهور نفوذ الدولة العباسية في اليمن في النصف الثاني من القرن الثالث فلا يؤهل الدولة أن تجبي تلك الأموال في حال ضعف نفوذها ، فيترجح لدينا أن هذا كان في النصف الأول من القرن الثالث الهجري .

وقد فهم المقدسي[١] من عبارة ابن خرداذبه أن أرض اليمن خراجية ، فأخذ عنها ذلك المال كخراج ، بينما هو يؤكد ، على أنه وجد في ديوان الخراج أن أحد عمال اليمن تحصل منها ستمائة ألف دينار .

وربما كان ديوان الخراج مقصوراً على الأموال الخراجية ، بينما الأموال العشرية (أو الزكاة) تدخل إلى ديوان آخر وهو المسمى ديوان الصدقات[٢] . وأن هذا هو الذي جعل المقدسي يبدي دهشته من أخذ الخراج عن اليمن ، ويؤكد على هذا ابن رسته[٣] بأن اليمن عشرية ، وأنه لم يتغير هذا الوضع إلا في عهد بني يعفر ، حينما قرروا على صنعاء وقراها مائتي ألف دينار في السنة ، وكان هذا أيضاً في منتصف القرن الثالث الهجري ، فلا يدخل ضمن مجريات القرن الرابع الذي ندرسه ، ولذلك فإن المعلومات التي تفيدنا في القرن الرابع في هذا الشأن ، هي تلك المعلومات التي جاءت عند ابن حوقل والمقدسي فقط . ونبدأ بابن حوقل[٤] حيث رتب الأمر حسب القوى ذات النفوذ في اليمن ومقدار ماتحصله من أموال ، فجعل الدولة أو القوة التي تتحصل أكثر في البداية ثم الأقل وهي على النحو التالي :

---

(١) أحسن التقاسيم ١٠٥

(٢) صبحي الصالح ، النظم الإسلامية ٣١٤

(٣) الأعلاق النفيسة ١١٢

(٤) صورة الأرض ٣١ ـ ٣٣

أولاً ـ الدولة الزيادية بعد وفاة أبي الجيش إسحاق بن إبراهيم بن زياد كان يأخذ من عشور التجارة ما يزيد على خمسمائة ألف دينار عثري (ولا ندري قيمة هذا الدينار لأنه دينار محلي) .

وكان المتقبل لزبيد يدفع لخزينة الدولة مائتي ألف دينار عثري ، وتصل إلى خزينة الدولة من عدن وما يدخلها ويخرج عنها مائتا ألف دينار عثري تقريباً ، وقد تزداد هذه الضريبة أكثر من هذا بكثير وربما نقصت قليلاً .

بالإضافة إلى الضرائب المفروضة على الجزر المطلة على عدن . والأموال التي تصل إلى الدولة الزيادية من الحبشة للصلات الحسنة بين الجانبين .

ثانياً ـ دولة الحكميين في المخلاف السليماني وعاصمته مدينة عثَّر الساحلية ، فالذي يصل إليه نصف ما يصل إلى الزياديين .

ثالثاً ـ دولة بني يعفر في عهد أسعد بن أبي يعفر كان ما يصل إلى خزائنه في حدود أربعمائة ألف دينار .

رابعاً ـ الدولة الزيدية في صعدة وكانت تتحصل أموالها من مستغلات المدابغ (مصانع الجلود) وفرض ضرائب على القوافل التجارية ، ومجمل ما تتحصله كان يقارب نصف ما تتحصله دولة الزياديين وهي متنوعة .

صدقات (زكاة) وأعشار (على التجارة) وخراجات ، ولا أدري ما يقصد بالخراجات هنا ، هل هو الخراج المعروف المفروض على الأرض الخراجية التي فتحها المسلمون عنوة وظلت بيد أهلها ، وهذا لا يوجد في اليمن على وجه اليقين أم هو صنف آخر من إيرادات الدولة مما تمتلكه من عقارات وأبنية . إلخ ...

أما المقدسي[1] فقد اختار عنواناً أسماه (الضرائب والمكوس) ، فلا يذكر مجمل

---

(١) أحسن التقاسيم ١٠٤ ، ١٠٥

ماتتحصله خزائن الدويلات هذه ، وإنما يـذكر أنواعـاً من السلع ومـا عليهـا من ضرائب ، فيأخذ في عـدن وكمران وعثر دينـار عن كل (سَلَّـة) زعفران تخرج من هذه المناطق وأن الأمتعة تقوَّم « بالزكاوية ثم يؤخذ عشرها عثريـة » ، ثم يقول : « وقدروا أنه يصل إلى خزانة السلطان ثلث أموال التجـار » وهو مجرد تخمين ربمـا دار بين التجار الذين اختلط بهم المقدسي[1] .

ويصف نقـاط التفتيش التجـاريـة بـأنهـا نقـاط دقيقـة صعبـة في كل مـدن السواحل لتحصيل ما يؤخذ من القوافل التجارية والمراكب البحريـة ، ففي بـاب زبيد يؤخذ عن حمل المسك دينار ، وعن حمل البز (القماش) نصف دينـار ، أمـا في صعدة فلا تؤخذ ضريبة من أحد ، وإنما يؤخذ ربع العشر من التجـارة ، وهي النسبة المقررة شرعاً .

وهكذا.نكون قد تجولنا مع رحالاتنا وشاهدنا ماشـاهـدنـاه في حقبـة زمنيـة تبعد عنا حوالي ١١٠٠ عام .

---

(١) جاء في هامش المخطوطـة مـا يؤكـد هـذا الرأي وهو : « وسمعتهم يـذكرون أنـه يصير للسلطـان الثلث من أموال التجار » .

زبيد بأقلام الرحالة

دراسة للنصوص التي وردت عن زبيد في كتب الرحالة حتى منتصف القرن الثامن الهجري[☆]

تربّعت مدينة زبيد على عرش المكانة السياسية والاقتصادية والعلمية حقبة طويلة من تاريخ اليمن ، وقد تناولتها الأقلام اليمنية وصفاً وتمجيداً وإشادة ، وهي مازالت في حاجة إلى دراسات جادّة تسبر أغوار نواحيها المختلفة سياسية واجتماعية واقتصادية وعلمية ، لأن هذه الدراسات إذا ماأقيمت يفترض ألا تكون إضافة مكرّرة للأوصاف التي ذكرت في كتابات اليمنيين عن زبيد ، وإنما يراد لهذه الدراسات أن تحي الماضي في كتابات ثرّة تقوم على الاستقراء والتحليل ، مع الاستفادة من البحوث الآثارية التي تؤكد أو تنفي الثوابت التاريخية .

وهذه الدراسة التي بين يدي القارئ لاأزعم أنها جديدة كل الجدّة ، ولكنها تخدم مدينة زبيد من جانب هام ، وهو رؤية القادمين إليها ورصدهم لما يدور فيها .

وتحاول هذه الدراسة أن تأخذ تلك الرؤية كمادة وثائقية تعبر مع كل رحالة الزمن الذي عاشه والملابسات التي كانت سائدة في عصره ، فترسم المدينة في تلك الأزمنة المختلفة ، وترصد ماجدَّ فيها بمختلف نواحيها : العمرانية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية .

(☆) بحث نشر في مجلة كلية الآداب ، جامعة صنعاء ، العدد ١٢ ، السنة ١٩٩١ م .

وجود المدينة وموقعها

الجغرافيون والرحالة الأقدمون وهم يتحدثون عن زبيد لم يوردوها في كتاباتهم كمدينة ، ولكنهم يذكرونها باعتبارها اسم لمخلاف . فاليعقوبي أحمد بن يعقوب بن واضح[1] (ت ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م) لم يزد على ذكر زبيد كأحد مخاليف اليمن . وجعل مدينة هذا المخلاف هي (الْحُصَيْب)[2] وهو الاسم القديم لمدينة زبيد . وإذا كان اليعقوبي من أقدم من كتب في هذا المجال ، فإن ابن رسته (توفي بعد ٢٩٠ هـ / ٩٠٣ م) وهو معاصر لليعقوبي لم يذكر زبيد البتة بينما ذكر مأرب مما يوحي بأن مدينة زبيد في هذه الآونة لم تكن قد تبوأت مكانة سياسية مرموقة .

ويأتي على إثر هذين الجغرافيين ابن خرداذبه أبو القاسم عبيد الله[3] (توفي في حدود ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م) وهو الخبير ببلدان دار الإسلام فيذكر زبيد كأحد مخاليف اليمن ، ولكنه يزيدنا بعض التوضيح فيحدد موقعه بأنه بإزاء ساحل غلافقة[4] وساحل المندب ومخلاف رمع[5] ، والمسافة بينه وبين مخلاف جبلان (ريمة ووصاب) اثنا عشر فرسخاً . وبين جبلان وصنعاء اثنان وثلاثون فرسخاً ، فيكون بين زبيد وصنعاء أربعة وأربعون فرسخاً (حوالي ٢٤٤ كلم) ويمرّ في مخلاف زبيد الطريق الساحلي القادم من مكة إلى عمان فيمرّ بالمندب ، ثم مخلاف زبيد ، ثم غلافقة ، ثم مخلاف عك .

---

(١) البلدان ٣١٨ ، ٣٢٠ .

(٢) الْحُصَيْب : هي قرية وادي زبيد أي أن الحصيب هي في الأصل مدينة زبيد . (الهمداني) ، صفة جزيرة العرب ٧٣ ، ٧٤ ، ٢٥٨ .

(٣) المسالك والممالك ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٤٨ .

(٤) غلافقة : أو غليفقة كانت ساحل زبيد المشهور (صفة جزيرة العرب ٦٨) .

(٥) رِمَع : بكسر الراء وسكون الميم أحد الوديان الكبيرة التي تصب في البحر الأحمر (المقحفي ، معجم البلدان والقبائل اليمنية ٢٨٢) .

ويضيف قدامة بن جعفر[1] (ت ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م) - وهو الخبير بشؤون البريد والسكك البريدية - معلومات جديدة فيرسم الطريق الممتدة من عمان إلى مكة عبر الساحل ، فيتحدث عن المخاليف التي تمرّ بها الطريق ، فقال : « ... مخلاف الركب المندب ، مخلاف رمع زبيد ، مختف عك الحردة » وبالرغم من توافق هذا النص مع ماجاء عند ابن خرداذبه إلا أن تفصيل قدامة يشي بأمر آخر ، وهو أن كلّ مخلاف له عاصمته أو قصبته ، فمخلاف الركب قصبته المندب ، ومخلاف رمع قصبته زبيد ، ومخلاف عك قصبته الحردة ، وهذا يخالف ماذكره ابن خرداذبه لأنه عدّ رمع مخلافاً وزبيد مخلافاً ، بينما قدامة بإشارته هذه يعطي لمدينة زبيد وجوداً كعاصمة للمخلاف . فهل أصبح للمدينة قبيل وفاة قدامة بن جعفر مكانة سياسية خاصة ، حتى اعتبرها عاصمة للمخلاف ؟ إن هذا الاحتمال يؤكد ماذهبنا إليه[2] من أن آل زياد ماوجدوا كقوة لها أثراً حقيقياً إلا أوائل القرن الرابع الهجري ، لأن قدامة يطرح نصه الصريح بوجود مدينة زبيد كعاصمة للمخلاف ، وهذا مالم يقله ابن خرداذبه الذي مات قبله أو على الأقل أنه ألّف كتابه قبل كتاب قدامة ، وبالرغم من هذا الاستنتاج الذي قد يكون فيه شيء من المبالغة ، إلا أن صيغة أخرى وردت عند قدامة[3] لم يذكر فيها المدينة ، ولكنه ذكر مخلاف زبيد وجعل رقمه المخلاف الثالث عشر ، وهو بهذا يوافق اليعقوبي الذي سبقه في التأليف وربما نقل عنه أو هو توافق في المعلومات لشهرتها .

وتعطينا هذه المعلومة استنتاجاً محدداً وليس افتراضاً ، وهو أن مدينة زبيد مازالت في أوائل القرن الثالث خاملة الذكر غير مشهورة كعاصمة دولة أو ولاية ، ولم تكن لها مميزات تنفرد بها عن غيرها .

---

(١) أبو الفرج ، الخراج ٢٤٧ - ٢٤٨ (ملحق بالمسالك والممالك) .

(٢) انظر : تفصيل ذلك في بحث نشأة الدولة الزيادية ص ٦٥ من هذا الكتاب .

(٣) الخراج ٢٤٨

ولعـلّ الأصطخري (ت ٣٤١ هـ أو ٣٤٦ هـ / ٩٥٢ أو ٩٥٧ م) صـــاحب المكانة الجغرافية الهامة عنـد البـاحثين من خلال كتـابـاتـه الجغرافيـة يؤكـد هـذا الرأي ، فقد أهمل مدينة زبيد تماماً ولم يذكرها قط بالرغم من أن المدينة ـ في هذه الآونة ـ أصبحت تلعب دوراً سياسياً هاماً لكونها صارت عاصمة الدولـة الزيـاديـة على وجه التأكيد ، ويبدو أن سبب عدم ذكر الأصطخري لهـا اعتماده الكامل على كتاب أستاذه أبي زبيد البلخي (ت ٣٢٢ هـ / ٩٣٤ م) (صور الأقـاليم) ، وهو جغرافي كتبي عاش بين الكتب ، وألّف كتـابـه من خلالهـا دون أن يرحل . وقـد تبعه الأصطخري في هذا المسلك ، وكان يصرّح به في بعض الأحيان حينمـا ينسب معلوماته إلى مصادر مجهولة بصيغة (بلغني) .

ولم يفـدنـا أبو القـاسم ابن حوقل[١] (ت ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م) بشيء عن موقع ووجود مدينة زبيد لأنه حذا حذو الأصطخري إن لم يكن قد نقل مـا كتبـه هـذا حرفيـاً ، ومع هـذا فقـد رسم خريطـة بـدائيـة لـديـار العرب[٢] ، ثم قرئت هـذه الخريطة ولا أدري من الذي قرأها ، هل هو ابن حوقل نفسه أم النـاشر ، والـذي يهمنا في هذه القراءة أنه ذكر بعض المدن التهامية فجعل منها مدينة زبيد .

وقـد تلافى ابن حوقل القصور والنقل الكامـل عن الأصطخري ، بـإمـدادنـا بمعلومات أكثر أهمية عن الوضع السياسي والمالي لمدينة زبيد ، ممـا يـدل على وجود فعلي للمدينة في القرن الرابع ، ليأخذ لقب أول من كتب عن دور زبيد السيـاسي وتميزها .

أما محمد بن أحمد المقـدسي[٣] (توفي نحو ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م) فقـد كانت لفتتـه

---

(١) له كتاب (صورة الأرض) من منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت .

(٢) المصدر نفسه ٢٨ ، ٣٠

(٣) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ٦٩ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ١١٣

التعبيرية لها مغزاها الدقيق ، حيث جعل مدينة زبيد قصبة تهامة ، ويصفها بأنها « بلد نفيس ليس باليمن مثله » وأنه « بغداد اليمن » ، وهذا يعني أن مدينة زبيد قد تسنمت قيادة تهامة في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري . وقد جعل المسافة بين صنعاء وزبيد اثنين وأربعين فرسخاً (أي حوالي ٢٣٣ كم) وهي مسافة قريبة مما ذكره ابن خرداذبه كما سبق ، إلا أن ابن بطوطة (ت ٧٧٠ أو ٧٧٩ هـ/١٣٦٨ أو ١٣٧٧ م)[1] جعل بينها وبين صنعاء أربعين فرسخاً (أي حوالي ٢٢٢ كم) .

وقد تحدث عن زبيد الرحالة الإسماعيلي ناصر خسرو[2] (ت حوالي ٤٨١ هـ / ١٠٨٨ م) الذي بدأ رحلته عام (٤٣٧ هـ / ١٠٤٥ م) وأنهاها عام (٤٤٤ هـ / ١٠٥٢ م) فذكر مدينة زبيد ضمن مدن تهامة ، وقد أخطأ خطأ فاحشاً لأنه جعل مدن تهامة الممتدة على الساحل هي صعدة وزبيد وغيرها وأن « هذه المدن مشيّدة في الصحراء » ، وهذا الخطأ الفاحش يدلّ على عدم وصوله إلى اليمن ، وإنما وصلته المعلومات بصورة مغلوطة ، أو أنه دخل بعض المناطق ، أو دخل ساحل تهامة ، وتصور أن بقية مدن اليمن هي على الساحل .

أما ابن المجاور[3] (ت ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م) الذي كان في اليمن بين عامي ٦١٩ ـ ٦٢٥ هـ / ١٢٢٢ ـ ١٢٢٨ م[3] فلم يعد في حاجة إلى أن يذكر موقع مدينة زبيد لأنها كانت من الشهرة ما لا تحتاج معها إلى تعريف ، ولم يذكر سوى كلمة ، ربما أخذها من مصدر مكتوب فلم تكن مستقيمة مع مكانتها ، فقال : « مدينة زبيد هي مدينة الْحُصَيب من اليمن » . لأنها لم تعد خاصة بوادي الْحُصَيب بل أصبحت قصبة تهامة .

---

(١) رحلة ابن بطوطة المسماة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) ١٦٥

(٢) سفر نامه ١٢٤ ، ١٢٥

(٣) كتاب المستبصر ٥٥

وبما أن ابن بطوطة[1] الرحالة الشهير دخل اليمن حوالي سنة ٧٣١ هـ / ١٣٣٠ م فقد وصف مدينة زبيد بأنها مدينة برية لا شطية ، وهي إحدى قواعد بلاد اليمن ، وتقع في وادي الْحُصَيْب ، وليس باليمن بعد صنعاء أكبر منها ولا أغنى من أهلها ، فهي مدينة كبيرة كثيرة العمران .

وعاصر ابن بطوطة جغرافي مشهور وهو عماد الدين إسماعيل بن محمد المعروف بأبي الفداء[2] (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) فوصف زبيد بأنها « قصبة التهائم وهي في مستوٍ من الأرض عن البحر أقل من يوم »[3] . ونقل عن البيروني (ت ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م) بأنها فرضة اليمن وفرضة زبيد غلافقة ، أي أن صلة اليمن بالبحر يتمّ عن طريق زبيد ثم غلافقة ، ويكفي هذا الوصف للتعريف بمدينة زبيد .

لقطات عن الدور السياسي للمدينة

وإذا كنا قد تحدثنا عن موقع زبيد كبلد ومخلاف ومدينة ، فإننا لا بدَّ أن ننتقل إلى الحديث عن الدور السياسي للمدينة في عصورها المختلفة ، مستلهمين النصوص القصيرة اللامحة التي لوح بها الجغرافيون والرحالة .

وأول تلويح جغرافي كان يعتبر زبيداً أحد مخاليف اليمن حيث عدّه قدامة بن جعفر[4] ـ وهو الإداري المتخصص ـ المخلاف الثالث عشر من مخاليف اليمن ، التي بلغت عنده واحداً وعشرين مخلافاً .

---

(١) تحفة النظار (رحلة ابن بطوطة) ٢٥٠

(٢) تقويم البلدان ٨٨ ، ٨٩

(٣) اليوم = ٤٤,٣٥٢ كيلومتراً ، أي أن المسافة هي أقل من هذا الرقم ، وبالتحديد الدقيق فإن المسافة بين زبيد والبحر هي : ٢٧ كم .

(٤) الخراج ٢٤٨

وحينما يذكر الأموال الواردة إلى خزينة الدولة العباسية من ولاية اليمن يذكر هذه الأموال بصورة إجمالية فلا يخصصها بخلاف بعينه بالرغم من علمنا الأكيد بأن الدولة الزيدية كانت تقبض على جزء كبير من المناطق الواقعة في شمال صنعاء . وأن دولة بني يعفر كان لها الصولة والجولة على قسم واسع من اليمن ، وفي الوقت ذاته كانت قوة بني زياد في تنامٍ وظهور على مشارف القرن الرابع الهجري .

وقد أشار الهمداني[1] (ت ٣٥٠ أو ٣٦٠ هـ / ٩٦١ أو ٩٧١ م) ـ الذي عاش حياته العلمية والسياسية في النصف الأول من القرن الرابع الهجري ـ إلى أن (الشراحيين) هم الرأس من الجميع في زبيد ، وقد جاؤوا إليها من (جُبْلاَن العركبة) التي تقع بين وادي زبيد ووادي رمع[2] ، ولكن ربما كانت إشارته هذه تعبر عما كان عليه الوضع في زبيد أوائل القرن الرابع الهجري . ومع هذا فقد أخبرنا أن ابن زياد صاحب زبيد كان له دور في إطلاق سراحه[3] من سجن الناصر بن الهادي أو سجن أسعد بن أبي يعفر بالاتفاق مع الناصر .

ونحن على معرفة بالزمن الذي أشار فيه الهمداني إلى سجنه ، وهو العقد الثاني من القرن الرابع الهجري ، كما ألمح إليه الهمداني نفسه في كتابه (سرائر الحكمة)[4] .

ومن هنا نعرف تماماً أن ابن زياد الذي ورد عند الهمداني لا يعدو أن يكون محمد بن زياد الذي شارك آل يعفر وغيرهم من القوى اليمنية في القضاء على

---

(١) صفة ٢٥٩

(٢) المصدر نفسه ٢٢٢ . جُبْلاَن العركبة : هي اليوم مدينة خربة في ناحية وصاب العالي (معجم المقحفي ١٢١) .

(٣) الإكليل ٤٢٨/١

(٤) المقالة العاشرة من سرائر الحكمة ٩٦ ـ ٩٩

القرامطة ، وأصبحت له مكانة خاصة بذلك ، فاحتلوا المكانة التي كانت للشراحيين في زبيد .

وقد قرَّر المقدسي[1] أن آل زياد هؤلاء ينتسبون إلى همدان ، وهذا يخالف ما ذهب إليه عمارة من نسبتهم إلى الأمويين .

ولا نستطيع أن نكذّب ماقاله المقدسي ، ويمكننا أن نأخذ تقريره هذا حقيقة مسلمة ونرفض ماقاله عمارة للاضطراب الواضح في رواياته ، ولمعاصرة المقدسي لبني زياد ، وربما عرف ذلك منهم مباشرة أو من المقربين إليهم ، أو سجل ما هو مشهور عنهم في اليمن .

ويؤيد ماذهبنا إليه أن المسعودي[2] (ت ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م) وهو الرحالة الجغرافي المؤرخ الشهير ، وكان معاصراً للهمداني يخبرنا عن أمير زبيد عام ٣٣٢ هـ / ٩٤٣ م بأنه يعرف بإبراهيم بن زياد صاحب الحرملي . فالحرملي هو الأمير العباسي على منطقة تهامة من قبل أمير مكة التابع للدولة العباسية ، وصاحبه التابع له أمير زبيد إبراهيم بن زياد ، وليس لدينا شك بأنه إبراهيم بن محمد بن زياد ، وليس هو إبراهيم بن زياد بن إبراهيم بن محمد بن زياد كما قد يُعْتَقَد ، لأنه لم يأت النصف الثاني من القرن الرابع الهجري حينما كتب ابن حوقل كتابه (صورة الأرض) إلا وهو يحدثنا عن أبناء أبي الجيش إسحاق بن إبراهيم بن محمد بن زياد[3] محدداً ملكهم بدقة ، حيث كان « يمتد من الشرجة [شمالاً] إلى عدن [جنوباً] ، طولاً على ساحل البحر ، وأرض تهامة اليمن ، ويكون مقدار ذلك اثنتا عشرة مرحلة [أي ٣٦٦ كم] وعرضه من الجبال

---

(١) أحسن التقاسيم ١٠٤

(٢) مروج الذهب ومعادن الجوهر ١٩٨/١

(٣) صورة الأرض ٣١ ، ٣٢

إلى ساحل اليمن من عمل غلافقة . ويكون مقداره مسيرة أربع مراحل [أي ١٢٢ كم] » وامتد نفوذهم إلى بعض الجزر في البحر الأحمر كجزيرة (دهلك) وتربطهم بالحبشة علاقات وديّة .

مؤكداً على هذه المكانة السياسية من خلال السياسة المالية الواسعة ، التي تنبئ عن دولة ذات مكانة سياسية هامة ، أهلتها لبسط نفوذها على المنافذ البحرية والبرية في تهامة حتى عدن والجزر المواجهة لتهامة اليمن .

ومع هذا جعلهم تابعين للفاطميين في مصر وأنهم يخطبون باسمهم ، ولا شك أنه لم يكن موفقاً في هذا القول ، بل كان مجاملاً للفاطميين .

أما المقدسي[١] (ت ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م) الذي كتب كتابه بعد ابن حوقل فقد جعل مدينة زبيد مستقر ملوك اليمن . هذا الوضع كان في العقد السابع من القرن الرابع الهجري في الوقت الذي كانت فيه المناطق الجبلية الداخلية من اليمن ممزقة تتعاورها القوى المتصارعة ولا يجمعها جامع ، وبقايا آل زياد يتحكم فيهم عبيدهم نيابة عن الأطفال من أمراء بني زياد . إلا أن وضعهم كان مستقراً ، وسيطرتهم كانت مستحكمة ، والأموال تدرّ عليهم من كل مكان ، لأنهم تحكموا في منافذ اليمن البحرية ، فصار نفوذهم يصل إلى المناطق الداخلية من اليمن ، ولكن ليس عن طريق السيطرة المباشرة ، وإنما بوسيلة إغداق الأموال على بعض زعماء صنعاء أو المتغلبين على صنعاء ليخطبوا باسم آل زياد[٢] .

ونتجاوز حقبة المقدسي لنلتقي برحالة إسماعيلي وهو ناصر خسرو الذي ألّف كتاباً اسمه (سفرنامه) باللغة الفارسية . وقد بدأ رحلته عام ٤٣٧ هـ / ١٠٤٥ م ، وانتهى منها عام ٤٤٤ هـ / ١٠٥٢ م ، فتحدث عن تهامة ،

---

(١) أحسن التقاسيم ٨٤ ، ٨٥

(٢) أحسن التقاسيم ١٠٤

وأن أميرها هو عبد حبشي من أبناء شادول[1] ، والمدهش ذكر اسم (شادول) ، وهو اسم لم يرد في أي مصدر من المصادر التي نعرفها ، وقد صحَّح المحقق الكلمة بنقله تعليقاً للأستاذ حمد الجاسر بأن الصحيح هو ابن سلامة من موالي آل زياد . ومن جانبي أرى أن العبد الحبشي ليس هو الحسين بن سلامة ، لأن هذا توفي في مطلع القرن الخامس الهجري ، وناصر خسرو قام برحلته في العقد الرابع من القرن الخامس ، وهذا التاريخ هو تاريخ تواجد الدولة النجاحية بزعامة نجاح الحبشي الذي حكم من عام ٤١٢ ـ ٤٥٢ هـ/١٠٢١ ـ ١٠٦٠ م ، وهي الدولة التي خلفت بني زياد (٤١٢ ـ ٥٥٤ هـ/١٠٢١ ـ ١١٥٩ م) ، فناصر خسرو إذن لم يعاصر آخر الدولة الزيادية ، وإنما عاصر دولة بني نجاح ، وربما كان هؤلاء ـ وهم من الحبشة ـ ينتسبون إلى (شادول) هذا . ولقد تعاقبت على زبيد بعد بني نجاح دول كانت أولها بني مهدي (٥٥٤ ـ ٦٥٩ هـ / ١١٥٩ ـ ١١٧٣ م) ، وكانت كلّ من دولة بني نجاح ودولة بني مهدي معاصرة للدولة الصليحية الإسماعيلية المرتبطة بالفاطميين بمصر[2] (٤٢٩ ـ ٤٩٢ هـ / ١٠٣٧ ـ ١٠٩٨ م) ليخلف هؤلاء جميعاً الأيوبيون على معظم اليمن (٥٦٩ ـ ٦٢٦ هـ / ١١٧٣ ـ ١٢٢٩ م) .

ولم يظهر رحالة في الحقبة الممتدة بين ناصر خسرو في القرن الخامس الهجري وابن المجاور في الربع الأول من القرن السابع الهجري الذي كان له الفضل في إمدادنا بمعلومات هامة عن زبيد .

وقد أمدنا ابن المجاور[3] بقائمة الولاة الأيوبيين الذين حكموا زبيد . يحسن بنا أن نذكرهم ونضيف مدد حكمهم .

---

(١) سفر نامه ١٢٥

(٢) انظر إن شئت الحريري ، معالم التطور السياسي في دولة بني نجاح باليمن وعلاقاتهم بالصليحيين

(٣) المستبصر ٧٤ ، ٧٥

فأوَّل من تولى زبيد من الأيوبيين شمس الدين توران شاه بن أيوب لمدة عامين (من شوال ٥٦٩ هـ / مايو ١١٧٤ م ، إلى رجب ٥٧١ هـ / أبريل ١١٧٦ م) ، وبعده سيف الدولة مبارك بن كامل بن مقلد بن منقذ ، وبعده خطان الذي تولى عامين [وقيل : خطان أخو مبارك] وقد أرسل صلاح الدين صارمَ الدين خَطَّاباً ليقبض اليمن فتصادم مع خطان الذي أراد الاستقلال عن الأيوبيين[1] ، وجاء بعده سيف الإسلام طغتكين بن أيوب (٥٧٩ ـ ٥٩٣ هـ / ١١٨٣ ـ ١١٩٧ م) ، ثم تولى بعده ابن الملك المعزّ إسماعيل ست سنين (٥٩٣ ـ ٥٩٨ هـ / ١١٩٧ ـ ١٢٠٢ م) ، وخلفه الأكراد لمدة سنة ، ليتولى على إثرهم أتابك سنقر (ت ٦٠٨ هـ / ١٢١١ م) عشر سنين ، وجاء بعده الملك الناصر أيوب بن طغتكين (ت ١١ محرم ٦١١ هـ / مايو ١٢١٤ م) عامين ليخلفه عصر الحريم وقد عرفن بالخواتين (جمع خاتون) وكانت على رأسهن أم الناصر نفسه ، ولكن لم يزد حكمهن عن ثلاثة شهور ، ثم تعاور الحكم أمراء متشاكسون تفاوتت فترات حكمهم بين أيام وأسابيع وشهور ، فقد جاء غازي جبريل (ت ٦١١ هـ / ١٢١٤ م) ليتولى ثلاثة أيام ويقال سبعة أيام ، ثم خلفه سليمان شاه بن عمر بن شاهنشاه بن شادي سبعة شهور ، وقد اعتقل (في صفر ٦١٢ هـ / ١٢١٥ م) ليتسلم مقاليد الأمور ، الملك المسعود يوسف بن محمد بن أبي بكر بن أيوب (ت في جمادى الأولى ٦٢٦ هـ / أبريل ١١٢٩ م) .

وبداهة أن الأيوبيين في اليمن كانوا مرتبطين بالسياسة العامة للدولة الأيوبية على وجه العموم ، ومع هذا لم يعرفنا ابن المجاور بعلاقتهم بمن حولهم أو رسم سياستهم المختلفة .

إلا أن سياسة الأيوبيين الداخلية كانت معتمدة على إقامة المنشآت العسكرية

(١) بامخرمة ، تاريخ ثغر عدن ٧٠/٢

والمدنية ، الإدارية فيها والعلمية والمرافقية وتحديد الأوقاف لها ، وقد نالت زبيد من ذلك الشيء الكثير . سنتعرض له عند حديثنا عن العمران إن شاء الله .

أما هنا ، فإننا في حاجة لأن نختم حديثنا عن المكانة السياسية لزبيد عند ابن المجاور بالانتقال إلى رحالة مشهور وهو ابن بطوطة[1] الذي حطَّ رحاله في زبيد عام ٧٣١ هـ / ١٣٣١ م في عهد السلطان المجاهد سيف الدين علي الرسولي (ت ٧٦٤ هـ/١٣٦٣ م) .

أي أننا انتقلنا من عهد بني أيوب إلى عهد الرسوليين الذين تبوأوا المكانة السياسية لليمن قرابة ٢٣٢ عاماً (٦٢٦ ـ ٨٥٨ هـ / ١٢٢٩ ـ ١٤٥٤ م) حيث بدأت هذه الدولة بعد وفاة الملك المسعود وتولى المنصور الأول نور الدين عمر بن علي بن محمد (ت ٦٤٧ هـ / ١٢٤٩ م) الذي عرف بالرسول فنسبت إليه الدولة الرسولية .

وعمر بن علي هذا كان أحد أمراء الدولة الأيوبية ولكنه استغل انهيارها فأعلن استقلاله عنها تماماً .

ولم تكن زبيد في الوقت الذي جاء فيه ابن بطوطة إلى اليمن ذات مكانة متميزة إلا من الناحية العلمية باعتبارها المركز العلمي الهام في الدولة الرسولية . هذه الدولة التي عرفت بدولة العلم والعلماء .

ذلك لأن الدولة الرسولية كانت تتخذ من مدينة تعز مقراً لها وعاصمة لدولتها وميناء عدن مدخلاً لتجارتها .

ومع هذا فقد وصف ابن بطوطة[2] مدينة زبيد بأنه لا يوجد باليمن بعد

---

(١) الرحلة ٩٩٧

(٢) رحلة ١٦٥

صنعاء أكبر منها ولا أغنى من أهلها ، وأنها أملح بلاد اليمن وأجملها ؛ كثيرة البساتين ، كثيرة العمران . ولم يخبرنا ابن بطوطة عن إمارتها ولا إدارتها ، ولكنه توسع في الجوانب الاجتماعية والعلمية وسيأتي الحديث عنها لاحقاً .

المظاهر العمرانية

بادئ ذي بدء لنا ملاحظة حول الاتجاه القائل بتقسيم العمران في المجتمع الإسلامي ومنشآته إلى منشآت دينية ومنشآت دنيوية . فإن هذا التقسيم لا وجود له في المجتمع الإسلامي ، لأن الدين ليس مقصوراً على الشعائر ، وإنما يشمل حياة الإنسان كلها ، وإذا ما ذكر لفظ الدنيا في التعبيرات والنصوص فليس يعني أنه مقابل للدين ولكنه مقابل للآخرة . ومن ثم فإن مصطلح تقسيم الحياة إلى دين ودنيا مصطلح غريب على الحس الإسلامي . وأي شيء يمارس على ظهر هذه الأرض - من منطق إسلامي - هو جزء من الدين ما دام يمارس ضمن مفهوم العبودية المطلقة لله وتحديد الولاء في هذه الأمور كلها لله وحده .

إن تقسيم الحياة إلى ديني ودنيوي هو تقسيم نابع من التصور اللاهوتي عند النصارى الذي يقابله التصور الناسوتي ، وعلى هذا الأساس فالدين في الكنيسة فقط أما خارجها فيمارس الإنسان ما يشاء .

بينما الإسلام يقول : ﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين ﴾ [القصص ٧٧] .

فالمسجد الذي يعتبره الآثاريون منشأة دينية ليس كذلك في الإسلام ، بل كان مؤسسة تقام فيها الشعائر وتنظر فيها أمور الدولة ، وتقام فيها الأحكام ، ويتعلم بها المسلمون ... إلخ ، أي أنها مؤسسة عامة تدار فيها العديد من متطلبات الحياة .

ومن ثم فإن الدنيا كلها هي مزرعة الآخرة ، وإن كل ما يقام في الدنيا لا بد أن يكون لنيل الرضا في الآخرة .

ومن هذه المقدمة نؤكد على أن دراستنا هذه حينما نفصل بين أصناف العمران ما هو إلا تصنيف وتفصيل فني بحت لتوضيح المعلومات وضم بعضها إلى بعض .

ونبدأ بالأسوار باعتبارها أول ما يواجهه المشاهد حينما يدخل إلى المدينة .

فابن المجاور[1] أمدنا بمعلومة هامة عن بناء سور زبيد فقد جعل أول من أدار سوراً حول المدينة هو الحسين بن سلامة ثم بنو مهدي . وعلى الرغم من هذا التقرير الجازم من ابن المجاور إلا أن المقدسي[2] ، وهو سابق على ابن المجاور ، قد ألمح إلى وجود حصن على مدينة زبيد من الطين بأربعة أبواب : باب الغلافقة لأنه يتجه إلى البحر (الغرب) ، وباب عدن المتجه إلى الجنوب ، وباب هشام [هكذا] ، وباب شبارق لأنه مقابل قرية من قرى زبيد ولعلها ناحية الشرق . ويبقى باب هشام هذا وربما يتجه نحو الشمال ، ومن ثم فلا أظن أن الباب يعرف بباب هشام ولكنه باب الشام ، وحصل تحريف خطي للكلمة ، لأن القرى والأعمال التي تقع شمالي زبيد تسمى الشام[3] .

هذه المعلومة التي جاءت عند المقدسي مجهولة الزمن يحاول ابن المجاور أن يربطها بعهد الحسين بن سلامة . فهل معنى هذا أن آل زياد قبل ذلك لم يسوروا المدينة ؟ هل كتب المقدسي ما كتب في عهد الحسين بن سلامة أم في عهد سيده أبي الجيش ؟ إن من المؤكد أن المقدسي حينما كتب كتابه كان في عهد خلف

---

(١) المستبصر ٧٣

(٢) أحسن التقاسيم ٨٤

(٣) ابن المجاور ، المستبصر ٥٦

أبي الجيش لأن ابن حوقل المتوفى (عام ٣٦٧ هـ) نص صراحة على أن متولي زبيد هو خلف (أولاد) أبي الجيش . وقد كتب المقدسي كتابه بعد ابن حوقل ، ومن ثم فلا صحة لتحديد وفاة أبي الجيش بعام ٣٧١ هـ/ ٩٨١ م كما ذكره عمارة[١] ، وتبعه من جاء بعده كابن خلدون[٢] ، فيكون قد توفي قبل ذلك وتولى بعده خلفه ولم يعينه لنا ابن حوقل ، وربما كان هو الحسين بن سلامة ، وربما كان هو (الأستاذ)[٣] الحبشي رشيد الذي كان يتولى منصب الوزارة ويكفل ابن أبي الجيش[٤] ، ولكننا نرجح أن يكون علي بن إبراهيم وهو أخو أبو الجيش[٥] ، إلا أن نصاً تاريخياً يعطينا بعداً تاريخياً أكثر من ذلك ، فيخبرنا بأن مدينة زبيد لم ينفرد بها آل زياد باتخاذها عاصمة لهم ، بل قد سبقهم الشراحيون الذين خرجوا أيام المأمون بقيادة عبد الله بن يوسف الشراحي فملك مدينة زبيد وسورها وجعل فيها جامعاً وقاضياً ، وأصبح يخطب باسم المأمون ويطبع السكة باسمه إلا أنه لا يرسل إليه شيئاً من المال[٦] .

وهذا النص يجعل آل زياد هم ورثة المدينة بعد الشراحيين الذين بنوا السور أو الحصن الذي ذكره المقدسي ، وربما قد أضاف الزياديون شيئاً إلى هذا السور ، حتى إذا ما جاء الحسين بن سلامة جعل سوراً دائرياً حول المدينة ، ولم يكن هو أول من أقام هذا السور كما قال ابن المجاور ، وإنما يرجع إلى أن المدينة كانت قد

---

(١) عمارة ، تاريخ اليمن المسمى (المفيد في أخبار صنعاء وزبيد) ٤٠

(٢) تاريخ ابن خلدون .

(٣) الأستاذ : لقب استعمل منذ العصر العباسي فكان يطلق على الخصيان من الغلمان فقد أطلق على كافور الأخشيدي عام ٣٥٠ هـ (الباشا) ، الألقاب الإسلامية ١٣٩

(٤) عمارة ، تاريخ اليمن ٤٠ . الوصابي ، الاعتبار في التواريخ والآثار ٢٧ . ابن الديبع ، بغية المستفيد في تاريخ زبيد ٤٠

(٥) راجع ص ٨٠ من هذا الكتاب .

(٦) الوصابي ، الاعتبار ١٠١

توسعت في عهده خارج الأسوار القديمة ، فأدار سوراً حول المدينة كلها جديدها وقديمها .

وهكذا نستطيع أن نؤكد على أن زبيد كانت مدينة من مدن تهامة في العهد الإسلامي كله ، حتى إذا كان مطلع القرن الثالث ظهر بعض الأمراء المحليين عرفوا بالشراحيين ، فاتخذوها مقراً لهم وبسطوا سيطرتهم على تهامة من خلالها ، وأصبحت حاضرة ملكهم ، واتخذوا لها الأسوار ، فجاء بنو زياد من بعدهم آخر القرن الثالث ومطلع القرن الرابع ليخلفوا الشراحيين في ملكهم في مدينة زبيد . ومن البديهي أن تكون هذه المدينة في غضون قرن من الزمان قد أصبحت مدينة عامرة بالمظاهر الحضارية وبالتوسع العمراني ، فلا يبعد أن يتخذ بنو زياد الوسائل الكفيلة لتنظيم مدينتهم وتسويرها وتأمين منافذها من أي هجوم متوقع ، أو لضبط النواحي المالية حينما تفرض الضرائب على الداخل أو الخارج منها . فابن حوقل[١] وهو يحدثنا عن الضرائب التي تؤخذ في زبيد بأنها تفرض على كل من يدخلها أو يخرج منها يشعر القارئ بأن سوراً يحيط بالمدينة وأبواباً تتحكم فيها ، ويكون ابن حوقل قد ذكر السور الذي ذكره المقدسي عملياً دون ذكره لفظاً .

وقد أضاف ابن المجاور[٢] ـ الذي دخل اليمن في الربع الأول من القرن السابع الهجري ـ معلومات قيمة عن الأسوار الأخرى التي بنيت حول زبيد في عهود متعاقبة .

فالنجاحيون بنو سوراً آخر حول المدينة ، ويبدو أن المدينة توسعت فبني السور حول الجديد من المدينة[٣] .

---

(١) صورة الأرض ٣٢

(٢) المستبصر ٧٣ ، ٧٤

(٣) وقد أشار إلى هذا السور ابن الديبع في بغية المستفيد ٣٥ ، ٥٩ ، وأن الذي بناه هو أحد وزراء بني نجاح المعروف بأبي منصور من الله الفاتكي في بضع وعشرين وخمسمائة .

ثم جاء بنو مهدي وأداروا سوراً ثالثاً حول المدينة ، ولا شك أن هذا السور دخل فيه البناء الجديد الذي نشأ بعد ذلك .

وقد خلف بني مهدي الأيوبيون ، فأدار سيف الإسلام طغتكين بن أيوب سنة ٥٨٩ هـ/١١٩٣ م سوراً رابعاً حول المدينة ، وكان لهذا السور أربعة أبواب أيضاً : باب غلافقة ينفذ إلى غلافقة أي إلى الغرب ، وباب سهام وهو لا شك المتجه إلى الشمال لأن وادي سهام في الشمال من زبيد ، وباب الشبارق الذي يصل إلى حصن القوارير ، وقد حددنا آنفاً أن باب الشبارق يتجه نحو الشرق ، أما الباب المتجه نحو الجنوب فهو باب القرتب .

وقد بني هذا السور بالطين واللبن وكان عرضه عشرة أذرع .

وأمر سيف الإسلام طغتكين الأيوبي بإقامة سور آخر أطول وأوسع من الذي قبله وأمر الجند أن يسكنوا بين السورين بدوابهم وأموالهم .

وقد أحصى ابن المجاور أبراج سور زبيد فوجدها مائة برج وتسعة أبراج بين كل برج وبرج ثمانون ذراعاً ، ويدخل في كل برج عشرون ذراعاً إلا برج واحد ، فإنه مائة ذراع فصار محيط المدينة عشرة آلاف وتسعمائة ذراع .

ولم يعطنا ابن بطوطة[1] أي إشارة إلى أسوار المدينة ولا إلى عمرانها ، مكتفياً بالقول أنها مدينة كبيرة كثيرة العمران .

وبعد الأسوار سنحاول أن نستعرض المظاهر العمرانية الأخرى في المدينة من خلال كتب الرحالة . ومما يؤسف له أن ما كتب حولها لم يوجد إلا في كتابات المقدسي وابن المجاور وابن بطوطة .

---

(١) الرحلة ١٦٥

فالمقدسي[1] يصف المدينة بأنها حسنة البنيان وأنها تشبه بغداد ، وهي أكثر عمراناً من مكة وأكثر مرافقاً . ويبنون منازلهم غالباً بالآجر وتتميز بالاتساع والنظافة حيث وصفها بأنها مساكن (طيبة) حتى أسواقهم وصفها بالنظافة وإن كانت ضيقة . وحرصاً على النظافة - أيضاً - بنيت أسواقهم بعيدة عن الجامع .

ويبدو أن مدينة زبيد اشتهر فيها مسجدان : أحدهما مسجد الأشاعر ، والآخر الجامع الكبير .

فأما مسجد الأشاعر الذي كان يتوسط المدينة ، فيترجح لدي أنه قديم البنيان ، لأنه ينسب إلى الأشعريين ، ويرجح أيضاً أن يكون لأبي موسى الأشعري دور في إيجاده ، ومن هنا جاءت التسمية ونظر إليه الناس نظرة تقديس واحترام ، فهم يعتقدون بحلول البركة على من يصلي فيه . وتذهب الآراء إلى أن آل زياد هم الذين عمروه بعد أن كان عبارة عن مصلى محاط بالحجارة بجوار بئر ماء . إلا أن الشواهد الباقية تدل على أن الحسين بن سلامة هو الذي أنشأ هذا المسجد لأن اسمه المكتوب بالخط الكوفي المثبت في جدار قبلة المسجد رآه أكثر من واحد من المؤرخين[2] ، وما زال هذا الاسم موجوداً حتى هذه اللحظة .

وأثار ابن المجاور[3] إشكالاً بقوله إن مسجد الأشاعر بني بأساطين من الساج نقلت من غلافقة المنفذ البحري لزبيد ، وكانت هذه الأساطين بقية منارة بحرية في هذا الميناء ، فهل بنيت منارة أخرى بدلاً عن المنهدمة أم تحول الميناء من غلافقة إلى مكان آخر ؟ ومتى كان هذا الهدم والبناء ؟

---

(١) أحسن التقاسيم ٨٤ ، ٨٥

(٢) ابن الديبع ، بغية ٤١

(٣) المستبصر ٢٤٠

إن ابن المجاور[1] يلفت نظرنا إلى أن سواحل (موانئ) زبيد في عهد بني أيوب كانت المسلب والأهواب ، وأن ما يجبى منها يؤدى إلى أمير مكة ، وأعطانا معلومات غير مباشرة توحي بأن بناء المسجد كان في عهد الحسين بن سلامة ، وأن ميناء الأهواب بني على يد تاجر فارسي عام ٥٣٢ هـ/١١٣٧ م يسمى أبو القاسم الرامشت ، ولكنه بني مرة أخرى في عهد جبريل بن زيد أحد أمراء زبيد ، على يد واحد من الزيالع[2] كان ضامناً للعشور في الأهواب ، فطلب من جبريل أن يحط عنه العشور عشر سنوات كي يبني مرسى الأهواب ، ويبدو أنه استجاب لهذا المطلب ، وأما بعد ذلك ـ وبالتحديد في القرن التاسع الهجري ـ فقد تحول الميناء إلى مكان يسمى : البقعة[3] .

وقد نسب إلى بني زياد بناء مسجد آخر عرف بالجامع الكبير ـ على عادة اليمنيين في تسمية المسجد الجامع في أي مدينة بالجامع الكبير ـ ولا أدري لماذا لم ينسب هذا الاسم لجامع الأشاعر وحرص الزياديون على بناء جامع آخر . حتى أن الحسين بن سلامة المهتم بالعمارة والبناء وإيجاد المؤسسات الخيرية للناس اهتم ببناء الجامع الكبير كاهتمامه ببناء جامع الأشاعر .

والذي يزيد الشك في نفس الباحث أن الوصابي[4] ، وهو يخبرنا عن الشراحيين الذين اتخذوا من زبيد مقراً لهم ، أشار إلى أنهم كانوا قد بنوا مسجداً ، فأي المساجد كان هو الذي بنوه . هل هو مسجد الأشاعر أم المسجد الكبير أم هو غيرهما ، وهل أنشأ الحسين بن سلامة الجامع الكبير إنشاءً أم كان موجوداً

---

(١) المستبصر ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، وانظر : الخزرجي ، العسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك ١٠٢

(٢) زيلع : فرضة على خليج عدن في القرن الإفريقي تقع بين جيبوتي في الغرب وبربارة في الشرق . (عطية الله ، القاموس الإسلامي ١٦٠/٣) .

(٣) الخزرجي ، العسجد ١٠٢

(٤) الاعتبار ٢٧

فوسعه ، وكتب اسمه عليه ، وأصبح منسوباً إليه ؟ إننا لا نجد إجابة لهذه التساؤلات ، لأن المصادر - ومنها كتب الرحالة - لا تنبس ببنت شفة في هذا الشأن ، ومن ثم لا نستطيع الجزم بالمظاهر العمرانية التي ظهرت في زبيد قبل الحسين بن سلامة .

ومع هذا فالنصوص أو التلميحات التي ترد بين السطور تحتم علينا أن نتعامل معها ونغوص في أعماقها ، كي نصل إلى شبه ما يمكن أن يكون .

فالمقدسي له بعد الملاحظة ودقة النظر في وصف المسجد الجامع لزبيد ، وربما كان هو الجامع الكبير ، لأنه المسجد الذي تقام فيه الجمعة والجماعات ، بينما مسجد الأشاعر كانت تقام فيه الجماعات ، أما الجمعة فقد ورد في بعض المصادر[1] أن العثمانيين أصدروا مرسوماً في عهد مصطفى باشا في ١٩ من المحرم الحرام عام ٩٤٩ هـ/١٥٤٢ م يقضي بإقامة الجمعة فيه .

مما يعني أن الجمعة قبل ذلك لم تكن تقام في مسجد الأشاعر ، ولا ندري من الذي منعها فيه وخصصها بالجامع الكبير ، ولكن هناك من الدلائل ما يثبت أن مسجد الأشاعر كان يعد هو الجامع الكبير في فترة من الزمن .

ومن ثم فالمقصود بالمسجد الجامع - عند المقدسي - ربما كان جامع الأشاعر لشهرته أولاً ، ولأن المقدسي[2] لاحظ أن المسجد كان مزيناً بنقوش ، وكان له

---

(١) ابن النقيب ، جامع الأشاعر ١٢٠ ، تحقيق . ومن العجيب أن رسالة قد ألفت في هذا المعنى معنونة بإرشاد الحائر في إقامة الجمعة بمسجد الأشاعر ، تأليف محمد بن عبد القادر الأهدل (ت ١٣٢٧ هـ/١٩٠٩ م) ، جامع الغربية ١٢ مجاميع (انظر : الحبشي : مصادر الفكر العربي الإسلامي في اليمن ٢٥٠ مركز الدراسات اليمنية ، صنعاء) ، هذه الرسالة توحي بعدم شهرة إقامة الجمعة في مسجد الأشاعر في جميع العصور .

(٢) أحسن التقاسيم ٨٤

منبر لا يقطع صفوف المصلين بل كان (مقوراً) [من التقوير أي التجويف] ولعله داخل جدار القبلة المواجه للمصلين ، وحينما نقارن هذا الوصف عند المقدسي بكتابات الآثاريين المحدثين لمسجد الأشاعر ، فإننا نجد الدكتور مصطفى شيحة[1] يصف جدار القبلة بأنه يحتوي على « منبر قديم من الخشب داخل تجويف في الجدار الشمالي يعلوه عقد مقصص ، يقوم على عمودين وقد تبقى من هذا المنبر القديم بعض درجات السلالم وبعض الحشوات الخشبية القديمة » . هذا الوصف لم يرد عند حديثه عن الجامع الكبير ، ولكنه أرجع تاريخ هذا المنبر إلى القرن السادس الهجري ، وقد يكون هذا التاريخ لأنه جدد في القرن السادس ، أما التجويف نفسه فلعله كان قديماً وظل محتفظاً بطابعه القديم .

وهناك مساجد أخرى في المدينة أشار إليها ابن المجاور[2] ، كمسجد الهند ومسجد السدرة الذي صلى فيه ابن المجاور نفسه يوم الخميس ١٥ من ذي القعدة ٦٢٤ هـ .

وقد أقدم علي بن محمد الصليحي على مشروع طويل المدى حيث أبدى استعداده للقيام ببناء مسجد ورباط في كل مرحلة من المراحل الممتدة من زبيد إلى مكة ، وبدأ في التنفيذ حتى وصل إلى مدينة المهجم[3] ، ولكنه توقف هناك ولم نعرف سبب توقفه ، ولكن الباحث ـ أي باحث ـ يتساءل عما إذا كان هذا المشروع يقصد من ورائه خدمة الحجيج أم يهدف إلى السيطرة على المناطق الممتدة في تهامة حتى مكة .

ومما يلفت نظر الباحث أن ابن المجاور[4] يحكي لنا وصفاً لبناء أسماه

---

(١) المستبصر ٧٠ ، ٧٣ ، ٧٤

(٢) المصدر نفسه ٧٥

(٣) المصدر نفسه ٧٥ ، ٧٦

(٤) مدخل إلى العمارة والفنون الإسلامية في الجمهورية اليمنية ٥١

(الجنابذ)[1] أنشأه علي بن محمد الصليحي من الآجر المحكوك والجص (الجير) ، ويتكون هذا المبنى من ثلاث قباب متقاربة بين الواحدة والأخرى مقدار أربعة أذرع ، ولا يعرفنا بالهدف الذي من أجله بنى هذا المبنى ، إلا أنه أشار إلى أن العامة يسمونه الكعبة . فهل هو مسجد أم مشهد خاص بالصليحيين ، لأن هؤلاء يدينون بالمذهب الإسماعيلي الذي يجعل أتباعه يصلون في مساجد خاصة بهم ، حيث كانت لهم شعائرهم المحرفة وعقائدهم الباطنية المنحولة ؟!

وعلى عادة الإسماعيلية في بناء مساجدهم فقد كانت (الجنابذ) هذه زاخرة بالنقوش والكتابات المطعمة بالذهب واللازورد[2] بالإضافة إلى نقوش وزخرفة بالجص (الجير) . وهذا المبنى يحتوي على أموال عظيمة ، وربما كانت هذه الأموال هي النقوش الذهبية أو هي أموال في خزائن خاصة ، وحينما دخل سيف الدولة الأيوبي إلى زبيد أخذ هذه الأموال وجعل (الجنابذ) مسكناً لقوم من الفقراء .

وفي مقابل (الجنابذ) هذه عند الصليحيين (الذين يدينون بالمذهب الشيعي الإسماعيلي) ، ظهر مبنى آخر عند بني مهدي (الذين ينتسبون إلى مذهب الخوارج) ، فقد سعى علي بن مهدي إلى إقامة منشأة عرفت (بالمشهد) بناها عام ٥٥٥ هـ في مدينة زبيد . ولكي يوفر لها مواد البناء المطلوبة هدم مسجد الأهواب (قرية تقع غرب زبيد) ، الذي كان قد بناه أحد تجار الهند[3] عام

---

(١) الجنابذ : مفردها جنبذة وهي القبة . ويوجد في المدينة المنورة قصر الجنبذ (ترتيب القاموس المحيط ٤٣٦/١ للطاهر أحمد الزاوي) .

(٢) اللازورد : نوع من الأحجار الكريمة يتكون من خليط من اللازوليت وعناصر أخرى . اللون الغالب عليه هو الأزرق بمختلف درجاته ، ويوجد في الصخور الكلسية المتحولة (انظر : التيفاشي ، أزهار الأفكار في جواهر الأحجار ١٦٨ ـ ١٧٧) .

(٣) يسمى هذا التاجر أبو القاسم الرامشت ابن شيرويه بن الحسين ابن جعفر الفارسي .

٥٣٢ هـ . وكان هذا التاجر قد أحضر الخشب الساج لبناء هذا المسجد من الهند[١] .

فأخذت هذه الأخشاب من مسجد الأهواب ليبنى بها (المشهد) ، وإذا كنا قد أبدينا استغرابنا لوجود (الجنابذ) فإن (المشهد) يثير الاستغراب نفسه . هل هو دار حكومي يشهده الناس ويجتمعون فيه ؟ أم هو مسجد عرف بالمشهد ؟ أم هو مشهد لضريح أقيم على قبر ؟ وقبر من إذا كان هذا صحيحاً ؟

والدول التي حكمت البلاد في فترات متعاقبة لا بد لها من منشآت حكومية لإدارة مصالح الدولة وهي من الأمور البدهية ، إلا أن الرحالة لم يشيروا إلى هذه المباني ، واكتفى ابن المجاور[٢] بالإشارة إلى دار الملك كما أسماها ، وأنها بنيت في عهد بني زياد ، والذي بناها (شخا بن جعفر) [هكذا] وهذا اسم نلتقي به لأول مرة ولا وجود له فيما نعرفه من تاريخ بني زياد[٣] .

وقد وصف ابن المجاور[٤] هذه الدار بأنها ذات طول وعرض ، وقد بنيت بالآجر والجص ، على مفترق طرق داخل المدينة ، وهي من الضخامة والمتانة ما جعلها باقية حتى عام ٦١٨ هـ/١٢٢١ م ، بالإضافة إلى ذلك كانت محصنة حيث بنيت بطريقة مرتفعة عن الأرض ، حتى أن الباب كان عالٍ جداً إلى حد أنه أصبح كالبرج يشاهد منه القادم على بعد فرسخين (حوالي ١١ كم) ، وحفر حوله خندق عظيم عميق عريض ، وظل الباب هكذا حتى هدمه المسعود يوسف بن أبي بكر أو الأمير أيبك العزيزي في عهد بني أيوب عام ٦١٨ هـ/١٢٢١ م ،

---

(١) ابن المجاور ، المستبصر ٢٤٧

(٢) المصدر نفسه ٧٨

(٣) المقدسي ، أحسن التقاسيم ٨٤ ، وابن المجاور ، المستبصر ٧٨

(٤) ابن المجاور ، المستبصر ٢٤٠

وأخذت مواد بناءه فبنى بها دوراً ـ أظنها دوراً حكومية ـ وظلت آثار هذا الباب باقية حتى شاهدها ابن المجاور عام ٦٢٦ هـ/١٢٢٩ م[١] .

أما المرافق الأخرى كالحمامات والخانات (الفنادق) فإن المساجد كانت تجاورها مرافقها كالأحواض والمغتسلات ، حيث أشار المقدسي[٢] إلى مرافق زبيد بأنها أكثر من مرافق مكة وأن حماماتهم نظيفة ، فالمرافق تشمل أحواض الوضوء (الميضئة) وغيرها ، أما الحمامات فهي تطلق عادة في مصادرنا التاريخية والفقهية أيضاً على المباني المخصصة للاستحمام ، وهي معدة بالماء الحار والغرف الحارة ليعرق المستحم . وقد وجدت في معظم الأمصار الإسلامية[٣] ، وما زالت منتشرة في اليمن حتى يومنا هذا ، ويدل وصف المقدسي لها بالنظافة على توفر الماء والعناية بها ، ولهذا لفت المقدسي[٤] انتباهنا إلى مصادر المياه التي تمد مدينة زبيد بالحياة وهي الآبار ذات المياه الحلوة الخفيفة على شاربها ، ويبدو أن معظم المياه كانت تأتي من خارج المدينة ، لأن بني زياد مدوا قناة للماء وصلت إلى وسط المدينة كانت تمد الأهالي بما يحتاجونه من المياه ، ولذا وصف ابن بطوطة[٥] المدينة بأنها كثيرة المياة واسعة البساتين كثيرة العمران .

لقطات من الوضع الاقتصادي

لم تهتم المصادر التاريخية اهتماماً واضحاً بالشؤون الاقتصادية لا من ناحية النظم ولا من ناحية حياة الناس الاقتصادية كالنشاطات التي تمارس والوسائل

---

(١) المستبصر ٢٤٧
(٢) أحسن التقاسيم ٨٤ ، ٨٥
(٣) انظر إن شئت : الحبيي ، حدائق النام في الكلام على ما يتعلق بالحمام ٢٣
(٤) أحسن التقاسيم ٨٥ ، ١٠١
(٥) رحلة ١٦٥

المستخدمة فيها أو المردود الاقتصادي لهذا النشاط . وكنا نطمع من كتب الرحالة أن تلبي هذه الرغبة وتطفئ حرارة ظمأنا إليها ، ولكنها خيبت آمالنا ولم نجد إلا شذرات مبثوثة في كتب الرحالة المتأخرين منهم ، ومع هذا أسميناها لقطات ليس تجاوزاً وإنما على الحقيقة .

ويمكن أن نصنف هذه اللقطات إلى لقطات تختص بالنشاط الرسمي الحكومي ، ويشمل النظم وما يترتب عليها من جباية للأموال ومقاديرها ومصارفها . ولقطات تختص بالنشاط غير الرسمي المهتم بحياة الناس الاقتصادية ونشاطهم في مجال الزراعة والتجارة والصناعة ، وأخيراً لقطات عن المراكز الاقتصادية كالأسواق والمحال التجارية .

أولاً ـ النشاط الرسمي ، وأول ما يحدثنا عنه ابن حوقل ولا يعطينا المعلومات بصورة مفصلة ، ولكننا نأخذها من خلال ما يسرده علينا من أموال تحصلتها الدولة الزيادية في الربع الأخير من القرن الرابع الهجري . ونستطيع أن نستفيد من استعراضه هذا ، فنرسم الأنظمة المالية المتبعة في هذه الآونة .

(فالتقبل) ـ كنظام مالي ـ كان يمارس في مدينة زبيد[1] ، حيث يتقبل أناس معينون ما يدخل أو يخرج من المدينة من الأموال ، على أن يدفع المتقبلون مائتي ألف دينار عثري . و (المتقبل) هو الرجل الذي كفل على نفسه أو ضمن أن يدفع مبلغاً من المال للدولة مقابل أن يقوم بتحصيل ما على الناس من واجبات مالية ، وهذا النوع من الأنظمة المالية لم يكن مرغوباً فيه عند علماء الأمة لأنه يحيف بالناس[2] .

---

(١) ابن حوقل ، صورة الأرض ٣٢

(٢) انظر : صبحي الصالح ، النظم الإسلامية ٣٨٦

ولم يذكر المقدسي[1] هذا النظام ولكنه نوه للصرامة التي يتعرض لها التجار من خلال المراصد (نقاط التفتيش والتحصيل) المقامة على أبواب زبيد ، فكان التاجر يدفع عن الحمل من السلع غير الضرورية ديناراً ، أما السلع الضرورية فيدفع نصف دينار ، لهذا جزم بأن الأسعار غالية[2] . أما ابن المجاور[3] فقد وافق على تصريح ابن حوقل فقال : « القوافل الصادرة من زبيد إلى عدن كان عليها ضمين كان يدفع كل عام ألف ومائتين دينار » . وقد ألغي هذا النظام عام ٦٢٠ هـ/١٢٢٣ م ، ولكنه أعيد مرة أخرى ٦٢٤ هـ/١٢٢٧ م ، وارتفع مقداره إلى ألف وسبعمائة دينار .

ويخبرنا أيضاً عن سوق السمك بزبيد ، وأنه كان بيد ضمين ملتزم بدفع ثلاثة عشر ديناراً عن كل يوم إلى خزينة الدولة[4] .

فهذا المتقبل لسوق السمك إما أن يكون أحد الصيادين ، وإما موظفاً من قبل الدولة ، وإما هو أحد نقباء المهن التجارية . ولا شك أنه سيتحصل من الناس ضرائب أو مكوساً أكثر من هذا المبلغ بكثير ، فهو في حاجة إلى الصرف على الموظفين المكلفين بالتحصيل ، وفي حاجة إلى مبالغ خاصة به ، بالإضافة إلى المبلغ المطلوب إيراده للدولة . وقد أمدنا ابن المجاور[5] بلمحة عن الجباية التي تؤخذ من المراكب الخاصة بالصيادين المسماة (الصنابيق) مفردها (صنبق) ، بأنه يدفع عن كل صنبق شهرياً سبعين ديناراً ، هذه اللمحة تنبئ عن المبالغ المستخلصة التي تصل إلى المتقبل أو الضامن لسوق السمك .

---

(١) أحسن التقاسيم ١٠٥ ، فالضرورية مثل : الأقمشة ، أما غير الضرورية مثل : الطيب .

(٢) المصدر نفسه ٨٥

(٣) المستبصر ٩٩ ـ ١٠٠

(٤) المصدر نفسه ٢٤٣

(٥) المصدر نفسه ٩٢

وأضاف ابن المجاور[1] بعض أنواع الضمانات أو التقبل داخل زبيد فيوجد ضمين أو متقبل لكل ما يتحصل من بعض الأنواع المباعة في الأسواق ، مثل ما يبيعه الباعة المتجولون والخضرة والبقول والغلال وكل ما يدخل من الباب ، وعليه أن يدفع للخزينة من ذلك كله تسعين ألف دينار ملكي . وتلفت النظر عبارة « ما يدخل من الباب » فهي تثير إشكالاً ، فربما كان يقصد بأن لكل باب من أبواب المدينة ضميناً . وربما عبر بالباب مفرداً ، ويقصد به جميع الأبواب ، حيث اعتبر الكلمة جنساً لكل الأبواب .

وهناك ضمان دار الضرب حيث يدفع ضامنها ثلاثة عشر ألف دينار[2] ، وممكن أن يكون هذا في العام . ويدل التعبير على أن دار الضرب ليست ملكاً للدولة بل هي ملك لبعض الأهالي ، وتصبح الدولة معترفة بالصك الذي تصدره هذه الدار . وهذا نوع من حرية التملك حتى للمؤسسات الحيوية التي من المفترض أن تكون تابعة للدولة .

نوع آخر من الضمان ، وهو تقبل مدابغ الجلود وما يستخلص منها ، على أن يورد لخزينة الدولة ثلاثة عشر ألف دينار[3] ، ولا بد أن يكون هذا في العام .

ويعطينا ابن المجاور[4] معلومة تحتاج منا إلى وقفة وتأمل وتحليل ، فهو يقول : « إن ضمان دار النبيذ اثنا عشر ألف دينار » فأي نبيذ هذا ؟ هل هو من الخمور المسكرة ؟ إن أبسط معايير المجتمع المسلم تمنع هذا النوع من الاستثمار ، فهل كانت الخمور تستثمر في عهد الأيوبيين ؟ إنني أشك في هذا ، خاصة أن كلمة (دار) تعني أنها تشبه دار الضرب التي هي دار رسمية ، أي أن الدولة تشرف على

---

(١) المستبصر ٨٩

(٢) المصدر نفسه ٩٠

(٣) المصدر نفسه ٨٩

(٤) المصدر نفسه ٩٠

إنشائها ومراقبتها وربما كانت تابعة للدولة ، فهل الدولة تتكفل بقيام مصانع للخمور ؟ إن هذا لا يقبله العقل .

ولكننا ينبغي أن نفهم كلمة (النبيذ) على أنه النبيذ الحلال الذي لا يسكر « وهو ما يعمل من الأشربة من التمر والزبيب والعسل والحنطة والشعير وغير ذلك »[1] . أي أنه نبذ لفترة قصيرة دون أن يفور ويتحول إلى مسكر .

وهذا يعني أن الحكومة تشرف على إقامة دار متخصصة بالمشروبات الطبيعية المحلاة بالسكَّر التي تباع للناس في ليلهم ونهارهم داخل المدينة للتخفيف من حرارة الجو وضراوة العطش .

ويتقبلها الضامن ويدفع عنها اثنا عشر ألف دينار سنوياً ، لأن الإقبال كثير على هذه المشروبات أو العصائر (جمع عصير) لحرارة الجو في زبيد .

ويدلنا ابن المجاور[2] أيضاً على ضمان زراعي . فالنخل بصورة خاصة ركز عليها المتولون لزبيد لاعتبارها من المحاصيل الزراعية الأساسية ، فكان كل من بني نجاح وبني مهدي يدفعون هذه النخيل إلى ضمين أو متقبل نظير سبعين ألف دينار يدفعها كل عام للخزينة ، بينما صار الضمان في عهد بني أيوب مائة ألف دينار .

هذا النظام المتبع في زبيد رغم أنه غير مرغوب فيه عند بعض الفقهاء وغير جائز عندهم ، ومن جوزه منهم يشترط له شروطاً ، بالرغم من ذلك ، فإن هذا النظام حرصت عليه الدول المتعاقبة على زبيد ، وربما كان إصرارها هذا ينبع من مصلحتها التي تقتضي عدم التكلفة في التحصيل المباشر ، فاستعملت نظام التقبل

---

(١) ابن منظور ، لسان العرب ٤٣٢٢/٦

(٢) المستبصر ٨٠ ، ٩٠

أو الضمان هذا ، لأنه لا يكلف الدولة شيئاً بل تستلم ما يخصها من المتقبل دون تكلفة تذكر .

وضربت هذه الدول بمصلحة الفرد عرض الحائط ، لأنها أعطت لهؤلاء المتقبلين الحق في أن يفرضوا على أفراد الأمة ما يشاؤون من الضرائب ، لأنهم يريدون تحصيل ما يورد للدولة ، وما يكفي موظفي التحصيل ، أو الإدارة المالية ، هذا بالإضافة إلى ما يخص المتقبل نفسه ، ولا بد أن يكون مجزياً ، فأين العدل في هذا النظام ، إنه الظلم الذي أحدثته هذه الدول ، وكان البذرة التي أدت إلى سقوطها .

يحدثنا ابن حوقل[1] أيضاً عن نوع آخر من النظم المالية التي كانت تستخدم في مدينة زبيد ، وهو نظام عرف (بالأمانة) ، أي أن الدولة تخول للناس تقييم ما يمتلكونه وتحديد ما عليها من ضرائب ودفعها طواعية إلى الدولة ، وكانت الإشارة التي ذكرها ابن حوقل تفيد بأن هذا النظام كان متبعاً في ميناء عدن وهو تابع للدولة الزيادية ، وربما كان متبعاً في مدينة زبيد أيضاً ، وهي عاصمة الدولة ، ولكن المتأمل لنظام التقبل والأمانة قد يتصور للوهلة الأولى التناقض بينهما ، ولكن الحقيقة غير ذلك ، لأن الأمانة هذه قد يكون القصد منها أن تمارس في أموال الزكاة ، ومن ثم لا دخل للمتقبل أو الضامن في الزكاة .

والمكس أو المكوس ـ كنوع من النظم المتبعة ـ يقصد بها أخذ مبلغ معين من السلع المباعة في الأسواق ، وهو نوع كان يمارس في الجاهلية ، وممكن أن يطلق عليه ضريبة ، أو هو المال غير المفروض شرعاً[2] الذي يأخذه جابي الزكوات ،

---

(١) صورة الأرض ٣٢

(٢) لسان العرب ٤٢٤٨/٦

وهذا مما نهى عنه الشرع الإسلامي ، كما جاء في الحديث الشريف « لا يدخل الجنة صاحب مكس »[1] .

هذا النوع من الضرائب ليس لدينا ما ينفي عدم ممارسته في الواقع إلا ما قيل عن أن بني مهدي « ما كانوا يستحلون أخذ المكوسات من أحد ما خلا الحاج ، وأنهم كانوا يأخذون منهم مقام الدرهم ثلاثة دراهم »[2] .

وإذا كنا قد أشرنا إلى أن بني مهدي استخدموا الضمان ، فإن الملاحظ أنه ضمان في المجال الزراعي فقط وله اعتباره ووجاهته .

أما بقية الدول التي أشرفت على زبيد ، فقد كانت تستخلص المكوس من الناس ، إما عن طريق المتقبل ، وإما عن طريق موظفين رسميين من الدولة .

ولم يشر المقدسي[3] إلى أن الذي يتحصل من هذه المكوس هو الضامن أو المتقبل ، ولكنه ينسبها إلى إدارة الدولة الحاكمة للمدينة .

ويصور لنا الوضع على أبواب زبيد بأن لكل باب (مرصد) أو نقطة تفتيش ، ولديهم قائمة بالسلع الداخلة وما عليها من مكوس أو ضرائب ، فكان المسك عليه دينار ، بينما حمل البز (القماش) عليه نصف دينار .

أما ابن المجاور فقد ذكر الضمين وذكر المكس ، مما يدل على أن المكوس يأخذها المتقبل أو الضامن المخول من السلطة .

---

(١) رواه أبو داود وأحمد وغيرهما عن عقبة بن عامر مرفوعاً وصححه ابن خزيمة والحاكم ٣٧١ ، (انظر : العجلوني ، كشف الخفاء ومزيل الالباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس ٣٧١/٢) .

(٢) ابن المجاور ، المستبصر ٥٠

(٣) أحسن التقاسيم ١٠٥

وتتنوع مقادير المكوس بتنوع المناطق ، فالخوخة مثلاً منطقة تابعة لزبيد وتطل على البحر الأحمر كان « يؤخذ منها مكس : عن كل حمل السدس » بينما يؤخذ « في قرية الحليلة من كل حمل نصف ربع »[1] ، ولا ندري لماذا هذا التنوع .

فإذا كان هذا يؤخذ من قرى زبيد ، فبالأولى يؤخذ من المدينة نفسها ، ولكن الدولة لا تسعى لتعيين الموظفين لهذا الغرض ، ولكن الضامن نفسه هو المسؤول عن الجباية ، وقد صرح بهذا ابن المجاور[2] عند القول بأن الضامن لأبواب زبيد كان يدفع للخزينة تسعين ألف دينار ملكي .

بالإضافة إلى ما ذكر عن نظام التعامل مع الأراضي الحرة المملوكة للأهالي ، **فهناك أرض مملوكة للسلطان أو للدولة ، وهي ما تعرف (بالصوافي) ، أي** الأراضي المصطفاة لبيت المال ، وربما عوملت بنظام التقبل أو المشاركة ، وتورد الأموال المتحصلة منها في النهاية إلى خزينة الدولة . وفي المقابل يمكن التعامل مع أراضي الأوقاف[3] ، حيث يكون لها ناظر وقف وإشراف حكومي ، ثم تطبق شروط الواقف في التحصيل والصرف .

ثانياً ـ النشاط الاقتصادي وأعني به ما يمارسه الأفراد والجماعات ، وأبرز ما يمارسه السكان : الزراعة والتجارة وصيد الأسماك وبيعها والصناعات المختلفة .

فأما الزراعة فيهتم بها الناس عندما تتوفر الإمكانيات المتاحة لها وفي مقدمتها المياه ، وقد أمدتنا كتب الرحالة بمعلومات قيمة عن المياه في مدينة زبيد ، فيذكر المقدسي[4] أن لهم آباراً حلوة متوفرة مياهها ولذا كانت لهم حمامات وهي نظيفة

---

(١) ابن المجاور ، المستبصر ٩٢ ، ٩٣

(٢) المصدر نفسه ٩٠

(٣) المصدر نفسه ٧٩ ، ٨٠

(٤) أحسن التقاسيم ٨٥ ، ٩٥ ، ١٠١

دائماً ، والنظافة لا تأتي إلا من توفر المياه ، ويلاحظ المقدسي أيضاً قلة المياه في سواحل تهامة ، ولكنها متوفرة في غلافقة مقابل زبيد ، أما زبيد نفسها فهي غزيرة المياه . وقد زاد آل زياد اهتمامهم بالمياه فمدوا قناة للماء داخل المدينة كي تغذي أهل المدينة بالمياه دون نصب أو كلل . وأجمل ابن بطوطة[1] القول عن مياه زبيد فوصفها بأنها مدينة بها النخل والبساتين والمياه ونعتها بالكثرة . وأكد ابن المجاور[2] قول المقدسي بأن مياه زبيد من الآبار وأنها مليئة بالعيون وكانوا يستخدمون طواحين الهواء كرافعات للماء .

أما الأيدي العاملة وأدوات الزراعة ، فالبدهي أن زبيد من المدن الحضرية الأولى في اليمن لا تخلو من هذين العاملين . فإذا كنا قد عرفنا استخدام وسيلة الطواحين الهوائية لرفع الماء وهي من الوسائل الهامة والجديدة ، فإن من الأولى بهم أن يستخدموا الأدوات المناسبة لهذا الغرض .

والمحصول الزراعي تتعدد أنواعه : بعضها محصولات أساسية لا يستغنى عنها وبعضها محصولات ثانوية . فالمقدسي[3] أثناء وصفه المدينة وقراها وبأنها كثيرة المزارع والبساتين يخبرنا بأن طعام الناس يعتمد على الدخن (نوع من الحبوب صغير الحجم) والذرة ، بينما كانت الثمار لديهم قليلة ، ولكن الحال تغير في القرن الثامن الهجري ، حيث يؤكد ابن بطوطة[4] الذي كان في اليمن عام ٧٣١ هـ / ١٣٣١ م بأن مدينة زبيد كان بها النخل والبساتين وأنها كثيرة الفواكه

---

(١) رحلة ١٦٥

(٢) المستبحر ٦٤ ، ٨٥ . ذكر ابن المجاور أن أمام الباب الغربي لمدينة زبيد وجد طاحونين وبالطبع كان هناك غيرهما(راجع عن عمل الطواحين : الموسوعة العامية الميسرة ٢٣٤ . قام بها مجموعة من المؤلفين وأشرف عليها أحمد شفيق الخطيب) .

(٣) أحسن التقاسيم ٨٤ ، ٨٥

(٤) الرحلة ١٦٥

من الموز وغيره ، حتى أنه ذكر العادات الاجتماعية التي يمارسها الأهالي عند حصد ثمار النخيل .

وقد أمدنا ابن المجاور[1] قبل ابن بطوطة بمعلومات مالية هامة عن النخيل وما يتحصله الجباة لبيت المال . وعن صوافي النخيل المخصص لبيت المال ، وهذا يعني توفر التمور بأنواعها في القرن السابع الهجري . وقد يقال بأن النخيل لم يلق اهتماماً في القرن الرابع وما قبله ، وهذا لا يتصور ، لأن هذه المناطق كانت مختصة بزراعة النخيل ، فمقدار ما ذكره ابن المجاور[2] من إحصائيات عما يحصل من النخيل ، يعد هو الإنتاج الطبيعي لهذه الشجرة عام ٦٢٤ هـ/١٢٢٧ م ، وهو مائة وعشرة آلاف دينار نقداً غير ما حمل إلى خزينة الدولة ، وهذا مبلغ ضخم يدل على مدى الاهتمام بهذه الشجرة من قبل الدول المتعاقبة .

ولأهمية بعض المحاصيل الزراعية انفردت بأسواق خاصة بها مثل سوق البر (القمح) الذي كان يقام بعد صلاة ظهر كل يوم[3] .

ويتطرق ابن المجاور[4] إلى مجموعة من المزروعات ذات الأهمية في حياة الناس كالسمسم الذي يعرف في اليمن بالجلجلان أو الجلجل ، حيث يعصر ويستخدم زيته لأغراض عدة ، والقطن والعدس ، ومن النباتات تلك التي تستخدم لدبغ الجلود وهي شجرة (النَّبَق) ، ونبه إلى أن هذه الشجرة من نبق العراق لأنه بلا أشواك ، ولا ندري هل شبهها بها أم أنها نقلت إلى اليمن أم العكس . وهناك أشجار أخرى ذكرها ابن المجاور دون أن يعرفنا بأهميتها أو استخداماتها ، وما أظنه ذكرها إلا ولها أهمية ما .

(١) المستبصر ٧٨ ، ٨٠

(٢) المصدر نفسه ٨٠

(٣) المصدر نفسه ٨٨

(٤) المصدر نفسه ٢٥ ، ٦٣ ، ٨٨

ومما يدل على أن المحصولات الزراعية من الحبوب ، وهي : الذرة والدخن والسمسم من المحاصيل الأساسية ، تلك اللفتة التي التفت إليها ابن المجاور[1] ، فحدثنا عن أن أرباب البيوت يخزنون هذه الحبوب لديهم ، أي أن كل بيت لديه ما يعرف في اليمن بمدافن الطعام ، وتشبه صوامع الغلال ، ولكنها تخالفها بكونها تحفر في الأرض وليست على شكل بنايات على ظهر الأرض .

أما الفواكه فقد نوه ابن المجاور[2] إلى مجموعة منها كالبطيخ ، ويسمونه البرطيخ أو (الحب حب) ، و (العنب) بفتح العين وسكون النون ، وهو نوع من الفواكه قد يعرف بعنب الفلفل تفريقاً له عن عنب العظام المعروف بالمانجو ، لأن العنب يشبه المانجو في لونه وبعض طعمه ، ماعدا بذوره وحجمه الذي قد يكون أكبر من المانجو .

أما الصناعات فلا يحدثنا عنها الرحالة المتقدمون إلا إشارة ، فقد أعطانا ابن حوقل[3] معلومة بأن جلود النمور كانت تستورد من جزيرة دهلك ، ولكنه لم يخبرنا عن استخداماتها أو صناعاتها ، إلا أن من القطوع فيه أن هذه الجلود سيترتب عليها صناعة . فقد تصنع منها المعاطف أو الدروع أو أي ملبوسات جلدية . ويعني هذا وجود صناعات جلدية في زبيد ، ويؤكد على هذا المقدسي[4] فيجعل من زبيد مدينة مشهورة بصناعة الأديم (الجلد) . أما ابن المجاور[5] فيؤكد على أن (الأديم) يُصَنَّع في جميع أقاليم اليمن ، وأن شجرة (النبق) الخالية من الشوك المستعملة للدباغة توجد في زبيد ، ثم يلفت نظرنا إلى تطوير صناعة

---

(١) المستبصر ٨٨

(٢) المصدر نفسه ٨٧

(٣) صورة الأرض ٣٢

(٤) أحسن التقاسيم ٩٨

(٥) المستبصر ١٣ ، ٢٥ ، ٩٧

الجلود من خلال حديثه عن الوسائل (الميكانيكية) المستعملة في صناعة الجلود ، فيخبرنا عن طواحين القرض (نوع من الشجر يستعمل لدبغ الجلود) فلكثرة هذه الصناعة كان لها طواحين تطحنها وتعدها للعمل . ويتضح للقارئ ضخامة إنتاج الجلود في زبيد من خلال ما يدفع عنها لخزينة الدولة ، حيث عرفنا آنفاً أن الضامن للمدبغة يدفع ثلاثة عشر ألف دينار سنوياً[1] .

وبالرغم من أنهم يزرعون القطن ـ كما ذكرنا آنفاً ـ إلا أنه كما يبدو لم يكن كافياً ، لأن المدينة في عهد الدولة الزيادية كانت تستقبل الأحمال الضخمة من البز (القماش)[2] لسد حاجات الناس من هذه السلعة . مع الأخذ في الحسبان أن (غزل) الملابس عملية مستخدمة وممارسة في أوساط النساء في منازلهن[3] .

واشتهرت مدينة زبيد بصناعة الأصباغ المستعملة في صبغ الملابس المتنوعة ، وأهم هذه الأصباغ ما يعرف (بالنيل)[4] ، وبجوار هذه الصناعة المشهورة في زبيد لا يبعد أن توجد صناعة للأصباغ الأخرى ، خاصة أننا نعرف أن هناك أنواعاً من المنسوجات كانت تصدر إلى خارج زبيد كالبُرَد ، حيث كان الحمل الواحد يضم ١٢٢ بردة ، بالإضافة إلى الحرير الخالص والحرير المخلوط بالكتان[5] .

وهناك أنواع من الصناعات : كالأواني المتنوعة سواء المستخدمة للمكاييل[6] ، وهي غالباً من المعدن أو الخشب ، أو المستعملة في المنازل ومعظمها

---

(١) المصدر نفسه ٨٩

(٢) المقدسي ، أحسن التقاسيم ١٠٥

(٣) ابن المجاور ، المستبصر ٩٠

(٤) المقدسي ، أحسن التقاسيم ٩٨ ، والنيل هو : مادة زرقاء تستخدم للصباغ .

(٥) ابن المجاور ، المستبصر ٨٩

(٦) المقدسي ، أحسن التقاسيم ٩٨ ، يستشف هذا من حديثه عن المكاييل المستخدمة ، فلا شك أنهم يصنعون أواني منزلية بجوارها .

من الفخار مثل (الجرة = الزير الصغير) و (الجمنة) وهو إناء صغير من الفخار يستخدم لحفظ السمن والعسل وغيرهما من السوائل .

وصناعة الحلي أشار إليها ابن المجاور[1] ، ولم يفصل في أنواعها ، ولكنه وهو يصف موكب الاحتفال بموسم النخيل يذكر أنواعاً من الحلي التي تعلق على الجمال منها الجلاجل وأسماها (القلاقل) والأخراص ، أو الأجراس التي وردت في الكتاب (الأجراص) والمقانع [وردت هكذا ولعلها (المعانق) ، لأنها تطلق في اليمن على الحلي التي تعلق في العنق] ، فإذا كان هذا هو الاهتمام بحلي الجمَال ، فبالطبع سيكون الاهتمام بحلي النساء أشمل ، ولكن ابن المجاور لم يكلف نفسه لتسجيلها ربما لشهرتها .

ويلحق بحلي النساء الطيب والعطور ، وهو من الشهرة ما لا يحتاج إلى ذكر ، ولكن هناك إشارة في حديث ابن المجاور[2] استوقفتني ، توحي بأنه كانت هناك أنواع من العطور لا تستخدم إلا للرجال ، وأنواع لا تستخدمها إلا النساء ، وهذا يشي بالمستوى الرفيع في صناعة العطور .

أخيراً هناك نوع من الصناعات الغذائية جدير بالانتباه وهو (المربى) ، حيث كانوا يصنعون مربى الزنجبيل في نوعين متميزين : نوع يعرف بالمقصوص وهو قليل العسل ، ونوع يعرف بالمطحون وهذا أكثر جودة من الأول .

وأما التجارة ، فإن مدينة زبيد تحتل موقعاً هاماً لمكانها بين شمال تهامة وجنوبها ، وباعتبارها امتداداً طبيعياً لميناء غلافقة فرضة زبيد ، لتكون هذه هي فرضة اليمن كما قال البيروني[3] ، أي أن الجبال تتصل بزبيد لتستورد منها

---

(١) المستبصر ٨٠

(٢) المستبصر ٨٧

(٣) أبو الفداء ، تقويم البلدان ٨٩

حاجياتها من التجارة الواردة عليها عبر المنافذ المتعددة التي تصب في هذه المدينة التهامية المشهورة .

هذا الموقع جعل التجارة من أهم نشاط سكان المدينة والقادمين إليها أيضاً ، فالمقدسي[1] يصفها تارة بقوله : « بها تجار كبار » ، وتارة يقول : « بها تجار وتجارات وفيها أسواق وإن كانت ضيقة إلا أن الأسعار بها غالية » .

وتتضح ضخامة التجارة الواردة إليها والصادرة منها من معرفتنا بالمبالغ المستخلصة التي تورد إلى خزينة الدولة في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري ، حيث كان يصل إليها مائتي ألف دينار في العام[2] .

وقد أعطانا ابن المجاور[3] مجموعة من الإجراءات المستخدمة في الأسواق سواء من ناحية المكاييل ، أو الموازين ، أو طريقة البيع والشراء .

وتقسم الأسواق عادة إلى أسواق صغيرة متخصصة كسوق البر ، وسوق البز[4] ، وغيرهما . وهذا الحال يعد ظاهرة موجودة في المدن الإسلامية ، فنلاحظه في مدينة صنعاء ، ونلاحظه في مدينة القاهرة ، ومدينة بغداد ، وغيرها .

☆ ☆ ☆

يبقى لنا في النواحي الاقتصادية أن نلقي نظرة على النظام النقدي ، والمكاييل ، والموازين المستخدمة في الحياة الاقتصادية .

---

(١) أحسن التقاسيم ٨٥
(٢) ابن حوقل ، صورة الأرض ٣٢ وقارن بأحسن التقاسيم ١٠٥
(٣) المستبصر ١٢ ، ٨٩
(٤) المصدر نفسه ٨٨ ، ٨٩

فالنظام النقدي كما يبدو من المصادر التي وصلتنا كان هو النظام المتبع في الدولة العباسية حينما كانت قوية لها السيادة على دار الإسلام بأجمعها ، فلما بدأ - من مطلع القرن الثالث الهجري - انفصال بعض الولايات عن الدولة الأم انفرد بعض الولاة بضرب النقود في الولايات المختلفة ، ولم يكن هذا النظام غريباً عن النظام المتبع في الدولة العباسية ، ففي عهد المأمون ومن جاء بعده كالمعتصم والواثق كانوا يعطون بعض الولايات الحق في ضرب النقود المتداولة بعد تحديد المواصفات المطلوبة للنقد .

وبما أننا لانملك في كتابات الرحالة شيء عن النقود المتداولة في القرن الثالث الهجري في مدينة زبيد ، إلا أننا لانستطيع أن ننكر أن النظام النقدي العباسي كان هو السائد في المدن الكبرى في اليمن ، وبما أن مدينة زبيد لم يكن لها البروز السياسي والاقتصادي إلا من مطلع القرن الثالث الهجري ، فإن علينا أن نبحث عن النقد المتعامل به منذ بداية هذه الحقبة .

فقدامة بن جعفر[1] مثلاً وهو يحدثنا عن الأموال القادمة من اليمن يذكر الدينار بصورة مطلقة ، وكأنه هو الدينار العباسي ، وهذا المتبادر إلى الذهن ، لأن صنعاء كانت مقراً معترفاً به لضرب الدنانير الذهبية العباسية[2] .

---

(١) الخراج ٢٤٩

(٢) جميع الدنانير الذهبية المضروبة في اليمن كانت في صنعاء ، وعلى سبيل المثال هناك دينار ضرب في عهد المعتصم في صنعاء عام ٢٢٣ هـ ، وآخر عام ٢٢٤ هـ ، وفي عهد المعتمد ٢٧٧ هـ ، وفي عهد المعتضد ٢٨٦ هـ . (انظر : المسكوكات وكتابة التاريخ للدكتور ناهض عبد الرزاق ٦٥ ؛ الطبعة الأولى ١٩٨٨ م ، سلسلة الموسوعة التاريخية الميسرة ، العراق) .

Doran. Robert E. Darley. Examples of Islamic coinage from YEMEN.

YEMEN 3000 Years of Art & Civilisation In A:aoia Felix. p. 183. Edited By Werner Daum AUSTRIA - ISBN.

بالإضافة إلى ذلك أن الطراز من المنسوجات الأميرية كانت تصنع في صنعاء إلى النصف من القرن الرابع الهجري وهي تحمل أسماء الخلفاء العباسيين . (انظر الدراسة التي قام بها الدكتور =

بينما ابن حوقل[1] الذي زار اليمن في منتصف القرن الرابع الهجري يذكر أشياء مالية هامة في الدولة الزيادية ، ومع هذا لا يذكر قط عملة زيادية ، وإنما يذكر الدينار (العثري) وهو نسبة إلى (عثَّر) المدينة الساحلية التي كانت تقع شمالي زبيد ، وكان بنو طرف الحكمي هم المتحكمون فيها . أي أن دولة بني طرف هم أصحاب العملة المتداولة في تهامة . والمقدسي يؤكد على هذا أيضاً بأن نقودهم هي النقود (العثرية) .

وإذا ماعدنا إلى العملات التي وجدت من خلال التنقيب وصارت محفوظة في المتاحف ، فإننا نجد ديناراً أشار روبرت دارلي دوران[2] إلى أنه ضرب في صنعاء عام ٢٠٢ هـ ووجد في الوجه الأول لهذا الدينار اسم محمد ، فقال الكاتب ماترجمته : « وجود اسم محمد على هذا الدينار قد يحتج به أنه ضرب تحت تخويل من والي تهامة العسكري محمد بن زياد مؤسس زبيد » وقد أحسن الكاتب صنعاً حينما أورد العبارة بهذه الصيغة غير الجازمة ، لأن هذه العملة لاتوحي بوجود الدولة الزيادية ، وأما اسم محمد - إن كان يرمز إلى من ضرب في عهده - الذي قيل بأنه يرمز إلى محمد بن زياد فمن المعروف - إن صدقت الروايات - أنه وصل إلى زبيد واتخذ منها مقراً وعاصمة ، فكيف يضرب عملته في صنعاء وهي مازالت خارجة عن سلطته ، خاصة أن صنعاء في هذه الآونة كانت تحت سلطة الوالي العباسي محمد بن علي بن عيسى بن ماهان الذي قدم اليمن عام ٢٠٠ هـ للتصدي للحركة العلوية التي تولاها إبراهيم بن موسى المعروف بالجزار[3] .

= ربيع حامد خليفة بعنوان : مناسج الطراز الخاصة بمدينة صنعاء ، دراسة حول المنسوجات اليمنية في العصر الإسلامي ، المنشورة في مجلة الإكليل عدد ٢ ، السنة السادسة عام ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م ، ص ٤٤ - ٥٣) .

(١) صورة الأرض ٣٢

(٢) DORAN. p. 183 .

(٣) ابن الديبع ، قرة العيون بأخبار اليمن الميمون ١٤٦/١

فالأقرب للصواب إذن ؛ أن محمداً الذي ورد في الدينار هو محمد بن علي بن عيسى بن ماهان ، لأن الدينار الذي وجد مضروباً في صنعاء في عهد المعتصم ورد فيه حرف (ع) وكان يرمز للوالي العباسي عبد الرحيم بن جعفر الهاشمي الذي تولى الولاية ٢٢١ هـ ومكث خمس سنين حيث عزل عام ٢٢٦ هـ[١] .

وهكذا فالعملات المضروبة في صنعاء كانت على العيار العباسي للدينار والدرهم .

ولكن العملة التي ظهرت في أيام بني زياد وأنها ضربت في مدينة زبيد نفسها فهي دينار ذهب مؤرخ بعام ٣٤٦ هـ وعليه اسم إسحاق بن إبراهيم وهو أبو الجيش . ويسبقه لقب الخليفة العباسي الذي يعاصره وهو المطيع لله[٢] الذي حكم مابين (٣٣٤ ـ ٣٦٣ هـ / ٩٤٦ ـ ٩٧٤ م) مما يدل على تبعيته للدولة العباسية .

لقد اضطررنا لهذا الاستطراد لنثبت وجود عملات (زيادية) ، وأن دار الضرب كانت في زبيد نفسها . وكان الوصابي[٣] قد أشار بأن الشراحبين كانوا يضربون العملة باسم المأمون ، ولا شكَّ أن دار الضرب ستكون في زبيد نفسها .

وقد أكد ابن المجاور[٤] على وجود دار ضرب المسكوكات في زبيد ، إلا أن الملاحظ أن كتب الرحالة لم تتضمن ذكراً لنقود زيادية أو نجاحية ، بينما ذكروا العملة (العثرية) ، وهذا يعني أن النقود (العثرية) كانت أقوى من غيرها ، ولذا كانت متداولة ولها قيمتها الاعتبارية ، ومن هنا صارت هي العملة المشهورة

---

(١) المصدر نفسه ١٥١/١ ، ورد في مقالة دوران ١٨٣ أن اسمه عبد الرحمن بن جعفر وهذا خطأ بينما الصحيح ماأثبتناه .

(٢) DORAN. p. 184 .

(٣) تاريخ وصاب ١٠١

(٤) المستبصر ٩٠

التي تستحق الذكر ، فهذا التفسير الوحيد الذي يمكن الأخذ به ، ونحن ندرس تاريخ المسكوكات الزبيدية .

وفي مطلع القرن السابع الهجري حينما كانت زبيد جزءاً من الدولة الأيوبية كانت العملات تصدر عن دولة بني أيوب ، وكان الأمير الذي يأمر بضرب العملة يسجل اسمه على العملة المضروبة ، فقد ضربت الدراهم الكبار[1] بأمر الملك المعزّ إسماعيل بن طغتكين (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م) وكان وزنها ١٣ قيراطاً ، وضرب الدراهم بأمره أيضاً في مكة على قوانين اليمن[2] ، وهذا يدل على أن لأهل اليمن أنظمة وقوانين محددة للعملات من ناحية الوزن والحجم والشكل والكتابة التي تتضمنها العملات .

وقد أكد ابن المجاور بصورة تقرير نهائي بأن الدراهم التي كانت قبل الملك المعزّ إسماعيل كانت دراهم عباسية ، ولكن يبدو أن تلك الدنانير كانت تضرب في المدن والدول المختلفة في العصور المتعاقبة .

ويظهر أن الأيوبيين كانوا مهتمين بدور الضرب ، وأنها أيضاً كانت ضخمة ، ونتاجها كان ضخماً أيضاً ، ويلاحظ أنها لم تكن تابعة للدولة ولكن هناك من يتقبلها على أن يدفع للدولة مبلغاً من المال كلّ عام مقداره ثلاثة عشر ألف دينار[3] ، وهذا يعني أن الدولة لا تتدخل في أمر دور الضرب ولكن لا بدَّ من الإشراف والمراقبة عليها .

---

(١) ضربت دراهم صغيرة بعد ذلك وخاصة أيام الملك يوسف (المسعود) وكان وزنها أربعة قراريط وحبة ، وكانت تعرف بالسيفي (انظر : المستبصر ٨٩) .

(٢) ابن المجاور ، المستبصر ١٢ ، ٨٩

(٣) المصدر نفسه ٩٠

ويلفتنا ابن المجاور[1] إلى أن (الصنجة)[2] المستخدمة في وزن النقود في زبيد كانت أقلّ من صنجة عدن ، ولم يخبرنا ابن بطوطة عن أي عملة لا لشيء إلا لأنه لم يكن مهتماً إلا بالعادات البارزة أو زوايا الصوفية .

وتوجد وحدات من النقود ذكرها ابن المجاور[3] ، وهي الفلوس[4] حيث تستخدم للتعامل مع الأمور الصغيرة ، كأن يشتري أحدهم رغيف خبز بفلس ، وقطعة حلاوة بأربعة فلوس وهكذا .

وأما المكاييل والموازين ، فقد أمدّنا ببعض منها المقدسي ، وسنحتاج إلى الاستعانة ببعض المراجع والمصادر للتعريف بها .

فالمكاييل هي الصاع والمد والمكوك ، ثم يحدد لنا مقادير هذه المكاييل فيقول : « المد ربع الصاع ، والصاع ثلث المكوك » ، ويعطينا وزنين للصاع أوَّلها خمسة أرطال وثلث الرطل وهذا المستعمل في أسواق زبيد . أما الصاع الذي يستخدم شرعياً لتقدير كفارة اليمين فكان وزنه ثمانية أرطال ، وهذا الذي أقرَّه عمر بن الخطاب وأقبل عليه الصحابة ، مع العلم أن الرطل المستخدم لديهم هو الرطل البغدادي[5] .

---

(١) المستبصر ٨٩

(٢) الصنجة أو السنج من الفارسية سنكة ، وتعني الحجر والوزن ويراد بها العيار . (انظر : حسان حلاق ، تعريب النقود والدواوين في العصر الأموي ٧٣) .

(٣) المستبصر ٨٦

(٤) الفلوس : جمع فلس . وهي لفظة يونانية لاتينية وهي نقود مسكوكة من النحاس تستخدم لشراء الأشياء الحقيرة ، ولا يشترى بها شيء من الأمور الجليلة . (انظر : المازندراني ، السيد موسى الحسيني ، تاريخ النقود الإسلامية ١٥٥ ـ ١٥٨) .

(٥) المقدسي ، أحسن التقاسيم ٩٨ ، ٩٩

وبالعودة إلى المصادر ، فإن أول ما يقابلنا في المكاييل الصاع ، ويعرف بأنه « المكيال الذي يكال به وتدور عليه أحكام المسلمين »[1] . وتضافرت الروايات على أن الصاع الشرعي هو الذي يزن خمسة أرطال وثلث الرطل[2] ، لأن صاع النبي ﷺ كان أربعة أمداد وكلّ مدّ رطل وثلث ، والرطل هو الرطل البغدادي الذي يزن ١٢٨ درهماً . وهناك من يقول بأن المدّ هو رطلان ، والصاع بهذا الوزن يكون ثمانية أرطال كما قال المقدسي . وقد أخذ بعض الفقهاء بهذا الوزن وبعضهم بذاك[3] ، وبهذا كان أهل زبيد يتعاملون بالوزنين معاً حسب الحالة التي تواجههم .

بل يعطينا المقدسي معلومة أخرى عن مكاييل خاصة بأهل اليمن ، وتستخدم في المراكب على وجه الخصوص ، فقد كان لهم مكيال يعرف بالصاع أيضاً منه صاع صغير ، وهذا يستخدم في دفع الجرايات (أي : ما يجري أو ما يفرض للملاحين العاملين على المراكب) ، ومنه صاع كبير يستعملونه في معاملاتهم التجارية ، ولم يخبرنا المقدسي عن وزن أي منهما . وهل هو معتمد من قبل الدولة أم لا ؟ لأن هذه المكاييل السابقة كانت توزن وتضبط من قبل الدولة ، وتوضع عليها الأختام والعلامات حتى لا يحصل فيها الغش ، وكانت تختم عادة بخاتم المحتسب[4] ، فهل هذا الصاع المستخدم على المراكب مختوم أيضاً أم بعيد عن الرقابة ؟ ليس لدينا علم بهذا ؟

---

(١) سامح ، المكاييل في صدر الإسلام ٢٦

(٢) المدّ : مكيال استخدم عند الرومان وهو رطلان تبعاً لرأي الحنفية أو رطل وثلث تبعاً لوزن أهل المدينة . (سامح ، المكاييل ٣٠) .

(٣) أبو عبيد ، الأموال ٦٢٠ ، ٦٢١ ، وانظر : سامح ، المكاييل ٢٦ وما بعدها . وابن الرفعة ، الإيضاح والتبيان في معرفة المكيال والميزان ٥٦ ، ٥٧

(٤) ابن الأخوة ، معالم القربة في أحكام الحسبة ١٤٧

يبقى معنا المكوك ، وقد أفاض الدكتور سامح[1] في الحديث عنه وأشار إلى تقدير ابن سلام[2] بأنه عشرة أمداد ، ولكن الدكتور سامح لم يسترح لهذا الرأي ، لأنه خلص إلى أن المكوك مكيال عرفي إقليمي (تختلف مقاديره باختلاف الأقاليم الإسلامية) . ونستطيع أن نشارك الدكتور سامح في رأيه لأن المقدسي[3] يخبرنا بأن الصاع هو ثلث المكوك ، وهذا يعني أن المكوك ثلاثة أصواع ، وبما أن الصاع هو خمسة أرطال وثلث فيكون المكوك ستة عشر رطلاً ، بينما ابن سلام[4] يجعله عشرة أمداد أي ثلاثة عشر رطلاً وثلث الرطل . والمقدسي[5] نفسه يخبرنا عن المكوك في بلاد ما بين النهرين بأنه خمسة عشر رطلاً . وهكذا فنحن نؤيد الدكتور سامح في رأيه بأن (المكوك) كان يخضع لما تعارف عليه أهل البلد الذي يستعملونه .

وننتقل من أواخر القرن الرابع الهجري إلى أوائل القرن السابع الهجري ، فيقابلنا ابن المجاور[6] بمكيال جديد وهو (المنّ) ولا يكتفي بذكره بل يحدّد مقداره أو وزنه وهو ثلاثمائة وعشرين درهماً . ونصَّ على تخصيص هذا الوزن باليمن ، مما يدلّ على أن في غير اليمن يختلف عن هذا الوزن . وهذه اللفتة صادقة لأن الثلاثمائة والعشرين درهماً تساوي رطلين ونصف على حساب أن الرطل هو ١٢٨ درهماً ، بينما جاء في المعاجم بأن (المنّ) معيار قديم كان يكال به أو يوزن ومقداره رطلان[7] بغداديان . وإذن فيختلف وزنه ، وهذا يجعلنا نعتبره كسابقه

---

(١) المكاييل ٣٩ ، ٤٠

(٢) الأموال ٦٢٧ ، ٦٢٨

(٣) أحسن التقاسيم ٩٨

(٤) الأموال ٦٢٨

(٥) أحسن التقاسيم ١٤٥

(٦) المستبصر ١٢

(٧) ترتيب القاموس المحيط ٢٨٨/٤ . والمعجم الوسيط ٨٨٩/٢ .

بأنه مكيال يخضع لعرف أهل البلد الذي يتعاملون به .

ويزيدنا ابن المجاور[1] وضوحاً حينما يبيّن لنا استعمالاته فقال : « وبه (أي المنّ) يباع النبات [أي سكر النبات] والسكر والعسل وجميع الحوائج الحلوة ، وهناك (منٌّ) وزنه أربعمائة درهماً ، وهذا يباع به اللحمة والشحم .

ونوع آخر يوزن ثمانمائة درهماً وبه يباع السمن والزيت والخل ، وأفاد في مكان آخر بأن السمن يباع في إناء يعرف بـ (الجمنة) وتتسع لخمسة أمنان أي عشرة أرطال .

فهذا التفصيل الذي أورده ابن المجاور يعطينا دلالة واضحة على أن هذه الوحدة تعدّ وحدة وزنية وكيلية ، وأنها مختلفة الأوزان والأحجام ، ويختلف أيضاً عن المنّ في بلدان أخرى ، كما هو الحال في خوارزم بتقرير ابن المجاور نفسه .

وقد عاد ابن المجاور[2] ليفصل في بعض المكاييل فقال : « تكال الغلال بالمدّ ، والمدّ اثنان وثلاثون ثمناً ، كل ثمن اثنان وثلاثون (زبدي) ، كل (زبدي) (منّ) ، كل (منّ) رطلين ، كل رطل مائة وعشرين درهماً ، كل درهم ثلاثة عشر قيراطاً . وإن (منّ) الحرير مائتين وستين درهماً ، و (منّ) اللحم أربعمائة درهماً ، وتباع العصارة والقطن والهدس (لعلّه العدس) والشيدز (لا أدري ماهو) بالمدّ له عن خمسة أمنان بالكبير » وهذه العبارة الأخيرة غامضة ، ولكن من مجموع ماسبق نستخلص أن (المنّ) يستخدم تارة كوحدة كيل ، وتارة كوحدة وزن ، ويختلف مقداره ووزنه باختلاف السلعة التي يستخدم لها .

---

(١) المستبصر ١٢ ، ١٣

(٢) المصدر نفسه ٨٩

ويدلنا ابن المجاور[1] على وحدات الأطوال أو القياس ، فيعطينا وحدة (الذراع) وهو إما بالحديد وإما باليد ، ولا يعرفنا بالفرق بينهما ، ولكنه يبيّن الأنواع التي تذرع بها ، وهي الأقمشة منها (البرد) كل بردة طولها ثمانية أذرع باليد ، بينما هناك نوع آخر من الثياب يعرف بالشقق البيض ، فهذه كان طول الواحدة عشرين ذراعاً بالحديد .

ولا نستطيع أن نقرر طول ذراع الحديد ، أما ذراع اليد فهي الذراع الشرعي التي يكون طولها أربعة وعشرون أصبعاً ، ويعادل ٤٦,٢ سم[2] ، أما الذراع الحديد فهناك أنواع منها وصل عددها إلى سبعة أذرع ، تتراوح بين القصر والطول ولا داعي لذكرها هنا[3] .

جوانب من الحياة الاجتماعية

الحياة الاجتماعية عامرة بالحركة ، زاخرة بالجوانب المثيرة ، وهي في حاجة إلى دراسات مستفيضة ، لا تجعل من هذه الحياة أشلاء متناثرة ، وإنما لتكون لحمة واحدة . ولكي يتحقق ذلك لا بدَّ من الإدراك أن السلوك لا يخلو من دافع ، والدافع لا بدَّ له من تصور ، والتصور لا بدّ أن يكون في قرارة النفس يشكل معتقداً أو مسلماً من المسلمات . فلا يفصل الباحث بين العمل الظاهر والتصور الباطن ، فالعمل فرع من تصوره .

ونحن هنا إذ نتلمس الحياة الاجتماعية لزبيد من خلال ما كتبه الرّحالة فلا نجد أمامنا إلا ثلاثة منهم أشاروا إلى جوانب جزئية من تلك الحياة أما الباقون فلم يكلفوا أنفسهم جهداً للحديث عنها .

---

(١) المستبصر ٨٩

(٢) ابن الأخوة ، معالم القربة ١٥١ . ابن الرفعة ، الإيضاح (المحقق ٧٧) .

(٣) أحيل القارئ إلى مصدرين هامين هما : الأحكام السلطانية لأبي يعلى الفراء ١٧٣ ، ١٧٤ ، تصحيح وتعليق محمد حامد الفقي ، وابن الأخوة ، معالم القربة ١٤٨ ـ ١٥١

أحدهم : وهو المقدسي وقد دخل زبيد في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري ومعلوماته التي ذكرها في هذا الشأن قليلة جداً .

وثانيهم : ابن المجاور وقد مكث في اليمن زمناً وعاش في زبيد وقتاً لا بأس به وكان هذا في الربع الأول من القرن السابع الهجري .

وأما الأخير : فهو ابن بطوطة وكان بعد ابن المجاور بقرن حيث كان في اليمن في الربع الثاني من القرن الثامن الهجري .

فالفروق الزمنية كبيرة بين الرحالة الثلاثة ، وما علينا إلا أن نجمع شتات معلوماتهم عن الحياة الاجتماعية ، بقدر ماتسمح لنا تلك المعلومات من حركة وبما نضيفه إليها من معلومات توضيحية ، أرجو أن أصل إلى رسم صورة مبسطة للجوانب التي ذكرت عن الحياة الاجتماعية .

فالمجتمع هو مجموعة من الأفراد عاشوا معاً فترة طويلة على مساحة من الأرض ، فنشأت في أوساطهم قواعد وأحكام تنظم علاقاتهم الاجتماعية ، مما يسمح بظهور شعور جماعي يجمع هؤلاء الأفراد في وحدة اجتماعية واحدة[(١)] .

هذا التوصيف لو أسقطناه على زبيد ، وحاولنا أن نجمع مالدينا من معلومات وشكلناها في هذا الإطار ، نكون قد قمنا بعمل ما ، لبلورة صورة قريبة لما نطمح أن يكون عليه البحث .

في بداية رسم الصورة تطالعنا قضية المصطلحات التي ترد في علم الاجتماع ، ومدى انطباقها على مانريده من دراستنا أم لا ؟ **كالطائفة والطبقة والشريحة .**

فالطائفية أو الطائفة ترتبط في علم الاجتماع بنوع من المنظمات الدينية في طائفة أو ملة « تمثل الشيع والجماعات التي تعتقد بأفكار دينية تختلف عن الأفكار

---

(١) دينكن ميتشل ، معجم علم الاجتماع ٢٢٨

التي يعتقد بها الدين الأصلي » « وغالباً ماتكون الطائفة معادية للمجتمع الذي وجدت فيه ، وإذا لم تكن معادية ، فإنها لاتربطها به أية روابط اجتماعية متماسكة »[1] .

بينما كلمة (طائفة) في استعمالها المعجمي لا غبار عليها لأنها الجزء من الناس ولا يعني المغايرة ، والاستعمال القرآني للكلمة كذلك لا يقصد به غير المجموعة من الناس التي لا تختلف عن أو مع المجتمع ﴿ وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ﴾ [النور ٢] ، ﴿ وإذا كنت فيهم وأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك ... ﴾ [النساء ١٠٢] ، ﴿ إن ربَّك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك ﴾ [المزمل ٢٠] .

هذا الاستعمال لكلمة (طائفة) لم تكن تَشُبْهُ شائبة ، إلى أن اصطلح الأوروبيون على كلمة (طائفة) اصطلاحاً خاصاً ، فأصبح مكروهاً تتقزز منه النفوس ، ومن هنا فالأحرى بنا أن نعرض عن استعماله .

ومثله مصطلح (الطبقة) حيث كثيراً ماارتبط بالمفهوم الماركسي[2] للطبقية الذي يقوم على الصراع بين الطبقات على أساس العامل المادي ، بناءً على رصد لظاهرة نشأت في مجتمع بعينه ، ليس بالضرورة أن تكون عامة في حياة البشر ، وليست بالضرورة قائمة على المبررات والعوامل التي صيغت حولها .

وأما استعمالات الكلمة لغوياً فلا تخرج عن « الجيل بعد الجيل ، أو القوم المتشابهون في سن أو عهد »[3] وبهذا المعنى استعمله علماء المسلمين ، فظهرت

---

(١) ميتشل ، معجم علم الاجتماع ٧٣ ، ١٨٤

(٢) المصدر نفسه ٢٢١ ، ٢١٤

(٣) المعجم الوسيط ٢/٥٥١

الكتب التي تحمل الكلمة نفسها (طبقات ابن سعد .. طبقات الشافعية .. طبقات الحنابلة .. طبقات المفسرين .. إلخ) .

وخروجاً من اللبس الذي يقع منذ الوهلة الأولى عند قراءة مصطلح ما ، فإنني أحبذ ـ في حدود ـ استعمال مصطلح الشريحة (وجمعها شرائح) ، وهي كلمة مستعارة من « الشريحة أي القطعة المرققة من اللحم وغيره »[(1)] ... فإذا ماتكلمنا عن قطاع من المجتمع أو شريحة منه ليس معنى هذا أنه جزء معادٍ لبقية المجتمع .

فشرائح المجتمع متنوعة : القبلية ، والمذهبية ، والحرفية ، والعرقية ، وشرائح ممكن أن نسميها طبيعية ، لأنها لابدَّ أن توجد في أي مجتمع .

ونبدأ بهذا النوع وهو الشرائح الاجتماعية الطبيعية . وهو تفاضل طبيعي بين الناس في الفقر والغنى ، في الذكاء والغباء ، في الرفعة والضعة ، فمن الحتم أن يوجد هذا التفاضل ليقوم المجتمع وتتكامل وتتكافل قواه لبنائه ، ولا يبنى المجتمع بشريحة واحدة ، أو دون وجود أناس يخدم بعضهم بعضاً ، فالإنسان مستخلف على ظهر هذه الأرض ، ولا بدَّ من إعمارها ، ولا بدَّ من وجود اختلاف بين البشر ليقتسموا إعمار الأرض : ﴿ وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعضٍ درجات ليبلوكم فيما آتاكم إن ربَّك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم ﴾ [الأنعام ١٦٥] ، ﴿ ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ﴾ [الزخرف ٣٢] ، ﴿ والله فضَّل بعضكم على بعض في الرِّزق ﴾ [النحل ٧٠] .

فالتفاضل بين البشر مقصود للابتلاء ولتسخير بعضهم بعضاً في إعمار الأرض .

---

(١) المصدر نفسه ٤٧٨/١

وهذا مانلمسه في زبيد ، فهناك شريحة الحاكمين ، سواء أتمثلت بصورة قبلية كالشراحيين أو ولاة تابعين للدولة . أو أسر حاكمة كآل زياد في دولتهم . والنجاحيين وبني مهدي وبني أيوب . أو أتباع مذهب معين كالصليحيين التابعين للمذهب الإسماعيلي .

ومما لاشكّ فيه أن هذه الشريحة سيتبعها العديد من القادة والأمراء والولاة والجنود ، وفي الجهة الأخرى هناك شريحة المحكومين وفيهم الغني والفقير ، والغبي والذكي ، والحرفي والعاطل ، والتاجر والمستهلك .. إلخ .

ونحن في حاجة إلى وقفة لنعرف تركيبة زبيد القبلية ، هل هي داخل نطاق قبيلة واحدة ، أم تشارك فيها أكثر من قبيلة ، وهل بينها صراع وتنافس على السيادة ، أم لا يوجد ، أم لا وجود للجانب القبلي أصلاً ، وتعتبر بهذا مدينة مفتوحة يسكنها العديد من السكان ؟!

يصعب علينا الإجابة على هذه التساؤلات بوضوح ، ولكن يمكننا وضع إجابة ولو جزئية . فالمقدسي[1] يخبرنا بأن آل زياد من همدان ، وهذا يعني أن جزءاً من همدان يسكنون زبيد . ويعطينا الهمداني[2] إشارة إلى وجود بعض من خولان وهمدان في نواحي زبيد ، بينما الأصل أن (الْحُصَيْب) وهي قرية وادي زبيد أي المدينة التي عرفت بعد ذلك بزبيد هي للأشعريين ، ولكن يخالطهم جزء من بني واقر من ثقيف . ولموقع زبيد القريب من بلاد الحبشة دخلها أعداد منهم أو أنهم من بقايا الحبشة السابقين الذين استوطنوا تهامة اليمن ، أو دخلوا عن طريق البيع والشراء ، فالرقيق الحبشي كان يجيء من الحبشة ، وكانت هذه عادة الدول القائمة حينئذ كالطولونيين (٢٥٤ ـ ٢٩٢ هـ / ٨٦٨ ـ ٩٠٥ م) ،

---

(١) أحسن التقاسيم ١٠٤

(٢) صفة ٧٣ ، ٢٥٨

والأخشيديين (٣٢٣ ـ ٣٥٨ هـ / ٩٣٥ ـ ٩٦٩ م) في مصر ، ونحن نعرف أن كافور الأخشيدي (ت ٣٥٦ هـ / ٩٦٧ م) كان من الرقيق الأحباش[١] ومثل هذا في زبيد ، فقد وصلوا إلى سدّة الحكم ، وصارت لهم دولة عرفت بدولة النجاحيين ، وقد أشار المقدسي[٢] إلى وجود مجموعات من (الحبوش) أي الحبشة وأهل النوبة ، و (البجة)[٣] ، وأن صراعاً كان ينشب بين هذه العناصر الثلاثة في القرن الرابع الهجري ، ويبدو أن الصراع قد حسم لصالح (الحبوش) أو الأحباش على يد النجاحيين الذين كانوا عبيداً لعبيد آل زياد ، ويبدو ـ أيضاً ـ أنهم بمجرد أن تسلموا السلطة صبّوا جام غضبهم على من حولهم من الأجناس حتى العرب أنفسهم[٤] . وربما قاموا بهذا الإجراء للتخلص من المعارضين ، لأن الحسين بن سلامة الذي خلف آل زياد في الحكم كان نوبي الأصل[٥] . ولكنه كان يحكم باسم آل زياد ، أما الأحباش الذين عرفوا بالنجاحيين (٤١٢ ـ ٥٥٤ هـ / ١٠٢١ ـ ١١٥٩ م) الذين كانوا عبيداً لعبيد آل زياد فقد تخلصوا من معارضيهم بشراسة ، ونكاد نوافق زاهر رياض[٦] على تصريحه العريض بأن هذه الدولة « كانت دولة حبشية بكل ماتعني هذه الكلمة من معان ، حبشية بسلاطينها وحبشية بوزرائها ، وحبشية بجنودها وعدتها ، حبشية بنظامها وتقاليدها » .

---

(١) العامري ، غربال الزمان في وفيات الأعيان ٣٠٩

(٢) أحسن التقاسيم ١٠٢

(٣) البجة : بضم أولها : مجموعة قبائل بدوية تعيش في الصحراء الشرقية بين حوض النيل وساحل البحر الأحمر من مصر إلى حدود الحبشة ، وهي من أصل حامي . (عطية الله ، القاموس الإسلامي ٢٧٤/١) .

(٤) ابن المجاور ، المستبصر ٧٨ . تولى أحد قادة بني نجاح المسمى ريحان الكهلاني مولى سعيد بن نجاح إبادة العرب من تهامة .

(٥) الكبسي ، اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية ٢١

(٦) دولة حبشية في اليمن ، دولة بني نجاح ١١٦

وقد عارض آل نجاح في حكم زبيد آل الصليحي الذين يقومون على أساس مذهبي وهو المذهب الإسماعيلي ، ولم يستقروا في زبيد ، ولكنهم دخلوها فاتحين .[1]

وجاء على إثرهم قوم من حمير على رأسهم السيد علي بن مهدي لتقوم دولة (بني مهدي) منفذين مذهبهم الخارجي المشوب بالأفكار الغريبة[2] .

ومرة أخرى تأتي شريحة إلى الحكم ليست من زبيد أيضاً وهي شريحة الأيوبيين ، وهكذا يمكن أن نخلص إلى أن الشريحة الحاكمة التي كانت في زبيد منذ أصبحت مدينة مشهورة في القرن الثالث الهجري وما بعده بدأت بالشراحيين ثم آل زياد ثم النجاحيين والصليحيين ثم بني مهدي ثم أخيراً بني أيوب .

هذه الشرائح الحاكمة لاأظنها كانت تنقرض من المدينة بمجرد إزالة سلطانها ، بل من البداهة أن يبقى منها أجزاء تصبح جزءاً من المجتمع كمجاميع بشرية أو كقبائل أو كأسر .

نضيف إلى ذلك أن الدلائل تؤكد على وجود بعض من الفرس وأنهم كانوا مهتمين بالتجارة ولا يعنيهم الحكم والسلطة . ولهذا كوّنوا الأموال العظيمة وقام بعضهم بالأعمال الخيرية كبناء المساجد[3] .

وليس بالطبع أن شريحة التجار مقتصرة على الفرس ، لأن المقدسي[4] يصف المدينة بأن بها تجاراً كباراً ، وابن بطوطة[5] يصفها بأنها ليس باليمن بعد صنعاء أغنى من أهلها ، فهذا وذاك يؤكدان على وجود شريحة كبيرة من التجار .

---

(١) دولة حبشية في اليمن ، دولة بني نجاح ١١٦ ، المجلة التاريخية العربية ، المجلد الثامن ١٩٥٩ م ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة .

(٢) ابن الديبع ، بغية المستفيد ٦٥ ـ ٦٧

(٣) ابن المجاور ، المستبصر ٢٤٧

(٤) أحسن التقاسيم ٨٥

(٥) الرحلة ١٦٥

وهنـاك شريحـة العلمـاء ، وهؤلاء يشكلون كيـانـاً مهماً في هـذا المجتمـع ، لهـا تقاليدها واهتماماتها وأجوائها الاجتماعية المختلفة . وكان الأمل يحدونا أن نجد شيئاً عن هذا في كتب الرحالة ولكن الأمل خاب لإقفارها الشديد .

ومما لا ريب فيه أن هنـاك شرائح متعـددة في المجتمع لا بـدَّ من وجودهـا وهم أصحـاب الحرف المتعـددة كالحـلاقين والنجـارين والكنـاسين والبنـائين والبـاعـة المتجولين وكل من يمتهنون المهن الدنيا ، وإلى جوار هؤلاء سيوجد من يتـأفف من امتهانها أو لا يحسنها ، بينما لديه القدرة على أداء واجبات أخرى في المجتمع ، وهكذا تتعاون جميع الفئات والشرائح على أداء مهام المجتمع ، بالرغم من التفاوت والتفاضل فيما بينهـا ، ويـؤكـد محرر معجم علم الاجتماع[1] على أن ابن بطـوطـة يرى : « للتفاوت الطبقي حكمة ووظيفة ، فـالإنسـان لا يستطيع القيـام بجميع أعمـال ووظائف المجتمع . فاختلاف طبقـات النـاس يسهل قيـام كل طبقـة بعمل معين ، ومن ثم تتعـاون الطبقـات الاجتماعيـة على تحقيـق التكامـل في الـوظـائف الاجتماعية » .

☆ ☆ ☆

وإذا كنا قد تحدثنـا عن شرائح المجتمع ، فـإن لمجموع المجتمع بفئـاتـه وشرائحـه كلها صفات وطباع وتغيرات طرأت على المجتمع في هذه الحقب المتعاقبة .

فقد اتفق الرحالة الـذين رصـدوا الجوانب الاجتماعيـة لأهل زبيـد على بعض الصفات والطباع في الحقب المختلفـة ومنهـا النظـافـة في ملابسهم ، وفي منـازلهم ، وفي أسواقهم ، وحمامـاتهم ، واهتمامهم بـالمنـازل الفسيحـة ، وحسن الخلق ، وتزيين منازلهم ، وكثرة طيبهم ، والمركوبات الوثيرة[2] .

---

(١) ص ١١٨

(٢) المقـدسي ، أحسن التقـاسيم ٨٤ ، ٨٥ . ابن المجـاور ، المستبصر ٧٠ ، ٢٤٦ . ابن بطـوطـة ، الرحلة ١٦٥

بينما انفرد بعض الرحالة بذكر بعض الصفات والطباع ، فالمقدسي[1] في القرن الرابع الهجري يقول : « وأهلها لهم أدنى ظرف » وابن المجاور[2] يقسم يميناً ألا يوجد هذا الظرف في عموم اليمن ، وكان هذا في الربع الأول من القرن السابع الهجري . أما ابن بطوطة[3] الذي جاء بعد ابن المجاور بحوالي قرن ونصف فإنه يصف أهل زبيد بلطافة الشمائل وحسن الأخلاق وحسن الصور . ويبدو أن ابن المجاور كان مبالغاً في الأمر أو أن الظرف واللطافة والحسن كان له مقياس معين عنده .

وأما مأكلهم فيقوم أصلاً على الحبوب وخاصة الدخن والذرة ، وهذا ما أجمله كل من ابن المجاور[4] والمقدسي[5] إلا أن الأخير أعطانا تفصيلات جيدة .

فقد أشار إلى بعض السلوكيات الاجتماعية للأكل . فأهل زبيد يميلون إلى الأكل والشراب وأن لا حديث لهم سوى الأكل ، وهذا يعني ـ كما لاحظ ـ أنهم يتميّزون بالدّعة والكسل ، وربما كان للبيئة الحارة دور في هذا المسلك .

وبالرغم من اهتمامهم بالأكل إلا أنهم لا يهتمون ولا يتكلفون في طريقة أكلهم ، وكانوا يصنعون الخبز في منازلهم ، وبما أن نوعين من الحبوب يهتمون بها وهما الدخن والذرة فقد كانوا يخزنونها في مدافن أرضية من موسم إلى آخر . ويستخدمون أنواعاً من الطعام المستخلصة من الدخن والذرة . منها (الخفوش) هكذا جاء عند ابن المجاور ، ولكن يبدو أن الصحيح (الشفوت) وهذا نوع من الطعام يعمل من الخبز المصنوع من الذرة يسمى (اللحوح) . ويوضع في اللبن

---

(١) أحسن التقاسيم ٨٥

(٢) المستبصر ٢٤٦

(٣) الرحلة ١٦٥ ، ١٦٦

(٤) المستبصر ٨٦

(٥) أحسن التقاسيم ٨٥

المخلوط بأنواع من البهارات ، ونوع آخر من الخبز يسمى (الكبان) يصنع بطريقة معينة تجعله مستساغ الأكل دون أدام . وهناك نوع من الخبز يعرف (بالفطير) وهذا يؤكل باللبن والسمك ويسمونه (الملتح) .

ولديهم أنواع من الحلويات منها (القند) و (الحلاوة) ، ولهم من مشتقات الحليب : اللبن و (القطيب) والجبن ويتداولونه في وجباتهم . أما اللحوم فالتصريح في أكثر من موضع إلى السمك ، وليس معنى هذا ألا وجود للحوم الأخرى ، ولكن يبدو أن هذا هو الغالب .

وأكثر طبيخهم الملوخية ، وكثيراً ما يستخدمون (السليط = زيت السمسم) أداماً لهم مخلوطاً بأنواع الخبز .

ولهم من الفواكه البطيخ ويسمونه (البرطيخ) أو (الْحَبْ حَبْ) حتى أن الباعة ينادون عليه في الأسواق (حَبْ حَبْ كثير الماء قليل الْحَبِّ) هذا بالإضافة إلى (الموز) و (العنب) ، ويستخدمون أيضاً (الدُّبَّاء) وهو (القرع) أو (اليقطين) فيطبخونه بطريقة الشيِّ في التنور .

ووجباتهم ثلاث ، ولكلٍّ وجبة نوع من الطعام ، فالصبوح يتناولون فيه فطير الدخن والقطيب أو الملتح والسليط ، أما العواف (أي الغداء) فيأكلون فيه الخبز مع قطع الحلاوة . ولم يذكر ابن المجاور الوجبة الثالثة ، والاحتمال أنه لبداهة وجودها لم يتعرض لها .

☆ ☆ ☆

وأما الظواهر الاجتماعية التي وردت في كتب الرحالة والعادات التي أشاروا إليها[١] ومظاهرها المرصودة ، فإننا لا نجد تفصيلاً في هذا الجانب إلا عند

---

(١) العادات : اصطلاح يشير إلى أشكال التفكير والسلوك المستقر الذي يقوم به الفرد في المجتمع ، فهي تصرفات روتينية ومتكررة ، وأصبحت تمارس دون جهد . (معجم علم الاجتماع ٧٠ . =

ابن المجـاور وابن بطـوطـة . وقـد اتفقـا في ذكر ظـاهرة الاحتفـالات الرسميـة والعادات التي تمارس فيها ، بينما كان ابن المجـاور هو صـاحب السبق في ذكر بقيـة الظواهر . ويلزمنا اتفاقهما في عادة واحدة وهي عـادة الاحتفـال بموسم النخيل أن نورد هنا الوصفين لهذه العادة ونحـاول تحليلهـا عنـد الكاتبين ، وسنبـدأ بـالأسبق زمناً وهو ابن المجاور[1] . فيقول :

« فإذا فرغ النخل خرج الصغار مع الكبار ، والأخيـار مع الفجـار بـالطبل والـزمر . بعـدمـا يُلْبِسـوا جَمَـلاً عُـدَّة تـامـة من الأجراس (لعلّهـا الأخراس أو الأجراس) ، والقلاقل (لعلّها الجلاجل) ويشدّ في رقبتـه المقـانع (المعـانق لأنهـا توضع في العنق) والحلي ، ويركب كل أربعـة من النـاس على جمل ، ونـاس منهم على الشقـادف (ربمـا المقصود أن هنـاك حيوانـات تحمل الأدوات المستخـدمـة في رحلتهم هذه وأدوات البيت المستخدمة غـالبـاً مـا تسمى في كثير من منـاطق اليمن بـالشقـادف ، فربمـا ركب بعضهم على الـدواب التي تحمل الشقـادف) يمشـون إلى مسجد مشرف على ساحل البحر . وهو موضع مبـارك ـ كما يزعمون ـ فيـه وطئت ناقة معاذ بن جبل وأثر كلكلها (أي : صدرهـا حينمـا بركت) لمـا رجع من اليمن إلى الحجـاز بعـد وفـاة النبي ﷺ عبر هـذه البلاد والسواحل ويسمى هـذا الموضع الفازة ـ أعني الـذي يتبحرون فيـه (أي يسبحون فيـه) ـ وينزل فيـه النسـاء مع الرجـال في البحر خليــط مليــط [هكــذا] وهم في شرب ولعب ورقص وقصف وزائـد ونـاقص . ومـا يخرج إلى هـذه الأمــاكن إلا في كل أسبـوع يـومين : يـوم الاثنين ويوم الخميس ، وإذا ما رجعوا من هنالك دخلوا البلد رأساً واحداً » .

= المعجم الوسيط ٦٣٥/٢) ، وأما الظاهرة : فهي الأمور المشرفة البارزة . فبينما المظهر هو الصورة التي يبدو عليها الشيء (المعجم الوسيط ٥٧٨/٢) .

(١) المستبصر ٨٠ ، ٨١

أما ابن بطوطة[1] فقد روى هذه الاحتفالات بصورة أخرى فيقول : « ولأهل هذه المدينة سبوت النخل المشهورة ، وذلك أنهم يخرجون في أيام البسر والرطب[2] في كل سبت إلى حدائق النخل ، ولا يبقى في المدينة أحد من أهلها ولا من الغرباء . ويخرج أهل الطرب ، وأهل الأسواق لبيع الفواكه والحلاوات ، ويخرج النساء ممتطيات الجمال في المحامل » .

فهذا الوصف عند الكاتبين لهذه العادة يوصلنا إلى عادتين مختلفتين في موسم النخيل : عند ابن المجاور عادة الترويح عن النفس إلى ساحل البحر بعد الخلاص من عناء موسم جني النخيل .

والعادة الأخرى التي ذكرها ابن بطوطة هي التعبير عن الفرحة بموسم النخيل ، ولكن القاسم المشترك بين العادتين هو الابتهاج والاحتفال والتزين ، والخروج الكامل وإقامة المهرجانات واستخدام آلات الطرب والرقص للتعبير عن فرحتهم . وما ذكره ابن المجاور من سباحة الرجال والنساء معاً عراة مختلطين كما جاء في تعبيره « خليط مليط » أمر يحتاج إلى توثيق ، وإذا كان هذا صحيحاً فإنه ينبئ عن فقدان حسّ الحياء الإنساني ، والغيرة على العرض ، وافتقاد التقيد بالشرع الإسلامي .

ولم نجد لديها عادة الاحتفال بالأعياد الرسمية ، وإن كان المقدسي[3] قد أشار إلى عادة الاحتفال بعيدي الفطر والأضحى في كلّ من عدن ومكة ولكنه لم يعطنا شيئاً عن زبيد .

---

(١) الرحلة ١٦٥

(٢) ثمرة النخيل لها أطوار ، وكل طور له اسم ، فأوّله طلع ، ثم خلال - بالفتح - ، ثم بسر - بضم الباء - ، ثم رطب ، ثم تمر (الرازي ، مختار الصحاح ٥١) .

(٣) أحسن التقاسيم ١٠٠

ومن الظواهر الاجتماعية ظاهرة الزواج ، ولها عادات مختلفة سواء في المهر ، أو الطرح ، أو الزواج بالأباعد ، أو اتخاذ المظاهر المتعددة في هذه العادات ، فأوّل خطوة في الزواج هي اختيار الزوج أو الزوجة ، وقد نجد في بيئات معينة أن الزواج الخارجي إلى الأباعد مرفوض بينما نجده في زبيد مرغوب فيه . وهذا ما يؤكده ابن بطوطة[1] ، إلا أن النساء أنفسهن يرفضن السفر مع الزوج الغريب مهما كانت المغريات ، ومع هذا يتمسكن بالوفاء له ، فينتظرنه حتى يعود إن قدرت له العودة ولا يطالبنه بالنفقة والكسوة . أما إذا كان الزوج مقيماً معها فإنها تقنع بالقليل ولا تثقل عليه بمطالبها .

وهذه الظاهرة التي لفتت انتباه ابن بطوطة ربما كانت من ضمن رؤيته التي « يعزى الظواهر الاجتماعية المعقدة إلى الحقائق الجغرافية التي تميّز المجتمع أو الإقليم »[2] عن بقية الأقاليم .

ومن مقدمات الزواج احتجاب البنات عن الأنظار حتى يتمّ العقد . فالقرى المحيطة بزبيد من ناحية الشمال لهم عادة حجب البنات عن النظار إلى أن يعقد نكاحها ويتفق على مهرها ، فإذا تمَّ ذلك ظهرت البنت بطبل وزمر على رؤوس الأشهاد ، ويقومون بالضيافات ، ويتقدم الناس للتسليم ، ويبادرون إلى (الطَّرْح) ، وقد علَّل ابن المجاور[3] عادة احتجاب البنت بالخوف من انحرافها « فتخرج عن الطريق على غير الطريق » .

ويربكنا ابن المجاور بإيراده هذه العادة هل نأخذها على علاتها ونصدقها لأنه شاهدها ؟ أم هي من الأخبار التي يسمعها خاصة أنه عقب عليها بقوله :

---

(١) الرحلة ١٦٥

(٢) معجم علم الاجتماع ١١٧

(٣) المستبصر ٢٣٩

« يقال إن الشامية (أي المناطق الواقعة شمال زبيد) على هذه السنن والغرض بطول وعرض » فكلمة (يقال) هذه تنبئ عن اهتزاز في الثقة بوجودها ؟

ومن العادات التي ذكرها ابن المجاور[1] أيضاً (المهر) . فهو يقول : « ونساء أهل هذه البلاد لم يأخذوا (يأخذن) من أزواجهن المهر ، وأخذ المهر عندهم عيب عظيم ، وكل امرأة تأخذ المهر من زوجها يسمونها (مفروكة)[2] أي أن زوجها أعطاها مهرها وفركها ، أي : طلقها » .

فمن المعروف أن (المهر) يشترط من البداية أن يكون كله أو جزءاً منه مؤجلاً ، وهو من حق المرأة عند الرجل ، وهنا تبدأ هذه (العادة) عند المرأة نفسها ، فإن طالبت الزوج بالمهر فهو (العيب) ولذا يترتب عليه طلاقها ، وقلّة رغبة الرجال في تزوجها مخافة أن تعاملهم كما عاملت الأول ، وسنلاحظ فيما بعد أن هذه إحدى صور الطلاق الممارسة .

وبداهة أن يتحلى العروسان بالزينة المتداولة المعروفة عندهم ، ولم نجد وصفاً متكاملاً لها ، ولكن مما يلفت النظر أن ابن المجاور[3] يصرّ على أن الرجال قبل الدخول على المرأة يخضبون أيديهم وأرجلهم كنوع من أنواع الزينة ، ولا أدري ما إذا كانت هذه العادة موجودة بصورة قاطعة أم لا ؟

إلا أن هذه اللفتة تدلّنا على مبدأ التزين والزينات التي تمارس في العرس .

هناك عادة موجودة في اليمن بل في مجتمعات كثيرة ، فلا تشذّ مدينة زبيد عن بقية اليمن وهي عادة (الطَّرْح) . و (الطَّرْح) كلمة تفيد معنى الإلقاء وهي

---

(١) المصدر نفسه ٨٥

(٢) الفرك : الكره والبغض ، وتستعمل الكلمة عادة في البغض بين الزوجين (المعجم الوسيط ٦٨٦/٢) .

(٣) المستبصر ٧ ، ٨٦

نوع من الهدية المقدمة في المناسبات كالأعراس والختان والولادة ... إلخ ، ويعتبر (ديناً) لدى من تلقاه وعليه أن يعيده في مناسبة مماثلة . فيطرح مثل الذي حصل عليه أو أكثر . ويمارس (الطرح) في مجتمع النساء بصورة أوسع ، لأنه قد يؤدي إلى إفساد المرأة ، لأنها قد تضطر للخروج وتتكفف أيدي الناس ، لأنها لم تجد الدين الذي عليها من (الطَّرْح) فإذا ما تحصلت على شيء أسرعت لتدفعه إلى أصحابه[1] .

وعن الطلاق لا بدَّ من كلمة ، فلا نجد تفاصيل عن هذه الحالة ، ولكننا وجدنا عند ابن المجاور[2] صورة من صور الطلاق الغريبة .

فالزوج إذا أراد الخلاص من زوجته لعدم رغبته فيها فإنه يعطيها مهرها . وتصبح (مفروكة) أي مطلقة . والزوجة إذا غضبت من زوجها لزواجه - مثلاً - من غيرها تجمع حولها نساء الحي فتعلن (فرك) زوجها بأن تهب له المهر وتخرج من البيت قبل أن يعطيها الزوج مهرها ، وهذا الإجراء من جانبها لا يكون عيباً ولا يلحقها العار ، وتظلّ محترمة عند الرجال فلا تهجر ، بل يمكن أن يتقدَّم إليها الراغبون فيها والزواج منها .

يبقى لنا أن نشير إلى ظاهرة لاحظناها من خلال استعراضنا للجوانب الاجتماعية المختلفة السابقة وهي ظاهرة الاهتمام بالآلات الموسيقية . فالاحتفالات كلها تصحبها الطبول والمزامير . حتى الاحتفالات بمواسم الزراعة . أما الأعياد الشرعية كعيدي الفطر والأضحى فلا نجد وصفاً للابتهاج بها إلا أن ماذكره المقدسي[3] عن عدن ومكة من احتفالات كان فيها الدبادب (نوع من الطبول =

---

(١) ابن المجاور . المستبصر ٧ ، ٨٦

(٢) المصدر نفسه ٨٥ ، ٨٦

(٣) أحسن التقاسيم ١٠٠

مفردها دبدب) والطبول ، وضرب (الفرقيعات) وربما هي نوع من المواد المتفجرة التي تحدث صوتاً إشعاراً ببدء العيد أو عند الصلوات . فهذا الوصف الذي ذكره المقدسي عن مكة أو عن عدن ، لا يبعد أن يكون له شبيه في زبيد لاشتراك المنطقة في عادات مختلفة .

ومن الظواهر الملفتة في زبيد ظاهرة أشار إليها ابن المجاور[1] وهي غرابة الأسماء المستخدمة في أوساطهم حيث ذكر العديد من الأسماء .

أخيراً نقف عند عبارة ذكرها ابن المجاور[2] وهي : « وجميع عرب هذه الأعمال : الجبال مع التهائم إلى حدود الحجاز لا يقبل أحدهم حكم الشرع ، وإنما يرضون بحكم (المنع) ولا شكَّ أنه حكم الجاهلية الذي كانوا يتحاكمون به عند الكهنة » .

فما هو حكم (المنع) هذا ؟ ولماذا يفضل على حكم الشرع ؟ وهل حكم (المنع) هو من الأعراف القبلية الجاهلية السابقة على الإسلام ؟

يرى الدكتور العليمي[3] من خلال ماتوصل إليه في دراسته إلى أن الأعراف القبلية في اليمن لها مصادر ثلاثة : الدين (منها الأديان السابقة على الإسلام) . والسوابق القبلية . وبقايا القوانين الوضعية للدول اليمنية القديمة .

ولكن حكم (المنع) هذا ماهو ؟ لقد حاولت البحث عنه في مصادر مختلفة ولكنني فشلت لانعدام الدراسات في هذا الشأن ، وإن كان الأستاذ عبد الله الحبشي قد لفت انتباهي إلى تعبير متداول في اليمن وهو « لي منعك » أي أنا ممتنع

---

(١) المستبصر ٨٨

(٢) المصدر نفسه ٩٩

(٣) رشاد العليمي ، القضاء القبلي في المجتمع اليمني ١٣١ وما بعدها .

بك . فهو تعبير يدلّ على أن الملتجئ إليه يرى إزالة ما لحقه من ظلم . فربما كان هذا جزءاً من معناه .

أما تفضيل حكم (المنع) على حكم الشرع ، فيكفي ما وصفه به ابن المجاور بأنه حكم الجاهلية . وهذا الذي أشار إليه الإمام الشوكاني[1] في رسالته القيمة الشارحة حال اليمن في عصره ، حيث وصف من يقوم بهذا الحكم بأنه حكم طاغوتي لا حكم الشرع .

فهذا السلوك المحظور يماثله سلوك الاختلاط العاري على البحر - إن صدقت هذه الرؤية - وتشبهه تلك الممارسات المالية - على مستوى الدولة - المخالفة للشرع كالمكوس . كذلك صفة الدعة ، وتفشي الحركات والكلام الذي يشبه حديث وحركات النساء ، وقد أطلق ابن المجاور[2] على هذا وذاك بأنه تقصف وتغانج . هذه السلوكيات بالرغم من أن لدينا من ديننا وتراثنا الكثير للتدليل على أنه سبب للتفكك ، إلا أننا ننقل عبارة (لدينكن ميتشل)[3] أحد علماء الاجتماع البارزين حيث يقول : إن السلوك المحظور في أي مجتمع « يعرض العلاقات الاجتماعية إلى التفكك والضعف ، ويجلب للمجتمع المشاكل والأمراض التي تهدد كيانه بالسقوط والفناء » .

---

(١) الدواء العاجل في دفع العدو الصائل ٥٩ - ٦٣

(٢) المستبصر ٧٠

(٣) معجم علم الاجتماع ٢٤٣

قائمة المراجع

أولاً ـ المخطوطة :

ـ أحمد بن سليمان (ت ٥٦٦ هـ/ ١١٧٠ م)

١ ـ الحكمة الدّرية والدلالة النّبوية (المكتبة الغربية بالجامع الكبير بصنعاء رقم ٥١ علم كلام) .

الأهدل ، محمد بن عبد القادر (ت ١٣٢٧ هـ/١٩٠٩ م)

٢ ـ إرشاد الحائر في إقامة الجمعة بمسجد الأشاعر (المكتبة الغربية بالجامع الكبير بصنعاء ١٢ مجاميع) .

ـ الجنداري ، أحمد بن عبد الله (ت ١٣٣٧ هـ/١٩١٨ م)

٣ ـ الجامع الوجيز في وفيات العلماء أولي التبريز (المكتبة الغربية بالجامع الكبير بصنعاء رقم ٦٥ تاريخ) .

ـ الجندي ، بهاء الدين أبو عبد الله محمد بن يوسف بن يعقوب (ت ٧٣٢ هـ/١٣٣١ م)

٤ ـ السلوك في طبقات العلماء والملوك (خ ٨٩٧ هـ ، معهد المخطوطات العربية بالقاهرة ، ميكروفيلم رقم ٦٩٨ تاريخ ، مصور عن مكتبة كوبرلي رقم ١١٧ ، وكان للصديق الدكتور / أحمد حافظ الحكمي الفضل في حصولي على نسخة منه) .

ـ ابن أبي الرجال ، أحمد بن صالح بن أبي الرجال (ت ١٠٩٢ هـ/١٦٨١ م)

٥ ـ مطلع البدور ومجمع البحور (مخطوطة الأستاذ علي بن أبي الرجال ، صنعاء ، وكان للوالد القاضي / إسماعيل بن علي الأكوع الفضل في حصولي على صورة منها) .

ـ مجهول

٦ ـ تاريخ اليمن في الكواني والفتن (معهد المخطوطات العربية بالقاهرة ، ميكروفيلم رقم ١٨ عن مخطوطة الامبروزيانا G10) .

ـ يحيى بن الحسين بن القاسم (ت ١١٠٠ هـ/١٦٨٨ م)
٧ ـ إنْبَاء أبناء الزمن في تاريخ اليمن (دار الكتب المصرية رقم ١٣٤٧ تاريخ) .
٨ ـ الطبقات في ذكر فضل العلماء وعلمهم ومصنفاتهم وتعرف بـ (طبقات الزيدية الصغرى) ، (صورة من المخطوط في المكتبة المركزية ، جامعة صنعاء ، كان للزميل الدكتور / طه أحمد أبو زيد الفضل في حصولي على صورة منها) .

ثانياً ـ المطبوعة العربية :

ـ ابن الأثير ، أبو الحسن عز الدين علي محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري (ت ٦٣٠ هـ/١٢٣٢ م)
٩ ـ الكامل في التاريخ (دار صادر وبيروت ١٩٦٥ م) .
ـ أحمد رمضان أحمد (الدكتور)
١٠ ـ الرحلة والرحالة المسلمون (دار البيان العربي ، جدة) .
ـ أحمد السعيد سليمان
١١ ـ تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة (دار المعارف ، القاهرة) .
ـ ابن الأخوة ، محمد بن محمد بن أحمد القرشي (ت ٧٢٩ هـ/١٣٢٩ هـ)
١٢ ـ معالم القربة في أحكام الحسبة ، تحقيق الدكتور / محمد محمود شعبان ، وصديق أحمد المطيعي ، (الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦ م) .
ـ إدريس عماد الدين بن حسين القرشي
١٣ ـ عيون الأخبار وفنون الآثار ، تحقيق الدكتور / مصطفى غالب ، دار الأندلس ، بيروت .
ـ إسماعيل باشا الباباني البغدادي (ت ١٣٣٩ هـ/١٩٢٠ م)
١٤ ـ إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون ، دار العلوم الحديثة ، بيروت .
ـ إسماعيل قربان حسين
١٥ ـ السلطان الخطاب : حياته وشعره ، دار المعارف بمصر .
ـ الأشعري ، أبو الحسن علي بن إسماعيل (ت ٣٣٠ هـ/٩٤١ م)
١٦ ـ مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ، تحقيق / محمد محيي الدين عبد الحميد ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة .

- **الاصطخري ، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري المعروف بالكرخي (ت ٣٤١ أو ٣٤٦ هـ/٩٥٢ أو ٩٥٧ م)**

١٧ ـ مسالك الممالك ، مطبعة بريل ، ليدن ١٩٢٧ م .

- **الأكوع ، إسماعيل علي (القاضي)**

١٨ ـ الوثائق السياسية اليمنية من قبيل الإسلام إلى سنة ٣٣٢ (جمع وتحقيق) ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٦ هـ/١٩٧٦ م ، دار الحرية ، بغداد .

- **الباشا حسن (الدكتور)**

١٩ ـ الألقاب الإسلامية ، دار النهضة العربية ١٩٧٨ م .

- **البستاني ، فؤاد أفرام**

٢٠ ـ منجد الطلاب ، ط الرابعة ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت .

- **ابن بطوطة ، محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواني الطنجي ، (ت ٧٧٠ أو ٧٧٩ هـ/١٣٦٨ أو ١٣٧٧ م)**

٢١ ـ رحلة ابن بطوطة ، المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، طبعة دار التحرير ١٩٦٦ م ، القاهرة .

- **بروكلمان ، كارل**

٢٢ ـ تاريخ الأدب العربي ، ترجمة الدكتور / عبد الحليم النجار ، ط الرابعة ، دار المعارف ، القاهرة .

- **ابن تغري بردي ، جمال أبو المحاسن (ت ٨٧٤ هـ/١٤٦٩ م)**

٢٣ ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، وزارة الثقافة بمصر .

- **التيفاشي ، أحمد بن يوسف (ت ٦٥١ هـ/١٢٥٣ م)**

٢٤ ـ أزهار الأفكار في جواهر الأحجار ، تحقيق الدكتور / محمد يوسف حسن والدكتور / محمود بسيوني خفاجي ، الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٧ م .

- **الجرافي ، عبد الله عبد الكريم**

٢٥ ـ المقتطف من تاريخ اليمن ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة .

- **حاجي خليفة ، مصطفى بن عبد الله**

٢٦ ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، دار العلوم الحديثة ، بيروت .
ـ **الحبشي ، عبد الله محمد**
٢٧ ـ مصادر الفكر العربي الإسلامي في اليمن ، مركز الدراسات اليمنية ، صنعاء .
ـ **الحجري ، محمد بن أحمد**
٢٨ ـ مجموع بلدان اليمن وقبائلها ، تحقيق / إسماعيل بن علي الأكوع ، وزارة الإعلام والثقافة ، صنعاء ، ١٤٠٤ هـ/١٩٨٤ م .
ـ **الحريري ، محمد عيسى (الدكتور)**
٢٩ ـ معالم التطور السياسي من دولة بني نجاح باليمن وعلاقاتهم بالصليحيين ، دار القلم ، ١٤٠٤ هـ/١٩٨٤ م ، الكويت .
ـ **حسن إبراهيم حسن**
٣٠ ـ النظم الإسلامية ، ط الرابعة ، ١٩٧٠ م ، مكتبة النهضة ، القاهرة .
ـ **حسن عبد العال (الدكتور)**
٣١ ـ التربية الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، دار الفكر العربي ، القاهرة .
ـ **حلاق ، حسان**
٣٢ ـ تعريب النقود والدواوين من العصر الأموي ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت . ودار الكتاب المصري ، القاهرة .
ـ ابن **حوقل ، أبو القاسم بن حوقل النصيبي (ت ٣٦٧ هـ/١٩٧٧ م)**
٣٣ ـ صورة الأرض ، مكتبة الحياة ، ١٩٧٩ م ، بيروت .
ـ **الحيمي ، أحمد بن محمد الحيمي الكوكباني (القاضي) (ت ١١٥١ هـ/١٧٣٨ م)**
٣٤ ـ حدائق النمام من الكلام على ما يتعلق بالحمام ، تحقيق / عبد الله محمد الحبشي ، منشورات وزارة الأوقاف والإرشاد رقم (٣) ، صنعاء .
الخربوطلي ، **علي حسني (الدكتور) ، المسعودي**
٣٥ ـ سلسلة نوابغ الفكر العربي (٣٨) ، دار المعارف ، بمصر .
ـ ابن **خرداذبة ، أبو القاسم عبيد الله (ت ٣٥٠ هـ/٩١٢ م)**
٣٦ ـ المسالك والممالك ، مكتبة المثنى ، بغداد .

- **الخزرجي ، أبو الحسن علي بن الحسن بن أبي بكر بن الحسن الخزرجي الأنصاري (ت ٨١٢ هـ/١٤٠٩ م)**

٣٧ ـ اليمن في عهد الولاة ، تحقيق / راضي دغفوس للفصول الخمسة الأولى من كتاب الكفاية والإعلام للخزرجي ، كلية الآداب ، جامعة تونس .

٣٨ ـ العسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك ، نشرته وزارة الإعلام اليمنية ، صنعاء بتصوير المخطوطة بالأوفس بمكتبة دار الفكر ، دمشق .

- **الخطيب ، أحمد شفيق**

٣٩ ـ أشرف على الموسوعة العلمية الميسرة التي قام بها مجموعة من المؤلفين ، ط الثانية ، ١٩٨٥ م ، مكتبة لبنان ، بيروت .

- **ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ/١٤٠٥ م)**

٤٠ ـ كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، المعروف بتاريخ ابن خلدون ، دار الكتاب اللبناني ، ومكتبة المدرسة ، بيروت .

- **خليفة ، ربيع حامد (الدكتور)**

٤١ ـ مناسج الطراز الخاصة بمدينة صنعاء ، دراسة حول المنسوجات اليمنية في العصر الإسلامي (مجلة الإكليل ، العدد الثاني ، السنة السادسة ، عام ١٤٠٨ هـ/١٩٨٨ م ، وزارة الإعلام ، صنعاء .

- **ابن الديبع ، عبد الرحمن بن علي بن الديبع الشيباني الزبيدي (ت ٩٤٣ هـ/١٥٣٦ م)**

٤٢ ـ قرة العيون بأخبار اليمن الميمون ، تحقيق / محمد علي الأكوع ، السلفية ، القاهرة .

٤٣ ـ بغية المستفيد من تاريخ زبيد ، تحقيق / عبد الله الحبشي ، مركز الدراسات اليمنية ، ١٩٧٩ م .

- **دي خوية ، ميكال بان**

٤٤ ـ القرامطة ، نشأتهم ، دولتهم ، وعلاقاتهم بالفاطميين ، ترجمة وتحقيق / حسني زينة ، ط أولى ، ١٩٧٨ م ، دار ابن خلدون ، بيروت .

- **الرازي ، أحمد بن عبد الله (ت ٤٦٠ هـ/١٠٦٧ م)**

٤٥ ـ تاريخ مدينة صنعاء ، تحقيق / حسين عبد الله العمري وعبد الجبار زكار ، ط الأولى ١٩٧٤ م ، بيروت .

ـ **الرازي ، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر**

٤٦ ـ مختار الصحاح ، مؤسسة علوم القرآن ، ومكتبة النوري ، دمشق ١٩٧٨ م .

ـ **ابن رسته ، أبو علي أحمد بن عمر (توفي بين سنة ٢٩٠ و ٣٠٠ هـ/٩٠٢ و ٩١٢ م)**

٤٧ ـ الأعلاق النفيسة ، مطبعة بريل ، ليدن ، ١٨٩١ م .

ـ **ابن الرفعة ، أبو العباس نجم الدين (ت ٧١٠ هـ/١٣١٠ م)**

٤٨ ـ الإيضاح والتبيان في معرفة المكيال والميزان ، تحقيق الدكتور / محمد أحمد إسماعيل الخاروف ، (نشر جامعة الملك عبد العزيز ، مكة المكرمة ١٤٠٠ هـ/١٩٨٠ م) .

ـ **رياض ، زاهر**

٤٩ ـ دولة خبشية في اليمن ، دولة بني نجاح (المجلة التاريخية العربية ، المجلد الثامن ١٩٥٩ م ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ، **الزاوي ، الطاهر أحمد .**

٥٠ ـ ترتيب القاموس المحيط ، ط الثانية ، عيسى الحلبي ، القاهرة .

ـ **ابن زاكن ، محمد بن علي بن عوض بن سعيد بن زاكن باحنان**

٥١ ـ جواهر تاريخ الأحقاف ، مراجعة الدكتور / حسن جاد حسن ، مكتبة النهضة الحديثة بمكة المكرمة ١٣٨٢ هـ/١٩٦٢ م .

ـ **زبارة ، محمد بن زبارة الحسني الصنعاني (ت ١٣٨٠ هـ/١٩٦٠ م)**

٥٢ ـ أئمة اليمن ، مطبعة النصر الناصرية ، تعز ، اليمن ، ١٣٧٢ هـ/١٩٥٢ م .

ـ **الزركلي ، خير الدين**

٥٣ ـ الأعلام ، الطبعة الثالثة .

ـ **زيادة ، نيقولا (الدكتور)**

٥٤ ـ الجغرافية والرحلات عند العرب ، مكتبة المدرسة ، ودار الكتاب اللبناني ، ١٩٦٢ م ، بيروت .

ـ **سامح ، عبد الرحمن فهمي (الدكتور)**

٥٥ ـ المكاييل في صدر الإسلام ، المكتبة الفيصلية ، مكة المكرمة .

ـ **السبكي ، تاج الدين بن تقي الدين (ت ٧٧١ هـ/١٣٧٠ م)**

٥٦ ـ طبقات الشافعية الكبرى ، ط الثانية ، دار المعرفة ، بيروت .

ـ ابن سعد ، محمد (ت ٢٣٠ هـ/٨٤٤ م)

٥٧ ـ الطبقات الكبرى ، دار صادر ، بيروت .

ـ ابن سمرة الجعدي ، عمر بن علي (توفي بعد حوالي ٥٨٦ هـ/١١٩٠ م)

٥٨ ـ طبقات فقهاء اليمن ، تحقيق / فؤاد سيد ، مطبعة السنة المحمدية ، ١٩٥٧ م ، القاهرة .

ـ السهيلي ، عبد الرحمن بن عبد الله (المحدث) (ت ٥٨١ هـ/١١٨٥ م)

٥٩ ـ الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام (ت ٢١٨ هـ/٨٣٣ م) ، تحقيق / عبد الرحمن الوكيل ، ط أولى ، ١٣٨٧ هـ/١٩٦٧ م ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة .

ـ السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١ هـ/١٥٠٥ م)

٦٠ ـ تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي ، تحقيق / عبد الوهاب عبد اللطيف ، ط الثانية ، ١٣٩٢ هـ/١٩٧٢ م ، المكتبة العلمية ، المدينة المنورة .

ـ الشجاع ، عبد الرحمن عبد الواحد (الدكتور)

٦١ ـ اليمن في صدر الإسلام من البعثة المحمدية حتى قيام الدولة الأموية ، دار الفكر ، ١٩٨٧ م ، دمشق .

٦٢ ـ الحياة العلمية في اليمن فن القرنين الثالث والرابع للهجرة (رسالة دكتوراة) ، جامعة الأزهر ، كلية اللغة العربية ، قسم التاريخ ، سنة ١٩٨٦ م ، مطبوع على الآلة الكاتبة .

ـ الشرجي ، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد اللطيف (ت ٨٩٣ هـ/١٤٨٨ م)

٦٣ ـ طبقات الخواص ، المطبعة الميمنية ، ١٣٢١ هـ ، مصر .

ـ الشوكاني ، محمد بن علي (ت ١٢٥٠ هـ/١٨٣٤ م)

٦٤ ـ الدواء العاجل في دفع العدو الصائل ، تصحيح / محمد حامد الفقي ، مطبعة السنة المحمدية ١٣٦٦ هـ/١٩٤٧ م .

٦٥ ـ فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية .

ـ شيحة ، مصطفى (الدكتور)

٦٦ ـ مدخل إلى العمارة الإسلامية في الجمهورية اليمنية ، ط أولى ، ١٤٠٨ هـ/١٩٨٧ م ، القاهرة .

ـ **صبحي الصالح (الدكتور)**

٦٧ ـ النظم الإسلامية ، دار العلم للملايين ، بيروت .

ـ **ابن الصلاح ، تقي الدين عثمان بن عبد الرحمن (ت ٦٤٣ هـ/١٢٢٥ م)**

٦٨ ـ مقدمة ابن الصلاح ، تحقيق / الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) ، دار الكتب المصرية ، ١٩٧٤ م .

ـ **ضيف ، شوقي (الدكتور)**

٦٩ ـ العصر العباسي الثاني ، ط ٤ ، دار المعارف ، القاهرة .

٧٠ ـ الرحلات ، ط الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة .

ـ **الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، (ت ٣١٠ هـ/٩٢٢ م)**

٧١ ـ تاريخ الرسل والملوك المعروف بتاريخ الطبري ، تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط ٢ ، دار المعارف بمصر .

ـ **العامري ، يحيى بن أبي بكر الحرضي (ت ٨٤٣ هـ/١٤٨٨ م)**

٧٢ ـ غربال الزمان في وفيات الأعيان ، تصحيح وتعليق / محمد ناجي زعبي العمر ، دار الخير ، دمشق .

ـ **عبد الجبار الهمذاني (القاضي) (ت ٤١٦ هـ/١٠٢٥ م)**

٧٣ ـ تثبيت دلائل النبوة (ضمن كتاب أخبار القرامطة ، تحقيق / سهيل زكار) .

ـ **ابن عبد المجيد ، تاج الدين عبد الباقي بن عبد المجيد اليماني**

٧٤ ـ تاريخ اليمن المسمى بهجة الزمن في تاريخ اليمن ، تحقيق / مصطفى حجازي ، دار العودة ، بيروت ، ودار الحكمة ، صنعاء .

ـ **أبو عبيد القاسم بن سلام (٢٢٤ هـ/٨٣٩ م)**

٧٥ ـ الأموال ، تحقيق / محمد خليل هراسي ، مكتبة الكليات الأزهرية ، ودار الفكر ، القاهرة ، ١٣٩٥ هـ/١٩٧٥ م .

ـ **العجلوني ، إسماعيل بن محمد (ت ١١٦٢ هـ/١٧٤٩ م)**

٧٦ ـ كشف الخفاء ومزيل الألباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس (بدون دار للنشر ولا مكانه ولا تاريخه) .

ـ العرشي . حسين بن أحمد (ت ١٣٢٩ هـ/١٩١١ م)

٧٧ ـ بلوغ المرام في شرح مسك الختام . تحقيق / الأب أنستاس الكرملي . مكتبة اليمن الكبرى . صنعاء .

ـ عريب بن سعد القرطبي (توفي بعد سنة ٣٣١ هـ/١٠٣٩ م)

٧٨ ـ صلة تاريخ الطبري (ملحق بتاريخ الطبري) .

ـ عطية الله أحمد

٧٩ ـ القاموس الإسلامي . مكتبة النهضة المصرية . القاهرة .

ـ العلوي . علي بن محمد بن عبيد الله العباسي (توفي في القرن الرابع الهجري)

٨٠ ـ سيرة الهادي إلى الحق يحي بن الحسين . تحقيق / الدكتور سهيل زكار . ط١ ١٣٩٢ هـ/١٩٧٢م . دار الفكر . بيروت .

ـ العليمي . رشاد (الدكتور)

٨١ ـ القضاء القبلي في المجتمع اليمني (رسالة ماجستير مطبوعة على الاستنسل ١٩٨٤ م . كلية الآداب . جامعة عين شمس . القاهرة .

ـ عمارة اليمن . ابن علي (ت ٥٦٩ هـ/١١٧٣ م)

٨٢ ـ تاريخ اليمن المسمى : المفيد في أخبار صنعاء وزبيد وشعراء ملوكها وأعيانها وأدبائها . تحقيق / محمد علي الأكوع . الطبعة الثانية . ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م . مطبعة السعادة . القاهرة .

ـ العمري . يوسف علي يوسف (الشيخ الدكتور) (ت ١٩٨٩ م)

٨٣ ـ محاضرات في التاريخ الإسلامي (ألقيت في كلية التربية بجامعة الأزهر) .

ـ أبو الفداء . عماد الدين إسماعيل بن محمد (ت ٧٣٢ هـ/١٣٣١ م)

٨٤ ـ تقويم البلدان . نشر رينود والبارون ماك كوكين ديسلان . طبع دار الطباعة السلطانية ١٨٤٠ باريس . وصورتها بالأوفست مكتبة الخانجي بالقاهرة . والمثنى ببغداد .

ـ قداحة بن جعفر . أبو الفرج (ت ٣٢٠ هـ/٩٣٢ م)

٨٥ ـ الخراج وصنعة الكتابة (ملحق بكتاب ابن خرداذبه ، المسالك والممالك) .
ـ الكبسي . **محمد بن إسماعيل (ت ١٣٠٨ هـ/ ١٨٩٠ م)**
٨٦ ـ اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية . مطبعة السعادة . مصر .
ـ **كراتشوفسكي . أغناطيوس يوليا نوفتش**
٨٧ ـ تاريخ الأدب الجغرافي . ترجمة / صلاح الدين عثمان هاشم . نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة .
ـ **المازندراني . السيد موسى الحسيني**
٨٨ ـ تاريخ النقود الإسلامية . الطبعة الثانية ١٩٨٨ م . دار العلوم . بيروت .
ـ **ابن المجاور . جمال الدين أبو الفتوح يوسف بن يعقوب بن محمد الشيباني الدمشقي (ت ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م)**
٨٩ ـ صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسماة : تاريخ المستبصر . تصحيح وضبط / أوسكر لونغرين . مطبعة بريل . ليدن . ١٩٥١ م .
ـ **مجمع اللغة العربية**
٩٠ ـ المعجم الوسيط . دار المعارف . القاهرة .
ـ **المحلى . أبو الحسن . حسام الدين حميد بن أحمد المحلى (ت ٦٥٢ هـ/ ١٢٥٤ م)**
٩١ ـ الحدائق الوردية من مناقب أئمة الزيدية . صورت المخطوطة بالأوفست على نفقة السيد يوسف المؤيد واعتبرها الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٢م .
ـ **بامخرمة . أبو محمد عبد الله الطيب بن عبد الله بن أحمد (ت ٩٤٧ هـ/ ١٩٤٠ م)**
٩٢ ـ تاريخ ثغر عدن . مطبعة بريل . ليدن . هولندا ١٩٣٦ م .
ـ **مخلص . عدي يوسف**
٩٣ ـ المقدسي البشاري : حياته ، منهجه ، دراسة كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم من الناحية التاريخية . النجف الأشرف . العراق . ١٣٩٣ هـ/ ١٩٧٣م .
ـ **المسعودي ، أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٥ هـ/ ٩٥٦ م)**
٩٤ ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق / محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الفكر ، بيروت .

٩٥ ـ التنبيـه والإشراف ، تصحيـح / عبـد الله إسماعيـل الصـاوي ، مكتبـة المثنى ، ١٣٥٧ هـ/١٩٣٨ م ، بغداد .

ـ مسلم اللحجي ، أبو الغمر (ت ٥٤٥ هـ/١١٥٠ م)

٩٦ ـ كتاب فيه شيء من أخبار الزيدية باليمن (مخطوطة من مكتبة باريس وقد كان للأستاذ عبد الله محمد الحبشي فضل في حصولي على صورة لمنسوخة عن المخطوطة الأصلية) .

ـ مصطفى غالب (الدكتور)

٩٧ ـ تاريخ الدعوة الإسماعيلية ، ط ٣ ، ١٩٧٩ م ، دار الأندلس ، بيروت .

ـ المقحفي ، إبراهيم أحمد

٩٨ ـ معجم البلدان والقبائل اليمنية ط ٢ ، ١٩٨٥ م ، دار الكلمة ، صنعاء .

ـ المقدسي ، محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء المقدسي البشاري (ت ٣٨٠ هـ/٩٩٠ م)

٩٩ ـ أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ط ٢ ، مطبعة بريل ، ليدن ، ١٩٠٦ م .

ـ المقريزي ، (ت ٨٢٥ هـ/١٤٢١ م)

١٠٠ـ اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء (جزء خاص بالقرامطة) ، تحقيق الدكتور / سهيل زكار ضمن كتابه أخبار القرامطة ، ط ٢ ، ١٤٠٢ هـ/١٩٨٢ م ، دار حسان ، دمشق .

ـ ابن منظور

١٠١ـ لسان العرب ، دار المعارف ، القاهرة .

ـ منير الدين أحمد

١٠٢ـ تاريخ التعليم عند المسلمين ، المكانة الاجتماعية لعلمائه حتى القرن الخامس الهجري .

ـ المؤيد في الدين ، هبة الله بن موسى (داعي الدعاة) (ت ٤٧٠ هـ/١٠٧٧ م)

١٠٣ـ ديوان المؤيد ، تحقيق / محمد كامل حسين ، دار الكاتب المصري ، ١٩٤٩ م ، القاهرة .

ـ ميتشل . دينكن

١٠٤ـ معجم علم الاجتماع ، دار الطليعة ، بيروت .

ـ ناصر خسرو (ت ٤٨١ هـ/١٠٨٨ م)

١٠٥ـ سفرنامة ، ترجمة الدكتور / يحي الخشاب ، ط الثالثة ، ١٩٨٣ م ، دار الكتاب الجديد .

ـ ناهض عبد الرزاق

١٠٦ـ المسكوكات وكتابة التاريخ ، ط الأولى ، ١٩٨٨ م ، سلسلة الموسوعة التاريخية الميسرة ، العراق .

ـ ابن النديم ، محمد بن إسحاق (ت ٣٨٥ هـ/ ٩٩٥ م)

١٠٧ـ الفهرست ، دار المعرفة ، بيروت .

ـ نشوان الحميري ، أبو سعيد (ت ٥٧٣ هـ/ ١١٧٧ م)

١٠٨ـ الحور العين ، تحقيق / كال مصطفى ، مطبعة السعادة بمصر ، نشر / مكتبة الخانجي بمصر ، والمثنى ببغداد .

ـ النعمان بن محمد (القاضي) (ت ٣٦٣ هـ/ ١٩٧٣ م)

١٠٩ـ رسالة افتتاح الدعوة ، تحقيق / وداد القاضي ، ط أولى ، ١٩٧٠ م ، دار الثقافة ، بيروت .

ـ نفيس أحمد

١١٠ـ الفكر الجغرافي في التراث الإسلامي ، ترجمة / فتحي عثمان . ط الثانية ، دار القلم ، ١٣٩٨ هـ/ ١٩٧٨ م ، الكويت .

ـ ابن النقيب ، محمد بن عبد الوهاب المقداد (ت ٩٩٢ هـ/ ١٥٨٤ م)

١١١ـ جامع الأشاعر المسمى / قرة العيون وانشراح الخواطر فيما حكاه الصالحون من فضل مسجد الأشاعر ، تحقيق / عبد الرحمن الحضرمي (نشرته مجلة الإكليل في العددين الثالث والرابع من السنة الأولى عام ١٩٨١ م ، وزارة الإعلام ، صنعاء) .

ـ الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين (ت ٢٩٨ هـ/ ٩١٠ م)

١١٢ـ المجموعة الفاخرة ، صورت مخطوطته بالأوفست مكتبة اليمن الكبرى ، صنعاء .

ـ الهمداني ، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب (توفي بين عامي ٣٥٠ و ٣٦٠ هـ/ ٩٦١ و ٩٧٠ م)

١١٣ـ الإكليل ، الجزء الأول ، تحقيق / محمد علي الأكوع ، ط ٢ ، ١٣٩٧ هـ/ ١٩٧٧ م ، دار الحرية ، بغداد .

١١٤ـ الإكليل ، الجزء الثاني ، تحقيق / محمد علي الأكوع ، السنة المحمدية ، ١٣٨٦ هـ/١٩٦٦ م .

١١٥ـ الإكليل ، الجزء الثامن ، تحقيق / نبيه أمين فارس ، دار العودة ، بيروت . دار الكلمة ، صنعاء .

١١٦ـ الإكليل ، الجزء العاشر ، تحقيق / محب الدين الخطيب ، السلفية ، القاهرة .

١١٧ـ الجوهرتين العتيقتين من الصفراء والبيضاء (الذهب والفضة) تحقيق / محمد محمد الشعيبي ، ط أولى ، دار الكتاب ، دمشق .

١١٨ـ صفة جزيرة العرب ، تحقيق / محمد علي الأكوع ، دار اليمامة ، ١٣٩٤ هـ/١٩٧٤ م ، الرياض .

١١٩ـ قصيدة الدامغة ، تحقيق / محمد علي الأكوع ، السنة المحمدية ، ١٩٧٨ م ، القاهرة .

١٢٠ـ المقالة الخامسة في سرائر الحكمة ، أخرجه محمد علي الأكوع ، بدون طبع ولا تاريخ .

ـ الهمذاني ، حسين بن فيض الله (الدكتور)

١٢١ـ الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن (من سنة ٢٦٨ إلى سنة ٦٢٦ هـ) ، وزارة الإعلام والثقافة ، صنعاء .

ـ الهمذاني ، محمد بن عبد الملك

١٢٢ـ تكملة تاريخ الطبري (ملحق بتاريخ الطبري) .

ـ الواسعي ، عبد الواسع بن يحيى الواسعي اليماني

١٢٣ـ تاريخ اليمن ، المسمى : فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن ، ط الثانية ، ١٣٦٦ هـ/١٩٤٧ م ، مطبعة حجازي ، القاهرة .

ـ الوصابي ، عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن عمر الحبيش الوصابي (ت ٧٨٢ هـ/١٣٨٠ م)

١٢٤ـ تاريخ وصاب المسمى : الاعتبار في التواريخ والآثار ، تحقيق / عبد الله محمد الحبشي ، ط أولى ، ١٩٧٩ م ، مركز الدراسات والبحوث اليمني . صنعاء .

ـ ياقوت الحموي ، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي (ت ٦٢٦ هـ/١٢٢٨ م)

١٢٥ـ معجم البلدان ، دار صادر ، ١٣٩٧ هـ/١٩٧٧ م ، بيروت .

- يحيى بن الحسين بن القاسم (ت ١١٠٠ هـ/١٦٨٨ م)
١٢٦- غاية الأماني في أخبار القطر اليماني ، تحقيق / الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، دار الكاتب العربي ، ١٣٨٨ هـ/١٩٦٨ م ، القاهرة .
- اليعقوبي ، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح (ت ٢٨٤ هـ/٨٩٧ م)
١٢٧- البلدان ، ملحق بكتاب ابن رسته ، الأعلاق النفيسة .
١٢٨- تاريخ اليعقوبي ، دار صادر ، بيروت .
- أبو يعلى ، الفراء
١٢٩- الأحكام السلطانية ، تصحيح وتعليق / محمد حامد الفقي ، دار الفكر ، لبنان .

ثالثاً - باللغة الإنكليزية :

Doran. Robert E. Darley. Examples of Islamic coinage from Yemen.
Yemen 3000 Years of Art & Civilisation In A: aoia Felix P. 183. Edited By Werner Daum AUSTRIA-ISBN.

الفهارس

- الآيات القرآنية .
- الأحاديث النبوية .
- الأعلام .
- الكتب .
- المصطلحات والمسميات .
- الفرق والمذاهب والجماعات والقبائل .
- البلدان والأماكن .
- الموضوعات .

الآيات القرآنية

الأحاديث النَّبوية

الأعلام

(ن)

(هـ)

الكتب والبحوث

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(س)

المصطلحات والمسميات

الفرق والمذاهب والجماعات والقبائل

البلدان والأماكن

فهرس الموضوعات

المؤلف :

ـ الدكتور / عبد الرحمن عبد الواحد محمد يحيي الشجاع

ـ ينتسب إلى أسرة الشجاع القاطنة جبل صبر المطل على مدينة تعز

ـ تلقى أغلب تعليمه منذ المراحل الأولى في الأزهر الشريف ونال من جامعته العريقة :

ـ الليسانس في التاريخ والحضارة عام ١٩٧٣ م

ـ الماجستير عام ١٩٨٣ م

ـ الدكتوراه (العالِميَّة) عام ١٩٨٦ م

ـ تخصصه الدقيق : تاريخ اليمن الإسلامي

حصل على درجة أستاذ مساعد عام ١٩٩٠ م

ـ يتولى حالياً رئاسة قسم التاريخ بكلية الآداب ـ جامعة صنعاء

ـ شارك في أكثر من ندوة علمية

ـ له بحوث وكتب منشورة منها :

ـ اليمن في صدر الإسلام

ـ النظم الإسلامية في اليمن

اليَمَن
في عُيُونِ الرَّحَالَةِ

أدب الرحلات مورد هام من موارد التاريخ على مختلف مشاربها .

فالرحالة يلحظ بعينه ويسمع بأذنيه ويلمس بيديه ويتذوق ويتفاعل بكلياته ويحاول نقل ذلك كله إلى القارئ .. قد يوفق بنقل الصورة المطلوبة كاملة وقد تثنيه عقبات عن ذلك .

وهذا الكتاب يستخدم أدب الرحلات بوصفها مادة علمية يسد بها بعض الفجوات التاريخية التي لاتتحدث عنها كتب التاريخ المتخصصة حتى القرن السابع الهجري .

وليس معنى هذا عدم الاستعانة بالمصادر التاريخية وإنما كانت كتب الرحلات قطباً ومحوراً في معظم بحوث هذا الكتاب أو أنها حلت بعض الإشكالات التي حيرت المؤرخين أوألجأتهم إلى تناقضات في كتاباتهم .

فيحاول تتبع الرحالة واحداً واحداً ويستخرج مناهجهم في الكتابة ومصادر معلوماتهم ومدى استفادة تاريخ اليمن منها .